مرآة التدين الراشد

قراءة نفسية وقلبية
في آفات التدين الزائف على السوشيال ميديا

علاءالدين محمد رجب

مرآة
التدين الراشد

قراءة نفسية وقلبية
في آفات التدين الزائف على السوشيال ميديا

علاءالدين محمد علي رجب

ح علاءالدين محمد علي رجب ، ١٤٤٧ هـ
رجب ، علاءالدين محمد علي
مرآة التدين الراشد قراءة نفسية وقلبية في آفات التدين الزائف
على السوشيال ميديا. / علاءالدين محمد علي رجب - ط ١. .- الرياض
١٤٤٧ هـ ،
256 ص ؛ 24×17 سم

رقم الإيداع: 5613 / 1448
ردمك: 978-603-06-9653-6

البيانات الأساسية
اسم الكتاب : التدين الراشد بين فكي المتعصب والمداهن
التصنيف : فكر إسلامي / تربية نفسية / أخلاق رقمية
اللغة : العربية
الطبعة : الأولى

تنبيه بخصوص حقوق النشر والاستخدام

هذا العمل متاح لكل مسلم ومسلمة يريد الانتفاع به أو نشره أو تداوله أو الاقتباس منه، ابتغاء وجه الله، ونشرا للفائدة، وتعاونا على البر والتقوى، بشرط الأمانة العلمية وعدم نسبة الكلام إلى غير صاحبه.

ويجوز نقل هذا العمل أو بعضه، وطباعته، ومشاركته عبر الوسائل الرقمية، وإدراجه في المواد التعليمية أو الدعوية أو التربوية، ما دام ذلك في سياق نافع، وبشرط ألا يغير النص بما يخل بمعناه، أو يجتزأ منه ما يؤدي إلى تشويه المقصود، أو يستعمل في غير الغرض الذي كتب من أجله.

والمقصود من إتاحة هذا العمل تيسير الانتفاع به. فمن نقل منه شيئا فليذكر عنوان العمل، وأن تدعو له ما أمكن، فإن الأمانة في العلم والدعوة من تمام البركة، ونسبة الفضل إلى أهله من أخلاق أهل الإنصاف.

ولا يحل لأحد أن ينسب هذا العمل إلى نفسه، أو يعيد نشره باسم آخر، أو يستعمله استعمالا تجاريا محضا دون إذن، أو يغير مضمونه بما يخرجه عن مقصده الأصلي. أما من نشره أو اقتبس منه أو دل عليه ابتغاء النفع، مع حفظ النسبة وصدق القصد، فهو مأذون مأجور إن شاء الله.

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناقله، وأن يجعله من العلم النافع الذي يبقى أثره، وأن يغفر لنا ما كان فيه من خطأ أو تقصير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ
مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ
وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ
عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

تحذير للقارئ قبل أن يبدأ القراءة

هذا الكتاب مرآة للنفس لا منظار على الناس

وُضع هذا الكتاب ليكون أداة للمراجعة الذاتية، ومرآة ينظر فيها الإنسان إلى قلبه، كما ينظر إلى وجهه في المرآة؛ فيرى ما خفي من عيوبه، ويصلح ما اضطرب من نيته، ويدقق في قصده فيضبطه، ويفتش في دواخله عما استتر فيها من أحقاد وأضغان، أو حسد وكبر ورياء وحب للظهور، فيبادر إلى علاجها، ويستعين بالله على تطهير قلبه، ويسأله العون والسلامة وحسن القصد والعمل.

و الغرض من هذا الكتاب ليس أن يقرأه الإنسان وفي ذهنه أسماء الآخرين، فيضع تحت كل صفة اسما، وتحت كل مرض شخصا، ثم يخرج منه وقد ازداد رضا عن نفسه واتهاما للناس. فذلك استعمال يناقض غايته، ويحول دواء القلب إلى أداة للطعن، ومرآة المحاسبة إلى منظار لتتبع عيوب الخلق.

اقرأ هذا الكتاب وأنت تسأل نفسك: أين نصيبي من هذا المرض؟ وكيف يظهر في أقوالي وأعمالي؟ وتحت أي اسم حسن أخفيه عن ضميري؟ ولا تقرأه وأنت تسأل: على من ينطبق هذا الكلام؟ ومن من الناس يقصده المؤلف؟

فقد يكون الإنسان شديد البصر بعيوب غيره، أعمى عن عيوب نفسه؛ يرى الحسد في مخالفيه، ولا يراه في ضيقه بنجاحهم، ويرى الكبر في خصومه، ولا يراه في احتقاره لهم، ويرى الرياء في أعمال الناس، ولا يراه في حرصه على إظهار إخلاصه. وربما قرأ أبواب أمراض القلوب كلها، ثم خرج منها وقد جمع أسماء الناس، ولم يعثر على نفسه بين سطورها.

والمؤلف يبرأ إلى الله تعالى من كل استخدام لهذا الكتاب في إسقاط أحكامه على أشخاص بأعيانهم، أو اتخاذه وسيلة لتفتيش النيات، أو تصفية الخصومات، أو التشهير بالناس، أو رميهم بما لم يثبت عليهم. فالكلام في أمراض القلوب تحذير عام، لا شهادة على سرائر الخلق، وتشخيص للآفات، لا محاكمة لأصحابها.

إن النية والقصد من أعمال القلوب التي لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل، أما نحن فلنا من الناس ما ظهر من أقوالهم وأعمالهم، نحسن الظن ما وجدنا إليه سبيلا، وننصح بالعدل والرحمة، ولا نزعم لأنفسنا علما بما استقر في الصدور.

قد نصف فعلا بأنه يحمل معنى الاستعلاء، أو نحذر من سلوك يفتح باب الرياء، أو ننبه إلى قول قد تدفع إليه العصبية، لكننا لا نملك أن نجزم بأن صاحبه متكبر أو مراء أو حاسد؛ لأن الفعل الظاهر يمكن مناقشته، أما حقيقة القصد فمردها إلى الله تعالى.

ولذلك فليكن هذا الكتاب بينك وبين نفسك قبل أن يكون حديثا عن أحد غيرك. اجعله بابا للمحاسبة، لا منصة للمحاكمة؛ وسببا للتواضع، لا مادة للشعور بالتفوق؛ وطريقا إلى إصلاح القلب، لا ترخيصا لاتهام القلوب.

فإذا وجدت فيه وصفا يذكرك بإنسان تعرفه، فلا تتعجل إسقاطه عليه، بل ارجع به أولا إلى نفسك، فلعل الذي عرفت به عيب غيرك قد ابتليت به من وجه آخر لا تراه. وإذا رأيت في نفسك شيئا منه، فلا تيأس ولا تتستر، بل احمد الله الذي بصرك بموضع الداء، وابادر إلى علاجه بالتوبة والمجاهدة والدعاء والعمل الصالح.

هذا الكتاب مرآة، والمرآة لا تتهم أحدا، وإنما تكشف للناظر ما يقف أمامها. فمن جعل نفسه أمامها انتفع، ومن جعل الناس أمامها انشغل بعيوبهم عن عيبه، وربما خرج من القراءة بمرض أشد من الأمراض التي جاء الكتاب للتحذير منها.

فاللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، وأصلح نياتنا، وطهر قلوبنا، وأعذنا من أن نقول ما لا نعمل، أو نرى عيوب الناس وننسى عيوبنا، أو نستعمل الحق نصرة لأنفسنا، أو نجعل من النصيحة بابا للظلم والعدوان.

لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، وهو وحده أعلم بمن اتقى.

قائمة المحتويات

تنبيه بخصوص حقوق النشر والاستخدام
مقدمة: التدين المغشوش بين الغلو والتمييع
الباب الأول
حقيقة التدين المغشوش ومنطلقاته النفسية
الفرق بين التدين الصادق والتدين المغشوش
التدين المغشوش حين يتحول من عبودية لله إلى صورة اجتماعية
التدين الاستعراضي وشهوة الظهور باسم النصرة
عقدة التفوق الديني والأخلاقي
الباب الثاني
1. آفات التعصب الديني على السوشيال ميديا
2. التعصب الديني بوصفه حاجة نفسية إلى اليقين السهل
3. القسوة حين تتنكر في هيئة الغيرة
4. النرجسية الدينية والبحث عن مركزية الذات
5. الإسقاط النفسي واتهام الآخرين بما يسكن في الداخل
6. اقتصاد الغضب الديني على المنصات
7. عقلية القطيع الديني وفقاعات التشابه
8. التدين الدفاعي والخوف من الاتهام
9. الحسد المقنع بالغيرة الدينية
10. التعلق بالهوية الدينية لا بحقيقة العبادة
11. ضعف الرحمة وتحول المخالف إلى كائن مجرد
12. الشماتة الدينية والفرح بسقوط الناس
13. فقه الستر حين صارت العثرات محتوى
14. حين يتحول التحذير إلى تشهير
15. تحويل العلم الشرعي إلى أداة للهيمنة
16. اختزال الدين في المظهر والخطاب
17. العدوى النفسية للغضب الديني
18. التدين المجهول: حين تختبئ القسوة خلف اسم مستعار

الباب الثالث

1. استغلال الدين لحظوظ النفس والمكانة
2. استغلال الدين للتقرب إلى الجنس الآخر
3. استغلال الدين من أجل مصالح نفسية أو دنيوية
4. استغلال الدين من أجل المكانة الاجتماعية المصطنعة
5. الرخصة الأخلاقية باسم الدين
6. التنافر المعرفي الديني
7. الارتياب الديني وعقلية المؤامرة
8. عقدة المنقذ الديني
9. السادية الأخلاقية والتلذذ بالعقاب
10. الهروب الروحي من الجراح الشخصية
11. التدين الانتقامي حين تصبح الغيرة ثأرا نفسيا

الباب الرابع

آفات التمييع الديني في الجهة المقابلة للتعصب

1. المداهنة الدينية طلبا للقبول الاجتماعي
2. عقدة القبول الاجتماعي
3. الخجل من الانتماء الديني
4. الانهزام النفسي أمام الآخر
5. النسبية الأخلاقية المطلقة
6. تديين الهوى باسم المقاصد
7. عبادة اللطف الزائف
8. الخوف المرضي من الصدام
9. تمييع الحدود باسم الرحمة
10. تحويل الدين إلى تجربة شعورية فقط
11. الانتقائية الحداثية
12. كراهية الحزم لذاته
13. تذويب الهوية باسم الإنسانية

خلاصة هذا الباب

الباب الخامس

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع

14. فقه الدليل والقفز فوق الإنتاج الفقهي لعلماء الأمة
15. فقه النصوص حين يغيب عنه فقه النفوس
16. لي عنق النصوص والقص واللصق لتمرير فهم قاصر
17. التلاعب بالمصطلحات حين تصبح الألفاظ أقنعة للنفس
18. الهروب من واجبات الحاضر إلى القضايا الآمنة
19. عبادة الأشخاص والرموز الدينية
20. حين تصبح الجماعة حجابا عن الحق
21. فقدان فقه الأولويات
22. الاحتراق الروحي والدعوي

الباب السادس

جمهور التدين المغشوش ومسؤولية المتلقي

المتلقي المغشوش وصناعة موجات الغضب

أثر التدين المغشوش على الناس والدين

الباب السابع

علامات الخطر والطريق إلى التدين على الواقع الرقمي الراشد

علامات الخطر في الخطاب الديني الرقمي

أدب الرجوع والاعتذار

نحو تدين رقمي راشد

حين يزكي الدين النفس أو تستعمله النفس

خاتمة

ملحق : نحو ميثاق أخلاقي للظهور الرقمي

ملحق: معجم الآفات النفسية

ملحق: قائمة المراجع

تنويه

تماشيا مع قيم الشفافية والأمانة العلمية التي يقوم عليها هذا العمل، يود المؤلف التنويه بأنه تمت الاستعانة ببعض الأدوات الرقمية المساعدة، ومنها أدوات الذكاء الاصطناعي، بصورة محدودة وفي نطاق فني ولغوي محدود، وذلك في بعض مراحل التحرير اللغوي، ومراجعة الصياغة، وضبط النحو والصرف، وترجمة بعض المصطلحات، إضافة إلى الاستعانة بها في توليد الغلاف.

ويؤكد المؤلف أن الأفكار الرئيسة، والبناء العام، والاختيارات المنهجية، والمعالجة الفكرية والأخلاقية، والمراجعة النهائية للمضمون، هي مسؤوليته الكاملة، وأن استخدام هذه الأدوات كان استخداما مساعدا لا بديلا عن التأليف أو النظر أو المراجعة البشرية.

كما يتحمل المؤلف كامل المسؤولية عما ورد في هذا العمل من صواب أو خطأ، ويرحب بكل ملاحظة علمية أو لغوية أو منهجية تسهم في تصويب العمل وتحسينه قبل نشره النهائي.

مقدمة

لا يمكن فهم ظاهرة التدين المغشوش الزائف على السوشيال ميديا من خلال ظاهرها المباشر فقط؛ لأن كثيرا من صورها لا تظهر للناس في هيئة انحراف صريح، ولا تقدم نفسها بوصفها كبرا، أو شهوة للغلبة، أو رغبة في الشهرة، أو ميلا إلى التحكم في الناس، ولا تقدم نفسها كذلك بوصفها خوفا من الخلق، أو طلبا للقبول، أو خجلا من الحق، أو مداهنة للذوق السائد.

بل تتجمل غالبا بألفاظ شريفة من جهتين متقابلتين: فطرف يرفع شعارات نصرة الدين، والغيرة على الحق، وحماية الثوابت، والذب عن العقيدة، والتحذير من الفتن، ومواجهة التميع، وكشف أهل الباطل. وطرف آخر يرفع شعارات الرحمة، والحكمة، والانفتاح، ومراعاة الواقع، وتجديد الخطاب، وحسن عرض الدين، وعدم تنفير الناس.

وهذه العناوين في أصلها معان عظيمة لا يجوز تحقيرها ولا السخرية منها؛ فالدين يحتاج إلى من ينصره، والحق يحتاج إلى من يبينه، والباطل يحتاج إلى من يكشفه، والانحراف يحتاج إلى من يرده. كما أن الخطاب الديني يحتاج إلى رحمة، وحكمة، وفقه للواقع، وحسن عرض، وبعد عن الغلظة والتنفير.

لكن الخطر يبدأ حين تتحول هذه المعاني من عبادات قلبية وأخلاق علمية إلى أقنعة نفسية تخفي اضطرابا في الداخل، أو تعوض نقصا في الذات، أو تمنح صاحبها شعورا زائفا بالتفوق، أو تسوغ له العدوان على المخالفين باسم الغيرة على الله، أو تسوغ له إخفاء الحق وتمييع النصوص باسم الرحمة والقبول الاجتماعي.

فليس كل من أكثر من الآيات والأحاديث كان قلبه حيا بها، وليس كل من رفع شعار السنة كان متخلقا بأخلاقها، وليس كل من اشتد في الخصومة كان غيورا لله، وليس كل من تصدر للردود كان أهلا للبيان، وليس كل من صرخ باسم الحق كان متجردا له.

وفي المقابل، ليس كل من أكثر من الحديث عن الرحمة كان رحيما بالحق، ولا كل من تكلم عن المقاصد كان فقيها بها، ولا كل من دعا إلى الانفتاح كان متحررا من ضغط القبول، ولا كل من هرب من الحزم كان حكيما، ولا كل من خفف الخطاب كان أمينا على المضمون.

فقد يصبح الدين في يد بعض الناس مادة لإصلاح النفس، وقد يصبح في يد آخرين مادة لتضخيمها. وقد يكون القرآن عند إنسان نورا يكشف له عيوبه، وقد يجعله آخر مرآة لا يرى فيها إلا عيوب الناس، وقد يجعله ثالث مادة ينتقي منها ما يوافق صورة يريدها أمام الجمهور.

وهنا ينبغي أن يكون الكلام دقيقا؛ فالتحليل النفسي لهذه الظاهرة لا يعني اتهام الأشخاص في نياتهم، ولا الادعاء بمعرفة ما في صدورهم، ولا تحويل النقد الديني إلى تشخيص مرضي. فالقلوب إلى الله، والنيات لا يعلمها إلا هو. وإنما المقصود تحليل أنماط سلوكية ونفسية متكررة تظهر في الخطاب الديني الرقمي:

في لغة بعض المتدينين على المنصات، وفي طريقة تعاملهم مع المخالف، وفي أسلوبهم في النصيحة، وفي تعاملهم مع النصوص، وفي مقدار حضور الرحمة

والعدل والورع والصدق في خطابهم، وفي مدى قدرتهم على الجمع بين الثبات بلا قسوة، واللين بلا مداهنة، والغيرة بلا ظلم، والرحمة بلا تمييع.

فقد يكون الإنسان صادقا في أصل محبته للدين، لكنه لم يطهر أدواته النفسية التي يتعامل بها مع الدين. وقد يحمل علما نافعا، لكن نفسه لم تترب بالقدر الذي يجعل العلم رحمة لا سوطا، وبصيرة لا غرورا، وإنصافا لا خصومة.

وقد ينصر حقا في موضع، ثم يظلم خلقا في موضع آخر؛ لأن الحق لا يزكي صاحبه تلقائيا ما لم يتواضع له، ويخضع لمنهجه، ويؤدبه في قلبه ولسانه. وقد يتحدث عن الرحمة والإنسانية وحسن الخطاب، ثم يفرغ الحق من قوته، أو يخفي النص حين يكون مكلفا، أو يلين في المضمون لا في الأسلوب؛ لأن القبول الاجتماعي صار أثقل في قلبه من أمانة البيان.

ولم لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد حذرنا عن هذا الصخب الذي نراه فقال في الحديث الذي رواه أبو هريرة ؤضي الله عنه: **"مَنْ تعلَّمَ العلْمَ ليُباهِيَ بِهِ العلماءَ ، أوْ يُمارِيَ بِهِ السفهاءَ ، أوْ يصرِفَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه ، أدخَلَهُ اللهُ جهنَّمَ"** أخرجه أبو داود وأحمد وبن ماجه. وفي رِوايةِ أبي داودَ وابنِ ماجَه: **"لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ"**

ومن هنا فإن هذا السفر لا يعالج التعصب وحده، ولا يهاجم الحزم المشروع، ولا يدعو إلى تدين مائع لا يعرف معروفا ولا منكرا. كما أنه لا يهاجم الرحمة، ولا الحكمة، ولا مراعاة الواقع، ولا تجديد الخطاب إذا انضبطت بالعلم والصدق. إنما يحاول أن يكشف كيف تستعمل النفس الدين أحيانا في اتجاهين متقابلين:

- اتجاه الغلو الذي يجعل الدين أداة للسيطرة والقسوة والشماتة،
- التمييع الذي يجعل الدين أداة للقبول والذوبان والسلامة الاجتماعية.

وكلاهما، على اختلاف صورته، خروج عن حقيقة العبودية؛ لأن المتدين الصادق لا يستعمل الدين ليعلو على الخلق، ولا يفرغه من معناه ليرضى عنه الخلق، بل يتعبد لله بالحق والرحمة معا.

ليست أمراض القلوب عند المتدينين على صورة واحدة؛ فمنها ما ينشأ من الغلو والتعصب، ومنها ما ينشأ من التمييع والتساهل، ومنها أمراض مشتركة قد تسكن قلب المتشدد والمتساهل معا، وإن اختلفت مظاهرها وألفاظها.
فقد ينحرف الإنسان عن الاعتدال من جهة الإفراط، فيضيق ما وسعه الله، ويجعل اجتهاده دينا، ويرى المخالف عدوا. وقد ينحرف من جهة التفريط، فيميع الحدود، ويهون الواجبات، ويحول الرحمة إلى تبرير، والتيسير إلى إلغاء للتكليف. وقد يجتمع الطرفان، على شدة التباعد بينهما، في أمراض واحدة مثل العجب والرياء وحب الظهور والانتصار للنفس.

ومن هنا يمكن تقسيم هذه الأمراض إلى ثلاثة أقسام:

- **أولا: أمراض ناشئة عن التعصب والغلو**
- **ثانيا: أمراض ناشئة عن التمييع والتفريط**
- **ثالثا: أمراض مشتركة بين المتعصب والمميع**

والاعتدال هنا ليس معناه أن يقف الإنسان في منتصف المسافة بين الغلو والتميع، ولا أن يأخذ نصف الحق من هذا ونصفه من ذاك، وإنما الاعتدال أن يقف حيث يطلب منه الحق أن يقف.

فقد يكون الحزم واجبا في موضع، والعفو واجبا في موضع آخر. وقد تكون المواجهة حكمة في حال، والصمت حكمة في حال أخرى. وليس الميزان راحة النفس، ولا رضا الجمهور، ولا موافقة الجماعة، وإنما العلم والعدل والإخلاص والنظر في المآلات.

والقلب السليم لا يعرف بالشدّة الدائمة ولا باللين الدائم، بل بقدرته على وضع كل خلق في موضعه: حزم بلا قسوة، ورحمة بلا تمييع، وثبات بلا تعصب، ومرونة بلا ذوبان، وإنكار بلا تشف، وتسامح بلا تنازل عن الحق.

ولذلك ينبغي لكل إنسان ألا يسأل فقط: إلى أي الفريقين أنتمي؟ بل يسأل ما هو أدق وأخطر:

- متى أتعصب لأن رأيي هدد؟
- ومتى أتميع لأن مصلحتي خافت؟
- ومتى أتكلم باسم الدين بينما أكون في الحقيقة مدافعا عن نفسي؟

وقد يكون الإنسان متعصبا في قضية، متميعًا في أخرى، شديدا على خصومه، متساهلا مع أحبابه، صلبا حين لا يدفع ثمنا، مرنا حين تمس المسألة مصالحه.

ولهذا لا تكون النجاة بالانتساب إلى أحد الطرفين، وإنما بالمراجعة الدائمة للقلب، والعدل مع النفس والناس، والرجوع إلى الحق متى ظهر، ولو ظهر على لسان من نخالفه.

وليس معنى ذلك أن كاتب هذه الورقات يقدم شهادة تزكية لنفسه، أو يزعم أنه نجا من هذه الآفات، أو يتحدث من مقام العلو على غيره؛ فالنفس واحدة، ومداخل الهوى كثيرة، والعبد أحوج ما يكون إلى من يذكره بعيبه قبل أن يذكر عيوب الناس.

وإنما هي تذكرة قبل أن تكون حكما، ودعوة إلى النظر في الداخل قبل الانشغال بالخارج، وإلى أن نستعمل القرآن والسنة مرآة ننظر بها إلى قلوبنا أولا، لا منظارا نفتش به عن عيوب الآخرين فقط. فالمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى؛ يصوب زلته، ويكمل نقصه، ويدله على الخير، وينهاه عن الشر، ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم.

ورحم الله من دلني على خير، أو نهاني عن شر، أو صوب زللا، أو أكمل نقصا، أو أخذ بيدي إلى الصراط المستقيم؛ فإن النصيحة الصادقة من أعظم أبواب الرحمة، ومن أعان أخاه على رؤية عيبه فقد أهدى إليه ما هو أنفع من كثير من الثناء.

علاءالدين محمد

تم الفراغ منه
في 6 ديسمبر 2020
بين القاهرة ودمنهور

ما لا يقصده هذا الكتاب

قد يظن بعض القراء، من عنوان هذا الكتاب أو بعض فصوله، أنه كتاب ضد التدين، أو ضد الكلام في الدين، أو ضد الغيرة على الشريعة، أو ضد دعوة الناس إلى الخير. وهذا كله غير مراد، بل هو عكس ما يقوم عليه هذا العمل.

فهذا الكتاب لا يخاصم التدين، وإنما يخاصم تشويهه. ولا ينتقص من شأن المتدينين، وإنما يدعوهم، ويدعو كاتبه قبلهم، إلى تدين أصدق وأرحم وأعدل وأزكى. ولا يريد أن يضعف حضور الدين في الحياة العامة أو في الفضاء الرقمي، بل يريد لهذا الحضور أن يكون أهدى سبيلا، وأطهر قصدا، وأحسن أثرا.

إنني لست ضد أن يتحدث المسلم عن دينه، بل أدعو كل مسلم ومسلمة إلى تعلم دينهم، والاعتزاز به، والفخر بالانتساب إليه، والحديث عنه بعزة المؤمن، وحكمة الداعي، ورحمة الناصح، وأدب طالب الحق. وأرى أن الأمة لا تنهض إلا إذا عرفت دينها معرفة صحيحة، وعاشت معانيه في قلوبها وسلوكها، وقدمت للناس صورته الصادقة: دينا يجمع بين العبودية والرحمة، وبين الثبات والعدل، وبين النصيحة والستر، وبين الحزم وحسن الخلق.

وليس هذا الكتاب دعوة إلى الصمت عن الحق، ولا إلى ترك البيان، ولا إلى ترك إنكار المنكر، ولا إلى مساواة الحق بالباطل، ولا إلى تذويب الفروق بين الهدى والضلال. فالحق يجب أن يبين، والباطل يجب أن يكشف، والنصيحة واجبة، والدعوة إلى الله شرف عظيم. لكن هذا كله لا يسقط آداب العلم، ولا أخلاق النصيحة، ولا واجب العدل، ولا حرمة الأعراض، ولا خطر الكبر والعجب وحب الظهور والشماتة.

كما أن هذا الكتاب لا يدعو إلى تدين مائع يخجل من ثوابته، أو يفرغ النصوص من معناها، أو يطلب رضا الناس على حساب رضا الله، أو يستبدل الحكمة بالمداهنة، والرحمة بالتنازل عن الحق، وحسن الخطاب بإخفاء البيان. فاللين إذا قطع صلته بالصدق صار مداهنة، كما أن الشدة إذا فارقت الرحمة صارت قسوة.

إنما يقصد هذا الكتاب أن يضع القارئ أمام أسألة صادقة :

- هل يزيدنا التدين تواضعا أم تعاليا؟
- رحمة أم قسوة؟
- صدقا أم استعراضا؟
- علما أم خصومة؟
- نصحا أم تشهيرا؟
- ثباتا على الحق أم عبودية للجمهور؟
- وهل نستعمل الدين لتزكية نفوسنا، أم تستعمل نفوسنا الدين لتبرير عيوبها؟

هذا الكتاب إذن ليس خصومة مع الدين، بل محاولة للعودة إلى روحه. وليس هجوما على الدعوة، بل دعوة إلى أن تكون الدعوة أصفى وأرحم وأعدل. وليس انتقاصا من الغيرة على الدين، بل تذكير بأن الغيرة الصادقة لا تنفصل عن العلم والرحمة والإنصاف. وليس دفاعا عن التمييع، بل تحذير من طرفين كلاهما يظلم الدين: غلو يجعل التدين سوطا على الخلق، وتمييع يجعله تابعا لأهواء الخلق.

ومن هنا فإنني أدعو نفسي والقارئ إلى تعلم الدين، وتزكية النفس، وحفظ اللسان، وتعظيم النصوص، واحترام العلماء، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والاعتزاز بالإسلام دون كبر، والرحمة بالخلق دون مداهنة، والثبات على الحق دون ظلم.

فالدين أجل من أن يستعمل في حظوظات النفس، وأعظم من أن يختزل في صخب المنصات، وأطهر من أن يكون ستارا للكبر أو الخوف أو طلب القبول. وما أريده من هذه الصفحات أن نراجع أنفسنا قبل أن نحاكم غيرنا، وأن نجعل القرآن والسنة مرآة لقلوبنا قبل أن نجعلهما سهاما في وجوه الناس.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

باب فتحه الوحي على مصراعيه

لم يدخل أحد قبل المسلمين باب أمراض القلوب وخداع النفس بهذه السعة، وهذا العمق، وهذا الارتباط الدقيق بين العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك. نعم، عرفت بعض الحضارات القديمة حديثا عن الفضائل والرذائل، وتكلم بعض الفلاسفة عن تهذيب النفس وكبح الشهوات وضبط الانفعالات، كما عرفت بعض التقاليد الدينية صورا من الزهد والمجاهدة؛ غير أن تلك المعالجات بقيت في معظمها موزعة بين التأمل الفلسفي، أو الرياضة الأخلاقية، أو الانقطاع التعبدي. أما الإسلام فقد أقام بناء متكاملا يبدأ من حقيقة القلب، ويمتد إلى النية والخاطر والإرادة والعمل، ثم يتتبع ما يصيبها من رياء وعجب وكبر وحسد وحقد وغرور وهوى وتلبيس.

ولم ينظر الوحي إلى أمراض القلب باعتبارها نقائص أخلاقية عابرة فحسب، بل جعلها قضايا تتصل بالإيمان والهداية والمصير. وربط بين صلاح الباطن وصلاح الظاهر، وبين فساد القصد وفساد العمل، وبين تزكية النفس وفلاح الإنسان، حتى صار للقلوب في التصور الإسلامي حياة وموت، وصحة ومرض، ونور وظلمة، وقسوة ولين، وطمأنينة واضطراب.

كما كشف الإسلام أمرا بالغ الدقة، وهو أن النفس لا تكتفي بدفع صاحبها إلى الخطأ، بل قد تخدعه حتى يرى خطأه صوابا، وهواه دينا، وغضبه غيرة، وكبره عزة، وحسده نصيحة، وحبه للظهور دعوة إلى الله. ومن هنا لم يكن علم أمراض القلوب عند المسلمين حديثا عن الرذائل الظاهرة وحدها، بل كان بحثا في قدرة الإنسان على التستر من نفسه، وصناعة المعاذير، وتزيين دوافعه، واستعمال الحق لخدمة الهوى.

لهذا نشأ في الحضارة الإسلامية تراث واسع لا يكاد يوجد له نظير في اتساعه وتفصيله؛ بدأ بآيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نما في مواعظ الصحابة والتابعين، وتبلور في كتب الزهد والرقائق والمحاسبة، حتى صار موضوعا مستقلا له مصطلحاته ومسائله ومناهجه في التشخيص والعلاج. ولم يكن غرض هذا العلم أن يمنح الإنسان سلطة التفتيش في قلوب الآخرين، بل أن يضع في يده مرآة يرى فيها قلبه، ويحاكم بها نيته، ويكشف ما تخفيه نفسه عنه قبل أن يقف بين يدي من يعلم السر وأخفى.

لم ينظر الإسلام إلى الإنسان باعتباره جسدا يتحرك، ولسانا يتكلم، وجوارح تؤدي الأعمال فحسب؛ بل نظر إليه باعتباره ظاهرا وباطنا، وعملا وقصدا، وصورة يراها الناس، وحقيقة يعلمها الله. وقد يكون العمل في ظاهره صالحا، بينما تختبئ في باطنه إرادة فاسدة، أو شهوة خفية، أو طلب للثناء، أو رغبة في العلو، أو انتصار للنفس تحت ستار الانتصار للحق.

ولهذا كان إصلاح القلب ركنا أصيلا في البناء الأخلاقي الإسلامي، لا نافلة تكميلية بعد إصلاح الظاهر. فالعمل قد يصح في صورته، ثم يفسد بنيته؛ وقد يلتزم الإنسان حكم الشرع، لكنه يلتزمه لهواه؛ وقد يقول كلمة حق يريد بها باطلا؛ وقد يأمر بالمعروف لا غيرة على حدود الله، بل طلبا للسيطرة على الناس؛ وقد يشتد في موضع يحتاج إلى رفق، ثم يقنع نفسه أن شدته حزم، وأن غضبه لله، بينما يكون أكثر غضبه لنفسه.

ومن هنا نشأ اهتمام المسلمين المبكر بما سموه: تزكية النفس، ومحاسبة النفس، وأعمال القلوب، وآفات الأعمال، ومداخل الشيطان، واتباع الهوى، والعجب، والرياء، والغرور، والتلبيس. ولم تكن هذه المصطلحات أسماء

لموضوعات متفرقة، بل كانت وجوها متعددة لسؤال واحد: كيف يعرف الإنسان حقيقة نفسه، وكيف يمنعها من أن تتدين بهواها، أو تتخذ الطاعة وسيلة لتعظيم ذاتها؟

الجذور القرآنية: القلب يمرض والنفس تخدع صاحبها

بدأ الاهتمام بأمراض القلوب من القرآن نفسه؛ فالقرآن لم يكتف ببيان الحلال والحرام، بل كشف ما يجري خلف الأعمال من نيات، وأهواء، وتبريرات، وأمراض مستترة. قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ **سورة البقرة، الآية 10.**

فالمرض هنا ليس مرض العضلة التي تضخ الدم، وإنما مرض الإدراك والإرادة والقصد؛ مرض يجعل الإنسان يرى الحق ثم يلتوي عليه، ويعرف الصواب ثم يبحث لنفسه عن مخرج منه. وقد جعل القرآن تزكية النفس أساس الفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ **سورة الشمس، الآيتان 9-10.**

ولم يحذر القرآن من فساد النفس وحده، بل حذر من قدرتها على إخفاء فسادها عن صاحبها. فالإنسان قد يعرف عيبه في داخله، ثم يبني فوقه طبقات من الاعتذار والتبرير، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ **سورة القيامة، الآيتان 14-15.**

وقد يبلغ خداع النفس درجة لا يعود الإنسان معها يرى قبح عمله؛ لأن السوء قد زين له حتى رآه حسنا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ **سورة فاطر، الآية 8.**

بل قد ينفق الإنسان عمره في عمل يظنه صالحا، ويحسب نفسه من المحسنين، بينما يكون سعيه قد ضل عن الطريق: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ **سورة الكهف، الآيتان 103-104.**

وهذه الآيات ترسم أصولا دقيقة لما يسمى اليوم بخداع الذات: فالإنسان قد يلقي المعاذير، ويزين لنفسه العمل، ويعيد تسمية الهوى، ويخلط بين حسن قصده وحسن فعله، ثم يطمئن إلى صورته عن نفسه حتى يصعب عليه الاعتراف بالخطأ.

وجاءت السنة النبوية لتقرر أن مركز الإصلاح والفساد هو القلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" متفق عليه

كما جعلت السنة النية ميزان العمل، فقال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" متفق عليه

وحذرت السنة من الرياء بوصفه شركا أصغر؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ". قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: "الرِّيَاءُ" أخرجه أحمد. لأنه يحول العبادة من التوجه إلى الله إلى التماس

المنزلة في قلوب الخلق. وبذلك لم يعد السؤال الإسلامي: ماذا فعلت فقط؟ بل صار: لماذا فعلت؟ ولمن فعلت؟ وماذا كان نصيب نفسك من هذا العمل؟

عصر الصحابة والتابعين: المحاسبة قبل التصنيف

لم يعرف الجيل الأول علما مستقلا يسمى «علم أمراض القلوب»؛ لأن هذه المعاني كانت ممتزجة بالتفسير والحديث والعبادة والتربية اليومية. فكان الصحابة والتابعون يخافون على أعمالهم من الرياء، وعلى قلوبهم من النفاق، وعلى نياتهم من التقلب، وعلى حسناتهم من العجب، أكثر مما يخاف بعض الناس اليوم على صورهم أمام الآخرين.

ثم ظهر جيل من الزهاد والعباد جعل مراقبة القلب موضوعا مركزيا في مجالسه ومواعظه، مثل الحسن البصري، وسفيان الثوري، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض وغيرهم. ولم يكن زهدهم مجرد تقليل للطعام والمال، بل كان في جوهره تحريرا للقلب من سلطان الدنيا ومن التعلق بنظر الناس.

وكان هؤلاء يدركون أن النفس قد تترك شهوة ظاهرة لتنال شهوة أخفى منها؛ فقد يترك الإنسان المال لينال الشهرة بالزهد، أو يترك الجاه الدنيوي لينال جاها دينيا، أو يعتزل الناس لا طلبا للسلامة، بل احتقارا لهم وإعجابا بنفسه. وهنا انتقل النظر من ظاهر السلوك إلى الدافع الباطن الذي يحركه.

وكانت خطورة أمراض القلب عندهم نابعة من خفائها؛ فالسرقة يعرف صاحبها أنه يسرق، والكذب يعرف صاحبه أنه يكذب، أما الرياء فقد يدخل في الصلاة،

والعجب قد يولد من العبادة، والحسد قد يتنكر في صورة النصيحة، وحب الرئاسة قد يختبئ خلف الدعوة إلى الحق.

ومن بين أعلام هذا الجيل، كان الحسن البصري، المتوفى سنة 110هـ، أقرب من يصح وصفه بأنه أول من جعل خواطر القلوب وفساد الأعمال ومكايد النفس موضوعا ظاهرا متكررا في التعليم والموعظة.

وقد وصفه أبو طالب المكي بأنه أول من "أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه"، وذكر أن تلامذة المدرسة البصرية، مثل مالك بن دينار وفرقد السنجي وعبد الواحد بن زيد، أخذوا عنه "علوم القلوب". كما وصف أكثر كلامه بأنه كان في خواطر القلوب، وفساد الأعمال، ووساوس النفوس، والصفات الخفية من شهوات النفس.

ومع ذلك، لم يصل إلينا عن الحسن البصري كتاب مستقل محقق ألفه بنفسه في أمراض القلوب، وإنما حفظت أقواله ومواعظه في كتب الحديث والزهد والطبقات.

ثم انتقلت هذه المعاني من المجالس والمواعظ والآثار المتفرقة إلى مرحلة التدوين. ومن أقدم الكتب التي وصلت إلينا في المجال القريب من أمراض القلوب كتاب "الزهد والرقائق" لعبد الله بن المبارك، المتوفى سنة 181هـ. وقد جمع فيه الأحاديث والآثار المتعلقة بالزهد، والورع، والخوف، والإخلاص، ومحاسبة النفس، وإن لم يكن كتابا تحليليا مستقلا في أمراض القلوب بالمعنى المنهجي الذي ظهر في العصور اللاحقة.

عصر التدوين: من أخبار الزهاد إلى تشريح النفس

مع اتساع حركة التأليف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، بدأت مادة تزكية النفس تنتقل من المواعظ الشفوية والآثار المتفرقة إلى الكتب المصنفة. وظهرت كتب الزهد والرقائق، ثم أخذ بعض المؤلفين يفردون لكل آفة كتابا مستقلا.

ومن أبرز من يمثل هذا الاتجاه ابن أبي الدنيا المتوفى سنة 281هـ، الذي صنف عددا كبيرا من الكتب والرسائل في محاسبة النفس، والإخلاص والنية، والورع، والصمت وآداب اللسان، وذم الدنيا، والوجل، واليقين، والهم والحزن، وذم الغيبة والنميمة. وتكشف عناوين كتبه عن تحول مهم: لم تعد الأخلاق أبوابا عامة، بل أصبحت كل آفة موضوعا يحتاج إلى جمع نصوصه وآثاره، ودراسة أسبابه، وبيان علاجه.

وقد خدمت هذه المؤلفات غرضين؛ أولهما حفظ ما روي عن الصحابة والتابعين والعباد في إصلاح القلوب، وثانيهما تقديم مادة عملية للمحاسبة. فالقارئ لا يقرأ عن "النفس" بوصفها مفهوما مجردا، بل يقرأ عن لسانه، ونيته، وخوفه، وطمعه، وحسده، وحبه للثناء، وتعلقه بالدنيا.

الحارث المحاسبي: تأسيس منهج محاسبة النفس

يعد الحارث بن أسد المحاسبي، المتوفى سنة 243هـ، من أبرز الرواد في بناء دراسة منهجية للنفس وأحوالها. ولم يكن لقبه «المحاسبي» مجرد اسم، بل كان

دالا على المنهج الذي اشتهر به: محاسبة النفس، ومراجعة الدوافع، وتتبع الخواطر قبل أن تتحول إلى إرادات وأعمال.

ومن أشهر مؤلفاته :**الرعاية لحقوق الله**، و**آداب النفوس**، و**التوهم**، وغيرها من الكتب التي بحثت في الإخلاص، والرياء، والعجب، والتوبة، والخوف، ومراقبة الله، ومكايد النفس.

وتميز المحاسبي بأنه لم يقف عند التحذير من الرذيلة، بل حاول أن يشرح كيف تنشأ داخل النفس. فالرياء مثلا لا يبدأ دائما بقرار صريح من الإنسان أن يعمل للناس، بل قد يبدأ بالتفاتة صغيرة إلى إعجابهم، ثم سرور بثنائهم، ثم حرص على استمرار الصورة، ثم خوف من سقوطها، حتى يصبح الإنسان أسيرا لشخصية دينية صنعها أمام الآخرين.

كما انتبه إلى أن النفس قد تخدع صاحبها باستعمال الخير نفسه؛ فتدفعه إلى عمل صالح لا لذات العمل، بل لما يناله منه من رفعة، أو سيطرة، أو شعور بالتفوق. وقد تمنعه من الاعتراف بمرضه؛ لأن الاعتراف يهدم الصورة التي بناها عن نفسه.

ومع المحاسبي أصبح فحص النية علما عمليا له أسئلته: ما الذي حركني؟ ما الذي كنت سأفعله لو لم يرني أحد؟ هل يسعدني ظهور الحق ولو ظهر على يد غيري؟ هل أغضب لانتهاك حدود الله، أم لأن الناس خالفوا رأيي؟ هل أفرح بنجاح أخي، أم أشعر أن نجاحه ينتقص من منزلتي؟

من قوت القلوب إلى الرسالة القشيرية

في القرن الرابع الهجري، اتسع التأليف في أعمال القلوب ومقامات السلوك. ومن أبرز الكتب في ذلك **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد** لأبي طالب المكي، المتوفى سنة 386هـ. وقد جمع فيه بين العبادة والذكر والمحاسبة والمقامات القلبية، وربط أعمال الجوارح بحضور القلب وصدق القصد.

ثم جاءت **الرسالة القشيرية** لأبي القاسم القشيري، المتوفى سنة 465هـ، فعملت على ضبط كثير من مصطلحات السلوك والتزكية، مثل التوبة، والمراقبة، والإخلاص، والصدق، والخوف، والرجاء، والتوكل. كما ربطت بين هذه المعاني وسير العباد وأقوالهم، حتى صارت مرجعا مهما في تاريخ التربية الروحية الإسلامية.

وفي هذه المرحلة، صار الحديث عن القلب أكثر تنظيما. فلم يعد الكلام عن آفات منفصلة فقط، بل عن طريق كامل يبدأ باليقظة، ثم التوبة، ثم المحاسبة، ثم المجاهدة، حتى تتحول الأخلاق الصالحة من تكلف عابر إلى هيئة مستقرة في النفس.

غير أن تنظيم المقامات نفسه كان يحمل خطرا جديدا: أن يتعلق الإنسان بالمقام واسمه، وأن يعجب بما يراه من حاله، وأن يدعي لنفسه منزلة لم يبلغها. ولذلك ظل العلماء يحذرون من أن يتحول طريق تزكية النفس إلى طريق جديد لتعظيم النفس.

أبو حامد الغزالي: الموسوعة الكبرى لأمراض القلوب

بلغ التأليف في أمراض القلوب وخداع النفس مرحلة موسوعية مع أبي حامد الغزالي، المتوفى سنة 505هـ، ولا سيما في كتابه **إحياء علوم الدين** .فقد قسم الكتاب إلى أربعة أرباع: العبادات، والعادات، والمهلكات، والمنجيات، وجعل في كل ربع عشرة كتب.

أما **ربع المهلكات** فكان بمنزلة موسوعة في تشريح النفس؛ إذ تناول عجائب القلب، ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق، وكسر الشهوتين، وآفات اللسان، والغضب والحقد والحسد، وحب الدنيا، وحب المال والبخل، وحب الجاه والرياء، والكبر والعجب، ثم ختم بذم الغرور. ويكشف هذا الترتيب عن فهم عميق لترابط الأمراض؛ فالشهوة قد تقود إلى الحرص، والحرص إلى البخل، وحب الجاه إلى الرياء، والنجاح إلى العجب، والعجب إلى الكبر، ثم يأتي الغرور ليغطي هذه الأمراض كلها ويمنح صاحبها شعورا زائفا بالسلامة.

وكان حديث الغزالي عن **الغرور** من أكثر ما كتب في التراث الإسلامي اتصالا بخداع النفس. فالمغرور ليس بالضرورة إنسانا جاهلا بالدين أو بعيدا عن العبادة، بل قد يكون عالما، أو عابدا، أو زاهدا، أو واعظا، أو صاحب مال ينفقه في وجوه الخير. قد يغتر العالم بعلمه، فيظن أن معرفته بالحق تغنيه عن العمل به. وقد يغتر العابد بكثرة عبادته، فينسى ما دخلها من رياء وعجب. وقد يغتر الزاهد بتركه الدنيا، بينما يمتلئ قلبه بحب المكانة بين الزهاد. وقد يغتر الواعظ بتأثر الناس بكلامه، فيحسب دموعهم دليلا على صلاح قلبه. وقد يغتر المنفق بعطائه، ثم يؤذي الناس بالمن والأذى.

وهكذا نقل الغزالي سؤال التزكية من: "هل تفعل الخير؟" إلى سؤال أشد دقة: "ماذا يفعل الخير في نفسك؟". فقد تزيدك الطاعة تواضعا، وقد تزيدك إعجابا؛ وقد يجعلك العلم أكثر خشية، وقد يجعلك أكثر استعلاء؛ وقد تجعلك الدعوة أرحم بالناس، وقد تجعلك مدمنا على التصدر والانتصار.

وهذه من أدق حقائق النفس: أن الفضيلة نفسها قد تصبح مادة لمرض جديد إذا لم يصحبها افتقار إلى الله ومراقبة صادقة للقصد.

ابن الجوزي: حين يدخل الشيطان من باب الطاعة

جاء أبو الفرج ابن الجوزي، المتوفى سنة 597هـ، فأضاف إلى دراسة أمراض القلوب بعدا شديد الأهمية، وهو دراسة **التلبيس** .وفي كتابه **تلبيس إبليس** لم يقتصر على الحديث عن إغواء الشيطان للناس بالمعاصي الظاهرة، بل شرح كيف يدخل عليهم من أبواب الدين والعلم والعبادة والزهد.

وتكمن خطورة التلبيس في أنه لا يقدم الباطل إلى الإنسان بوصفه باطلا، بل يغطيه بشيء من الحق. فالشيطان قد لا يقول للعالم: اترك العلم، بل يقول له: اطلب العلم لتتفوق على أقرانك. ولا يقول للعابد: اترك العبادة، بل يقول له: أظهرها ليقتدي الناس بك. ولا يقول للواعظ: اكذب، بل يقول له: بالغ في الحكايات حتى تتأثر القلوب. ولا يقول للمتدين: اظلم الناس، بل يقول له: هذه شدة في الحق.

كما صنف ابن الجوزي كتاب **ذم الهوى**، فبين كيف يستطيع الهوى أن يعمي البصيرة ويقود العقل إلى البحث عن الحجج التي تبرر الشهوة بدلا من أن يحكمها.

وفي **صيد الخاطر** عرض كثيرا من الملاحظات الدقيقة عن النفس البشرية، وتقلب النيات، وحب الظهور، وضعف الإرادة، وتسويف التوبة. وكان يكتب عن نفسه كما يكتب عن غيره، ويراقب حركات قلبه، فيجعل من ذاته موضعا للفحص لا منصة للحكم على الناس.

ثم انتقل كثير من هذه المادة إلى كتاب **منهاج القاصدين**، وجاء **مختصر منهاج القاصدين** ليقدمها بصورة أقرب إلى التهذيب والتعليم، متناولا عجائب القلب، ورياضة النفس، وآفات العلم، والرياء الخفي، والكبر، والعجب، وغيرها من أبواب التزكية.

ابن تيمية: مرض العلم ومرض الإرادة

قدم شيخ الإسلام ابن تيمية، المتوفى سنة 728هـ، معالجة مركزة لأمراض القلب في رسالته المشهورة **أمراض القلوب وشفاؤها**، وهي من material كتاب السلوك في مجموع فتاواه.

وقد قرب معنى مرض القلب بقياسه على مرض البدن؛ فكما أن البدن المريض قد يشتهي ما يضره وينفر مما ينفعه، فإن القلب المريض قد يحب الباطل، أو يكره الحق، أو يلتذ بما يفسده، أو يعجز عن إرادة ما يصلحه.

ومن أهم ما يظهر في معالجة ابن تيمية التمييز بين فساد التصور وفساد الإرادة؛ فقد يمرض القلب بالشبهة، فلا يرى الحق حقا، وقد يمرض بالشهوة، فيرى الحق ولكنه لا يريده. وقد يجتمع المرضان، فيفسد العلم والقصد معا. ولهذا لم يجعل

العلاج مجرد معرفة نظرية، بل ربطه بالإيمان والقرآن والعبودية والصدق مع الله.

وأسهم هذا المنهج في بيان أن أمراض القلب ليست كلها نقصا في المعلومات؛ فالإنسان قد يعرف الحكم، ويحفظ الدليل، ويشرح المسألة، ثم يخالف ما يعرف لأن هواه أقوى من علمه. بل قد يستخدم علمه نفسه لصناعة حجة تبرر مخالفته.

وهنا يظهر أحد أخطر أشكال خداع النفس: أن يتحول العقل من قاض يحاكم الهوى إلى محام يدافع عنه، وأن تتحول المعرفة من نور يكشف المرض إلى أداة تخفيه.

ابن القيم: التشريح الدقيق لمسالك النفس

بلغ التحليل النفسي والأخلاقي لأمراض القلوب درجة كبيرة من التفصيل في مؤلفات ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة 751هـ. فقد توزعت معالجته بين عدد من كتبه، من أبرزها **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان**، و**مدارج السالكين**، و**الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** المعروف باسم **الداء والدواء**.

وفي **إغاثة اللهفان** تحدث عن القلب الصحيح، والقلب الميت، والقلب المريض، وعن مصايد الشيطان ومداخله. والقلب المريض عنده يحمل مادتين متعارضتين: مادة حياة وإيمان، ومادة شهوة أو شبهة؛ فتارة تغلب هذه، وتارة تغلب تلك. ولذلك قد ترى الإنسان قريبا من الخير في وقت، ثم يتغير إذا هدد هواه أو جاهه أو مصلحته.

أما **الداء والدواء** فيكشف كيف تبدأ المعصية خاطرة، ثم تتحول إلى فكرة، ثم إلى إرادة، ثم إلى فعل، ثم إلى عادة يصعب اقتلاعها. كما يبين آثار الذنب في القلب، وكيف يورث الذنب ذنبا آخر، وكيف يضعف استقباح الإنسان للمعصية كلما ألفها، حتى يصل إلى مرحلة يدافع عنها أو يجاهر بها.

وفي **مدارج السالكين** شرح مقامات التوبة والمحاسبة والإنابة والإخلاص والتوكل والرضا، وناقش دقائق الأحوال القلبية، محذرا من الوقوف مع النفس أو الاغترار بالحال. فالإنسان قد يعجب بتوبته كما كان يعجب بمعصيته، وقد يلتفت إلى إخلاصه فيفسد إخلاصه، وقد يرى نفسه متواضعا فيتكبر بتواضعه.

ومن أعمق ما يمكن استخلاصه من مؤلفات ابن القيم أن النفس لا تحب أن ترى نفسها مذنبة أو ناقصة؛ ولذلك تعيد صياغة قصتها باستمرار. فهي تسمي العجز توكلا، والجبن حكمة، والبخل تدبيرا، والغضب غيرة، والغلظة قوة، والحسد نقدا موضوعيا، والرياء دعوة وقدوة، وحب السيطرة حرصا على المصلحة العامة.

ولا تكمن سلامة الإنسان في أنه لا يخطئ؛ فهذا متعذر، وإنما تكمن في بقاء قدرته على رؤية خطئه وتسميته باسمه، والرجوع عنه دون أن يحول كرامته أو مكانته أو تاريخه بينه وبين التوبة.

ابن رجب ومنهج إصلاح القلب من خلال الحديث

واصل ابن رجب الحنبلي، المتوفى سنة 795هـ، هذا المسار في شروحه الحديثية ورسائله؛ فكان يستخرج من الحديث الواحد أبوابا واسعة في النية والإخلاص والزهد وحب المال والجاه وخطر اللسان.

وفي **جامع العلوم والحكم** لم يكتف بشرح الأحاديث من جهة الأحكام، بل توسع في بيان أعمال القلوب، وآفات النيات، وعلاقة الظاهر بالباطن. كما أفرد بعض المعاني برسائل وشروح، مثل شرحه لحديث: "مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ". **أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح**

ويكشف هذا الحديث عن مرضين شديدي الصلة بالمتدينين وأهل العلم والدعوة: حب المال، وحب الشرف. وقد يكون حب الشرف أشد خفاء؛ لأن صاحبه قد يستغني عن المال، لكنه لا يستغني عن التقديم والثناء والطاعة والاتباع.

وهنا لا يكون الزهد في المال وحده كافيا؛ فقد يترك الإنسان المال ويطلب أن تكون له الكلمة العليا، وأن تدور الجماعة حوله، وأن ينسب النجاح إليه، وأن يعد كل اختلاف معه تمردا على الدين أو خروجا على الجماعة.

أسماء متعددة لمرض واحد

حين نتأمل هذا التراث، نجد أن المسلمين استعملوا ألفاظا متعددة لوصف صور خداع النفس، منها:

- **الغرور** :أن يطمئن الإنسان إلى وهم عن نفسه، أو يعتمد على أمان كاذب، أو يظن أنه ناج بسبب علمه أو نسبه أو عبادته.
- **العجب** :أن يستعظم الإنسان عمله، ويراه صادرا عن قوته وفضله، ويغفل عن توفيق الله وستره.

- **الرياء** :أن يطلب بالعمل منزلة في قلوب الناس، سواء بدأ العمل لهم أو دخل طلب نظرهم عليه في أثنائه.
- **التلبيس** :أن يختلط الحق بالباطل حتى يفعل الإنسان الباطل وهو يظن أنه يخدم الحق.
- **اتباع الهوى** :أن يجعل الإنسان رغبته حاكمة على الدليل، ثم يبحث بعد ذلك عن مبررات دينية أو عقلية لما اختاره مسبقا.
- **التسويف** :أن يخدع الإنسان نفسه بوعد الإصلاح المؤجل، فيؤخر التوبة والمراجعة حتى يقسو القلب ويعتاد المرض.
- **تزكية النفس** :أن يمنح الإنسان نفسه شهادة بالصلاح والتقوى، ويغلق باب المراجعة والنقد، ناسيا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ **سورة النجم، الآية 32.**

وتلتقي هذه الألفاظ جميعا عند حقيقة واحدة: أن النفس لا تكتفي بأن تدفع الإنسان إلى الخطأ، بل تحاول بعد وقوعه أن تمنعه من الاعتراف بأنه أخطأ.

لماذا كان العلماء أشد تحذيرا للمتدينين؟

لم يكن علماء التزكية يظنون أن التدين يعصم صاحبه تلقائيا من أمراض القلوب، بل رأوا أن المتدين قد يواجه أنواعا أشد تعقيدا منها؛ لأن المرض يستطيع أن يلبس ثياب الطاعة.

فالعاصي الظاهر قد يعرف أنه عاص، أما صاحب المرض المتدثر بالدين فقد يرى نفسه مصلحا. والعاصي قد يستحي من معصيته، أما المغرور فقد يطالب

الناس بأن يشكروه على ما يفسد به. والعاصي قد يرجع إذا وعظ، أما المعجب بنفسه فيعد الموعظة طعنا في مقامه.

كما أن العلم والعبادة والدعوة تمنح الإنسان تأثيرا في الآخرين، وكل تأثير يحمل معه فتنة خفية: فتنة أن يحب الإنسان أن يسمع الناس قوله، وأن يقدم رأيه، وأن ينتصر أتباعه، وأن تظل له المكانة التي اعتادها.

ولهذا لم تكن مؤلفات أمراض القلوب موجهة إلى العصاة وحدهم، بل كان جانب كبير منها موجها إلى العلماء والعباد والزهاد والوعاظ وأصحاب الولايات. فالمرض لا يخرج من القلب لمجرد أن صاحبه لبس لباس الدين، وإنما قد يتعلم كيف يتكلم بلغته.

من المحاسبة إلى المراقبة المتبادلة

شهدت العصور المتأخرة استمرار الاهتمام بكتب التزكية، من خلال الشروح والمختصرات وإعادة ترتيب كتب الإحياء والسلوك، ثم ظهرت في العصر الحديث مؤلفات تحاول تقريب التراث إلى لغة الناس، أو ربطه بالتربية والدعوة وإصلاح المجتمع.

غير أن تحولا خطيرا أصاب طريقة تلقي هذا العلم؛ إذ تحول عند بعض الناس من مرآة ينظر فيها الإنسان إلى قلبه، إلى نافذة يراقب منها قلوب الآخرين. فصار يقرأ باب الرياء ليتهم به مخالفه، وباب الحسد ليفسر به نقد الناقد، وباب الكبر ليصف به من لم يخضع لرأيه.

وبذلك انقلب علم المحاسبة إلى أداة للمحاكمة، وتحولت التزكية من اشتغال بعيوب النفس إلى اشتغال بعيوب الناس. وهذا من تلبيس النفس أيضا؛ لأنها قد تشغل صاحبها بفساد الخلق حتى لا يتفرغ لرؤية فسادها.
لقد كان سؤال العلماء لأنفسهم: ما نصيب قلبي من هذا المرض؟ أما سؤال المتعالي فهو: من من الناس تنطبق عليه هذه الصفة؟

والفرق بين السؤالين هو الفرق بين من يحمل مرآة ومن يحمل منظارا؛ فالمرآة تعيده إلى نفسه، والمنظار يريه البعيد ويخفي عنه ما التصق بوجهه.

تراثنا كتب بمداد الخوف من النفس

يمثل تاريخ التأليف الإسلامي في أمراض القلوب رحلة طويلة في اكتشاف خبايا الإنسان. بدأت من القرآن الذي كشف مرض القلب وتزيين العمل وإلقاء المعاذير، ثم ظهرت في مواعظ الصحابة والتابعين والزهاد، وانتقلت إلى التدوين في كتب الزهد والرقائق، ثم نضجت مع المحاسبي وابن أبي الدنيا، واتسعت مع أبي طالب المكي والقشيري، وبلغت صورتها الموسوعية مع الغزالي، ثم جاءت دراسات التلبيس والهوى عند ابن الجوزي، والتحليل الإيماني عند ابن تيمية، والتشريح الدقيق لمسالك النفس عند ابن القيم وابن رجب.

ولم يكن هؤلاء العلماء يكتبون عن النفس باعتبارها عدوا خارجيا، بل باعتبارها أقرب الأشياء إلى الإنسان وأشدها قدرة على خداعه. فالإنسان يستطيع أن يحذر عدوه إذا رآه، لكنه قد يعجز عن الحذر من رغبة تتكلم بصوته، وهوى يحتج بعقله، وكبر يلبس ثياب كرامته، وحسد يتسمى نصيحة، ورياء يتزين باسم الدعوة.

ومن هنا كانت معرفة أمراض القلوب أشد العلوم حاجة إلى التواضع؛ لأن الإنسان متى قرأها وهو يظن أنه سليم منها، كان ذلك الظن نفسه أول أعراض المرض.

وهذا التراث كله لا يقول للإنسان: فتش عن أمراض القلوب في صدور الناس، بل يقول له: ضع قلبك أنت تحت نور الوحي، وراقب نيتك قبل العمل، وفي أثناء العمل، وبعد العمل. واسأل نفسك عما تكره أن يسألك عنه غيرك، ولا تجعل صلاح ظاهرك حجابا يحول بينك وبين رؤية فساد باطنك.

فالقلب لا يصلح بادعاء السلامة، وإنما يصلح بالافتقار إلى الله، وصدق المحاسبة، وقبول النصيحة، وسرعة الرجوع. وكان من أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" أخرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

أمراض القلوب عند المتدينين

من أكثر الموضوعات شائكية وحساسية الحديث عن أمراض القلوب والآفات النفسية عند المتدينين؛ لا لأن المتدينين أكثر الناس مرضا من غيرهم، ولا لأن التدين منشأ لهذه الآفات، بل لأن المرض حين يتسلل إلى نفس المتدين قد لا يظهر في صورته القبيحة المباشرة، وإنما يتخفى أحيانا وراء ألفاظ شرعية، ومواقف وعظية، وشعارات تبدو في ظاهرها دفاعا عن الحق أو غيرة على الدين.

فالإنسان قد يدرك أنه يتحرك بدافع الغضب أو الحسد أو حب الظهور، لكنه حين يتدين قد تعيد نفسه تسمية هذه الدوافع بأسماء أكثر قبولا؛ فيسمي غضبه لنفسه غضبا لله، وحسده غيرة على الدعوة، وحبه للصدارة حرصا على المصلحة، وتشفيه من خصمه نصرة للحق، وفضوله في تتبع أحوال الناس إنكارا للمنكر.

وهنا تكمن الخطورة؛ لأن المرض إذا عرفه صاحبه أمكنه أن يعالجه، أما إذا ألبسه ثوب الفضيلة، فقد يدافع عنه، ويخاصم من أجله، وربما توهم أنه يتقرب إلى الله به، وهو في الحقيقة يطيع هوى نفسه.

ولذلك فإن الحديث عن أمراض القلوب عند المتدينين ليس حديثا عن فئة منفصلة عنا، ولا محاكمة لأشخاص نضعهم أمامنا على مقاعد الاتهام، وإنما هو حديث يبدأ من المتكلم نفسه قبل أن يصل إلى غيره. إنه دعوة إلى أن يقف كل إنسان أمام مرآة عمله، وأن يفتش في خبايا قلبه، وأن يسأل نفسه في صدق: لماذا قلت؟ ولماذا غضبت؟ ولماذا فرحت؟ ولماذا حزنت؟ ولمن كان عملي؟ وما الذي كنت أطلبه حقا؟

فالقلوب لا تصلح بكثرة الحديث عن أمراض الآخرين، وإنما تصلح حين يضع الإنسان نفسه تحت ضوء المحاسبة، ولا يجعل علمه بعيوب النفوس سلما يتسلق به إلى الشعور بالتفوق عليها.

مزالق الحديث عن أمراض القلوب

قد يكون الحديث عن أمراض القلوب بابا من أبواب إصلاحها، وقد يتحول هو نفسه إلى مرض جديد يضاف إليها. والمتحدث في هذا الباب يقف على أرض شديدة الانحدار؛ فقد يريد التحذير من العجب فيقع فيه، ويريد فضح الرياء فيستعرض إخلاصه، ويريد محاربة الكبر فيتعالى على من يصفهم بالمتكبرين.
ومن أخطر الجرائم التي قد يرتكبها المتحدث في حق نفسه ودينه أربع جرائم كبرى.

أولا: أن يقيم الحجة على نفسه فيهلكها
قد يتحدث الإنسان عن الإخلاص وهو أسير حب الظهور، وعن التواضع وهو لا يقبل أن يناقشه أحد، وعن الزهد وهو شديد التعلق بمكانته وصورته في أعين الناس، وعن محاسبة النفس وهو لا يرى نفسه موضعا للمحاسبة.

وهنا تتحول المعرفة من وسيلة للنجاة إلى حجة على صاحبها؛ فكلما اتسعت معرفته بضوابط السلوك، ضاقت مساحة عذره في مخالفتها.
قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ **سورة الصف، الآيتان 2-3.**
وقال سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **سورة البقرة، الآية 44.**

وليس معنى ذلك أن يصمت الإنسان عن النصيحة حتى يبلغ الكمال؛ فلو اشترط الكمال للنصيحة ما نصح أحد أحدا، ولكن المقصود أن يتحدث وهو يعلم أنه أحد المحتاجين إلى ما يقول، لا أنه الطبيب المعافى الذي يصف الدواء للمرضى.

هناك فرق عظيم بين من يقول: هذا مرض ينبغي أن نحذر منه، وقد يصيبني كما يصيبكم، وبين من يقول بلسان حاله: هذا مرض أراه فيكم، وقد نجاني الله منه.

الأول واعظ لنفسه وللناس، والثاني يكتب لنفسه شهادة براءة لم يمنحها الله له.

وقد يكون الرجل بليغا في تشخيص أمراض النفوس، لكنه عاجز عن رؤية المرض الذي استقر في قلبه. يصف العجب عند العلماء، وحب الرئاسة عند الدعاة، والتعلق بالجاه عند المصلحين، ثم لا يرى في حرصه على تصدر المجالس، وكثرة الاستشهاد بكلامه، وغضبه إذا لم يذكر اسمه، إلا دفاعا عن الحق وتقديرا لأهل الفضل.

إن العلم الذي لا يعود على صاحبه بالمحاسبة قد يزيده بعدا، والموعظة التي لا تجرح غروره قد تصبح غذاء لذلك الغرور.

ثانيا: أن يستثني نفسه من الأمراض

من أشد علامات المرض أن يظن الإنسان أنه قد نجا منه. فالمتكبر قد يتحدث طويلا عن الكبر، والحاسد قد يحفظ علامات الحسد، والمرائي قد يحسن شرح دقائق الإخلاص؛ لأن معرفة المرض شيء، والبراءة منه شيء آخر.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ **سورة النجم، الآية 32.**

إن النفس شديدة الميل إلى استثناء ذاتها من القواعد التي تطبقها على غيرها. فإذا رأت شخصا يحب المدح سمته محبا للظهور، أما إذا أحبت هي المدح قالت: إنما يسرني أن يعرف الناس الحق. وإذا غضب غيرها قال صاحبها: لقد انتصر لذاته، أما إذا غضب هو قال: إنما غضبت لله.

وإذا أخطأ خصمه عد خطأه دليلا على فساد منهجه، أما إذا أخطأ هو عد خطأه اجتهادا مأجورا، أو زلة عابرة لا تمس أصله ولا مكانته.

وهذا هو التحيز للنفس حين يتزين بلغة الدين.

لا أحد يستطيع أن يشهد لنفسه بصفاء القلب؛ لأن كثيرا من الدوافع تعمل في مناطق خفية من النفس، وقد لا يكتشفها الإنسان إلا عند الاختبار. يظن أنه زاهد في المنصب حتى يعطى لغيره، ويظن أنه لا يطلب الشهرة حتى يتجاهل الناس عمله، ويظن أنه يحب الحق حتى يظهر الحق على لسان خصمه، ويظن أنه يقبل النصيحة حتى تأتيه ممن هو أصغر منه أو أقل مكانة.

إن المواقف هي التي تكشف ما تخفيه الكلمات.

ولذلك كان من علامات سلامة الطريق أن يزداد الإنسان اتهاما لنفسه كلما ازداد معرفة بها، لا أن يزداد إعجابا بسلامتها. فالعاقل لا يقول: لقد نجوت من الرياء،

وإنما يقول: أسأل الله أن ينجيني منه. ولا يقول: أنا متواضع، وإنما يخشى أن يكون تواضعه الظاهر صورة أخرى من صور الإعجاب الخفي.

ثالثا: أن يسقط الكلام على أشخاص بعينهم

قد يتحدث الإنسان بكلام عام، لكنه يقصد به شخصا بعينه. يصف صفاته، ويروي مواقفه، ويشير إلى زمن الحادثة ومكانها، ثم يقول: لم أذكر اسما.
وهذا من الحيل التي تخادع بها النفس ضميرها.

فالعبرة ليست بذكر الاسم وحده، وإنما بقدرة السامعين على معرفة المقصود. وقد يكون التلميح أحيانا أشد من التصريح؛ لأنه يفتح باب التخمين، ويوسع دائرة الاتهام، ويجعل كل سامع يضيف من ظنونه ما لم يقله المتحدث.

وهكذا يجمع الإنسان بين سوء القصد وفساد العمل؛ فيقصد التشهير، ثم يمنح نفسه براءة شكلية لأنه لم يذكر الاسم صراحة.

والسؤال الذي ينبغي أن يسأله المتحدث لنفسه هو: لو لم يكن هذا الشخص موجودا في حياتي، هل كنت سأكتب هذا الكلام بالطريقة نفسها، وفي التوقيت نفسه، وبالنبرة نفسها؟

فإن كان الجواب بالنفي، فالأرجح أن الكلام لم يكن تحذيرا عاما، وإنما كان خصومة شخصية لبست ثوب الموعظة.
وقد يزداد الأمر سوءا حين يستخدم المتحدث النصوص الشرعية لإدانة خصمه، فينتقي من أوصاف المنافقين أو المتكبرين أو أصحاب القلوب المريضة ما يوافق الصورة التي يريد رسمها، ثم يترك للقارئ مهمة تطبيقها على الشخص المقصود.

وهنا لا يكون النص قد استخدم للهداية، بل استخدم سلاحا في صراع النفوس. إن النصيحة الشرعية لا تعرف التشفي، والموعظة الصادقة لا تبتهج بسقوط الناس، والغيرة على الدين لا تتلذذ بكشف العيوب. ومن وجد في قلبه سرورا بانفضاح أخيه، فليخش أن يكون نصيبه من المرض أشد من نصيب من انفضح.

رابعا: أن يشرعن رمي الناس بالباطل

أخطر ما يمكن أن يترتب على الحديث غير المنضبط عن أمراض القلوب أن يتحول إلى ترخيص عام للناس في تفتيش النيات وإصدار الأحكام على البواطن. فيقال عن هذا: مراء، وعن ذاك: حاسد، وعن ثالث: متكبر، وعن رابع: مريض بحب الرئاسة، دون بينة سوى الانطباع الشخصي، أو الخلاف الفكري، أو الخصومة، أو النفور النفسي.

وهذا باب خطير؛ لأن أمراض القلوب خفية، ولا يجوز الجزم بها لمجرد سلوك يحتمل أكثر من تفسير. فقد يفرح الإنسان بالثناء دون أن يكون مرائيا، وقد يطلب منصبا لأنه يظن نفسه أقدر عليه، وقد ينتقد شخصا دون أن يكون حاسدا له، وقد يبتعد عن مجلس لا تكبرا، وإنما اتقاء للفتنة.

لسنا مأمورين بشق الصدور، ولا نملك أن نحول التحليل النفسي إلى محكمة لتفتيش القلوب والعقائد والنيات.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ **سورة الحجرات، الآية 12.**

ولذلك ينبغي التفريق بين وصف السلوك والحكم على الباطن. يجوز أن نقول: هذا الكلام يتضمن استعلاء، أو هذا التصرف قد يجرح الناس، أو هذا الموقف يفتح باب الرياء، لكن لا ينبغي أن نجزم فنقول: فلان متكبر، أو مراء، أو حاسد، وكأننا اطلعنا على سريرته.

قد نحذر من الفعل، لكننا لا ندعي امتلاك مفاتيح القلوب.

وكم من إنسان اتهم غيره بالرياء، وكان اتهامه نفسه نابعا من الحسد. وكم من شخص رمى غيره بحب الظهور؛ لأنه لم يحتمل أن يظهر سواه. وكم من واعظ حذر من خطورة إسقاط الناس، بينما كان كلامه كله إسقاطا منظما على خصومه.

لماذا تتخفى الأمراض داخل التدين؟

التدين في أصله نور يهدي النفس ويزكيها، لكن النفس قد تحاول الاستيلاء على هذا النور لتصنع منه صورة أجمل لنفسها. فبدلا من أن يكون الدين طريقا لهدم الأنا، قد تجعله النفس وسيلة لتعظيمها. وبدلا من أن تتعبد لله، قد تتعبد لصورتها في أعين الناس. وبدلا من أن تطلب الحق، قد تطلب الانتصار وهي ترفع رايته.

ومن هنا تظهر صور دقيقة من الآفات النفسية التي قد تتخفى في ثياب الطاعة.

العجب بالطاعة

قد يحتقر الإنسان عاصيا لأنه يرى نفسه أفضل منه بطاعته، وينسى أن الطاعة التي أورثته الكبر ربما كانت خطرا على قلبه، وأن المعصية التي أورثت صاحبها انكسارا وتوبة قد تكون بداية عودته إلى الله.

وليس معنى ذلك التسوية بين الطاعة والمعصية، بل التنبيه إلى أن الطاعة لا تؤتي ثمرتها إلا إذا زادت صاحبها تواضعا وخشية ورحمة.
فإذا كثرت العبادة، واشتد معها احتقار الناس، فهناك خلل في القلب، ولو بدا الظاهر صالحا.

الرياء في صورة الإخلاص

قد يتعمد الإنسان الحديث عن خلواته ودموعه وأوراده، لا على سبيل التصريح بالفخر، بل بطريقة أكثر خفاء؛ فيروي مواقف يفهم منها السامعون تقواه، أو يشكو تقصيره بما يكشف لهم كثرة عبادته.
وقد يقول: لا أحب الحديث عن نفسي، ثم يقضي حديثه كله في بناء صورة عظيمة عنها.
والرياء لا يكون دائما في أصل العمل، بل قد يكون في إظهار التواضع، وفي الحديث عن كراهية الشهرة، وفي استنكار المدح أمام الناس مع التلذذ به في الداخل.
وقد يزهد الإنسان في ثناء صغير ليحصل على ثناء أكبر؛ فيرفض المدح أمام الناس حتى يقال عنه: ما أشد إخلاصه وتواضعه.

الحسد بلسان النقد

قد يضيق الإنسان بنجاح أخيه، لكنه لا يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه، فيبحث عن أخطاء حقيقية أو متوهمة تفسد صورته.
فإن أثنى الناس عليه، ذكرهم بزلاته. وإن نجح مشروعه، تحدث عن فساد نيته. وإن ظهر علمه، شكك في إخلاصه. وإن مدحه أحد، سارع إلى القول: إن العبرة بالخواتيم.
هو لا يكذب في كل ما يقول، لكنه لا يذكر من الحقيقة إلا ما يخدم ألم نفسه.
والحسد الديني أشد خفاء من الحسد الدنيوي؛ لأن صاحبه قد يقنع نفسه بأنه يحمي الناس من الاغترار، بينما هو في الحقيقة يتألم لأن الخير جاء على يد غيره.

ومن علامات صدق القلب أن يفرح الإنسان بظهور الحق ولو ظهر على لسان من يخالفه، وأن يفرح بنجاح الخير ولو لم يكن له فيه اسم ولا نصيب ظاهر.

حب الرئاسة في صورة تحمل المسؤولية

قد يطلب الإنسان موقعا متقدما، ويصر على البقاء فيه، ويرفض كل بديل عنه، ثم يقول: لا أريد المنصب، ولكن الناس يحتاجون إلي.

وقد يكون صادقا في بعض ما يقول، لكن من علامات صدقه أن يقبل ظهور من هو أكفأ منه، وأن يفرح بمن يحمل العبء عنه، وألا يربط بقاء الحق ببقائه هو.

أما من يرى أن المشروع لا ينجح إلا بقيادته، وأن الجماعة لا تستقيم إلا بصوته، وأن الناس لا يفهمون إلا بتفسيره، فقد يكون قد مزج بين المصلحة العامة وصورته الذاتية، حتى لم يعد قادرا على التمييز بينهما.

ومن أشد صور حب الرئاسة خفاء أن يرفض الإنسان المنصب بلسانه، لكنه يغضب إذا لم يعرض عليه، أو يزعم أنه لا يريد التقدم، ثم يحارب كل من يتقدم دونه.

القسوة في صورة الغيرة

قد يتلذذ الإنسان بتعنيف المخطئين، ويختار أشد العبارات إيلاما، ثم يسمي ذلك صراحة في الحق.

لكن الصراحة شيء، والقسوة شيء آخر. والغيرة على حدود الله لا تستلزم إهانة عباده، بل قد تكون الرحمة بالمخطئ أقرب إلى مقصود الشرع من التشهير به.

ليس كل من رفع صوته بالحق قد نصره، وليس كل من أوجع الناس بكلامه قد أصلحهم. فالكلمة قد تكون صحيحة في ذاتها، لكنها فاسدة في قصدها، أو توقيتها، أو طريقتها، أو آثارها.

وقد يتوهم الإنسان أنه يغضب لله، بينما يكون غضبه الحقيقي لأن الناس لم يقبلوا رأيه، أو لم يعترفوا بفضله، أو لم ينزلوه المنزلة التي يراها لنفسه.

التدين لا يمنح العصمة

من أخطر الأوهام أن يظن المتدين أن كثرة عبادته، أو علمه، أو دعوته، أو مكانته بين الناس تجعله بمنأى عن الانحراف النفسي.

بل قد تكون مكانة الإنسان الدينية نفسها اختبارا جديدا لقلبه؛ لأن الناس يوقرونه، ويقبلون كلامه، ويلتمسون له الأعذار، فيصعب عليه أن يسمع النقد أو يعترف بالخطأ.

وقد يتعود أن يكون ناصحا لا منصوحا، ومعلما لا متعلما، ومقوما للناس لا موضعا للتقويم. ثم تنشأ في نفسه حصانة وهمية تجعله يفسر كل نقد على أنه إساءة للأدب، وكل مخالفة على أنها تمرد على الحق، وكل ابتعاد عنه على أنه ضعف في الدين.

وهنا تختلط هيبة الدين بهيبة الشخص، ويصبح الاعتراض عليه اعتراضا على الدعوة، ونقد رأيه طعنا في المنهج، ومراجعته انتقاصا من أهل الفضل.
ومن تمام صدق العالم والداعية والمربي أن يفصل بين نفسه وبين الرسالة التي يحملها؛ فلا يجعل كرامته الشخصية جزءا من العقيدة، ولا يحول اجتهاده إلى نص مقدس، ولا يطالب الناس بأن يطيعوه باسم طاعة الحق.

أسئلة تكشف خبايا النفس

لا يعرف الإنسان قلبه بكثرة ما يصفه، بل بما يختبره به. ومن الأسئلة التي ينبغي أن يقف عندها طويلا:

1. هل أفرح بظهور الحق إذا ظهر على لسان من أخالفه؟
2. هل أتمنى نجاح العمل الصالح ولو لم يذكر اسمي؟
3. هل أحزن إذا مدح الناس شخصا لا أحبه؟
4. هل أقبل النصيحة ممن هو أصغر مني أو أقل علما ومكانة؟
5. هل أذكر عيوب خصمي أكثر مما أذكر فضائله؟
6. هل أشعر بلذة خفية حين ينكشف خطأ من أنافسه؟
7. هل أبحث عن الحق، أم أبحث عن الأدلة التي تثبت أنني كنت على حق؟
8. هل أستعمل النصوص لإصلاح نفسي، أم لتجريم غيري؟
9. هل أتحدث عن أمراض القلوب لأنني أخاف منها على نفسي، أم لأنني وجدت بها لغة راقية أهاجم بها من لا أحب؟
10. هل أنا مستعد للاعتذار بالوضوح نفسه الذي كنت به مستعدا للاتهام؟
11. هل أحزن على وقوع أخي في الخطأ، أم أفرح لأن خطأه أثبت صحة موقفي منه؟
12. هل أرجو هداية من أخالفه، أم أرجو سقوطه وانفضاحه؟

هذه الأسئلة لا تصدر أحكاما نهائية، لكنها تفتح نوافذ في جدران النفس المغلقة، وتمنعها من الاطمئنان إلى الصورة التي صنعتها عن ذاتها.

ضوابط الحديث عن الآفات النفسية

حتى يكون الحديث عن أمراض القلوب بابا للإصلاح، لا وسيلة للظلم والتشهير، فلا بد له من ضوابط.

1. أولها أن يبدأ المتحدث بنفسه، وأن يشعر أنه داخل دائرة الخطاب، لا واقف فوقها.

2. وثانيها أن يتحدث عن الآفات باعتبارها احتمالات إنسانية عامة، لا صفات تختص بجماعة أو تيار أو طبقة من الناس.
3. وثالثها أن يفرق بين نقد السلوك والحكم على النية؛ فالسلوك الظاهر يمكن مناقشته، أما السرائر فعلمها عند الله.
4. ورابعها ألا يستخدم الكلام العام لتصفية الحسابات الخاصة، وألا يجعل الموعظة رسالة مشفرة إلى شخص بعينه.
5. وخامسها أن يجمع بين التحذير والرحمة؛ لأن الغاية من كشف المرض هي طلب العلاج، لا الاحتفال بسقوط المريض.
6. وسادسها أن يترك للناس باب التوبة والتغير، فلا يحبسهم داخل تشخيص دائم، ولا يجعل خطأهم القديم هويتهم الأبدية.
7. وسابعها أن يتحقق من قصده قبل النشر أو الحديث: هل يرجو إصلاحا حقيقيا، أم ينتظر إعجاب الناس بعمق تحليله وجرأته؟
8. وثامنها أن يحذر من إطلاق الأوصاف التي تتعلق بالبواطن، فلا يحول الظنون إلى حقائق، ولا الانطباعات إلى أحكام، ولا الخصومات الشخصية إلى تشخيصات نفسية ودينية.

إصلاح القلب يبدأ من الخفاء

لا يعالج الرياء بمزيد من الحديث عنه فقط، بل بأعمال خفية لا يعلمها الناس. ولا يعالج العجب بترديد عبارات التواضع، بل بتذكر نعم الله، وعيوب النفس، وتقصيرها، وحاجتها الدائمة إلى المغفرة.

ولا يعالج الحسد بإنكار وجوده، بل بالدعاء للمحسود، وذكر فضله، وإعانته على الخير، وإلزام النفس بالفرح لما يجريه الله على يديه.

ولا يعالج حب الرئاسة بالشعارات، بل بتدريب النفس على التراجع، وتسليم الراية، والفرح بنجاح الآخرين، وقبول أن يقوم بالعمل من هو أقدر وأصلح.

ومن أعظم أبواب العلاج أن يكون للإنسان عمل بينه وبين الله لا يخبر به أحدا، وأن تكون له خلوات للمحاسبة لا لصناعة القصص التي يرويها لاحقا، وأن يصحب من يصدقونه النصيحة، ولا يكتفون بتعظيمه والثناء عليه.

كما يحتاج إلى أن يتعلم الاعتذار، وأن يقول: أخطأت، دون أن يتبعها بمحاضرة طويلة تبرر الخطأ. وأن يقبل أن يكون فهمه ناقصا، وأن خصمه قد يحمل جزءا من الصواب، وأن مكانته لا تعفيه من المراجعة.

فالقلوب لا تزكو بادعاء سلامتها، وإنما تزكو بالمجاهدة. ولا تطهر حين تنشغل بتشخيص قلوب الناس، وإنما حين تشتغل بتطهير قصدها.

مرآة لا نافذة

ينبغي أن نقرأ الحديث عن أمراض القلوب كما ننظر في المرآة، لا كما ننظر من النافذة.

من ينظر من النافذة يفتش عن العيوب في الخارج، ويحدد من ينطبق عليه الكلام من جيرانه وأصدقائه وخصومه. أما من ينظر في المرآة فيسأل نفسه: أين نصيبي من هذا المرض؟ وكيف تسلل إلي؟ وتحت أي اسم أخفيته؟

لسنا في حاجة إلى مزيد من القضاة الذين يحاكمون القلوب، بل إلى مزيد من الصادقين الذين يحاسبون قلوبهم.

وليس المقصود أن يعيش الإنسان في وسواس دائم، يشك في كل نية، ويبطل كل عمل، ويخاف من كل ثناء؛ فذلك قد يكون بابا آخر من أبواب تعطيل الخير. وإنما المقصود أن يعمل ويرجو، ويحذر ولا يقنط، ويتهم نفسه دون أن يحتقرها، ويستعين بالله دون أن يدعي العصمة.

فحديثنا عن أمراض القلوب ليس دعوة إلى إدانة المتدينين، وإنما هو دفاع عن حقيقة التدين من أن تختطفها نزوات النفس. وليس طعنا في أهل الطاعة، وإنما تنبيه إلى أن الطاعة تحتاج إلى حراسة دائمة من العجب والرياء والحسد وحب الجاه.

إن أول من ينبغي أن يخاف من الكبر هو من يتحدث عنه، وأول من ينبغي أن يفتش عن الرياء هو من يحذر الناس منه، وأول من ينبغي أن يراجع قصده هو من يكتب في مقاصد الآخرين.

فلا تجعل هذا الفصل قائمة بأسماء تعرفها، ولا سلاحا توجهه إلى شخص تخاصمه، ولا مقياسا تمنح به نفسك شهادة السلامة.

ضعه أمامك مرآة.

ثم أغلق الباب، واخل بنفسك، واسأل قلبك في صدق: ما الذي أريده حقا من الله، وما الذي أريده من الناس؟

فمن صدق مع الله في السؤال أعانه على رؤية عيوبه، ومن رأى عيوبه انشغل بإصلاحها عن التشفي بعيوب الخلق، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن تواضع للحق رفعه الله، ولو لم يعرفه أحد.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ **سورة النجم، الآية 32.**

الفرق بين التدين الصادق والتدين المغشوش

ليس المقصود من نقد التدين المغشوش أن نضعف قيمة التدين، أو أن نساوي بين الغيرة الصادقة والتعصب، أو بين الرحمة الشرعية والتمييع، أو أن ندعو إلى دين بارد لا ينكر منكرا ولا يميز حقا من باطل. بل المقصود أن نفرق بين التدين الذي يزكي النفس، والتدين الذي تستعمله النفس. بين تدين يجعل صاحبه أعدل وأرحم وأصدق، وتدين يجعله أكثر تعاليا أو أكثر ذوبانا. بين تدين يحرر صاحبه من عبودية الجمهور، وتدين يجعله أسيرا لتصفيقهم أو خوفه منهم.

- التدين الصادق يجعل صاحبه أكثر تواضعا، أما التدين المغشوش فيجعله أكثر تعاليا إذا كان متشددا، أو أكثر تملقا إذا كان مميّعا.
- التدين الصادق يجمع بين الحق والرحمة، أما التدين المغشوش فيفصل بينهما؛ فالمتعصب يظن أن الرحمة عدو الحق، والمميع يظن أن الحق عدو الرحمة.
- التدين الصادق يحاسب النفس قبل الناس، أما التدين المغشوش فيفتش في الناس لينسى نفسه، أو يفتش في النصوص ليجد ما يبرر هواه.
- التدين الصادق يخاف من ظلم المخالف، أما التدين المغشوش فيرى المخالف مستباحا إذا كان خصما، أو يرى الحق قابلا للإخفاء إذا كان مزعجا.
- التدين الصادق يفرح بتوبة المخطئ ورجوعه، أما التدين المغشوش فيفرح بثبوت الإدانة عليه، أو يلغي معنى الخطأ أصلا حتى لا يشعر أحد بالحرج.
- التدين الصادق يعرف أن العلم أمانة، أما التدين المغشوش يجعله سلطة للهيمنة، أو مادة انتقائية للتأويل والتذويب.

- التدين الصادق يستعمل السوشيال ميديا وسيلة للبيان والنفع، أما التدين المغشوش يجعلها محراب صورته، ومنبر ذاته، وساحة معاركه، أو مسرح قبوله الاجتماعي.
- التدين الصادق يعرف أن النصيحة عبادة لها آداب، أما التدين المغشوش يجعل النصيحة سلاحا لهدم الناس، أو يلغي النصيحة بحجة اللطف والرحمة.
- التدين الصادق لا يلغي الحزم، لكنه يضعه في موضعه. ولا يلغي اللين، لكنه يمنعه من التحول إلى مداهنة. ولا يلغي الإنكار، لكنه يضبطه بالعلم والعدل. ولا يلغي المقاصد، لكنه لا يجعلها سيفا على النصوص. ولا يلغي الواقع، لكنه لا يجعله حاكما على الوحي.
- والفرق الجوهري بين التدين الصادق والتدين المغشوش أن الأول يجعل الإنسان عبدا لله، أما الثاني فيجعله عبدا لصورته عند الناس كصورة من الصور: صورة القوة، أو صورة النقاء، أو صورة الحارس على الحق، أو صورة المنفتح المقبول، أو صورة الإنسان اللطيف الذي لا يغضب أحدا. وكلما صار التدين خادما لصورة الإنسان عن نفسه، ابتعد عن حقيقته ولو بقيت ألفاظه دينية.
- التدين الصادق لا يحتاج إلى صخب دائم ليثبت وجوده، ولا إلى تمييع دائم ليثبت رحمته. قوته في صدقه، ورحمته في عدله، وثباته في عبوديته، واتزانه في خوفه من الله قبل خوفه من الناس.

التدين المغشوش حين يتحول من عبودية لله إلى صورة اجتماعية

التدين الصادق يبدأ من الداخل قبل الخارج، ومن مراقبة الله قبل مراقبة الناس، ومن إصلاح النفس قبل الانشغال بإدانة الآخرين أو استرضائهم. أما التدين المغشوش فينشغل بالصورة أكثر من الحقيقة، وبالانطباع أكثر من الإخلاص، وبما يقوله الناس عن صاحبه أكثر مما يعلمه الله منه. وقد تكون هذه الصورة صورة المتدين الصارم الذي لا يلين، وقد تكون صورة المتدين اللطيف المنفتح الذي لا يصدم أحدا. وفي الحالين تتحول العبودية إلى عرض اجتماعي، ويتحول الدين من طريق لإصلاح النفس إلى مادة لصناعة الانطباع.

على السوشيال ميديا، تصبح الصورة الدينية قابلة للتصميم والتسويق. يستطيع الإنسان أن يصنع لنفسه هيئة المتدين الغيور: ينشر المقاطع المؤثرة، ويقتبس كلام العلماء، ويستعمل ألفاظا شرعية، ويكتب عبارات حادة عن الانحراف والفتن، ويظهر بمظهر الحارس على الثوابت. ويستطيع آخر أن يصنع لنفسه هيئة المتدين العصري المقبول:

- يتحدث كثيرا عن الرحمة والانفتاح والإنسانية،
- ويتجنب كل لفظ قد يزعج الجمهور،
- ويعيد صياغة الدين في صورة ناعمة لا تكلف أحدا ولا تصطدم بذوق سائد.

لكن هذا كله لا يكفي للحكم على صدق التدين؛ لأن الدين ليس ما تنشره فقط، بل ما يصنعه النشر في قلبك.

هل زادك تواضعا؟ هل جعلك أرحم بالناس وأصدق مع الحق؟ هل جعلك أخوف من ظلمهم، وأخوف كذلك من مداهنتهم؟ هل جعلك أحرص على سترهم، وأحرص أيضا على ألا تكذب عليهم باسم الستر؟ هل جعلك أقل اندفاعا في الحكم عليهم، وأقل اندفاعا في مجاراتهم؟ أم جعلك أكثر قسوة وتربصا واحتقارا؟ أو جعلك أكثر حرصا على القبول، وأضعف قدرة على البيان حين يكون البيان مكلفا؟

التدين المغشوش لا يطلب من صاحبه أن يتغير، بل يمنحه صورة يطمئن إليها. فقد يمنحه شعورا بأنه أفضل من غيره لأنه أشد وأصلب، وقد يمنحه شعورا بأنه أرق من غيره لأنه ألطف وأكثر انفتاحا. في الحالين لا يوقظه إلى عيوب نفسه، بل يمنحه طريقة أنيقة للهروب منها. لا يدفعه إلى الخلوة الصادقة مع الله، بل يدفعه إلى المنصة الصاخبة أمام الناس.

لا يسأله: هل أنت صادق؟ بل يسأله: كيف تبدو أمام جمهورك؟ هل تبدو قويا؟ هل تبدو نقيا؟ هل تبدو رحيما؟ هل تبدو عصريا؟ هل تبدو مقبولا؟

ومن هنا ينشأ خطر عميق: أن يتحول الدين إلى بطاقة معروضة لا عبودية معيشة. يصبح الإنسان متدينا في صفحته، لا في خلوته. قويا في الردود، أو ناعما في العبارات، لكنه ضعيف في محاسبة نفسه. حاضرا في المعارك أو في موجات القبول، غائبا عن تزكية قلبه. حادا في إنكار المنكر العام، أو مائعا في بيان الحق المكلف، متساهلا مع منكرات قلبه الخاصة: الكبر، والعجب، والحسد، والشماتة، وحب الظهور، وقسوة اللسان، والخوف من الناس، وطلب التصفيق، والحرص على الصورة.

والتدين الذي لا يكسر الكبر في صاحبه، ولا يربي فيه الرحمة، ولا يجعله أكثر خوفا من الله في أعراض الناس، ولا أكثر أمانة مع النصوص حين تضغط عليه رغبات الجمهور، تدين يحتاج إلى مراجعة عميقة؛ لأنه ربما صار لباسا للنفس لا دواء لها. فالدين إما أن يجعل الإنسان أصدق وأعدل وأرحم وأثبت، وإما أن تستعمله النفس لتبدو قوية أمام قوم، أو مقبولة عند آخرين.

التدين الاستعراضي وشهوة الظهور باسم النصرة

من أخطر ما صنعته السوشيال ميديا أنها جعلت التدين قابلا للقياس بالأرقام: عدد المتابعين، عدد الإعجابات، عدد المشاركات، عدد التعليقات، عدد من وافق، وعدد من خاف، وعدد من صفق. ومع الوقت قد ينتقل الإنسان من طلب وجه الله إلى طلب أثره في الناس، دون أن يشعر.

في البداية قد ينشر الإنسان نصيحة صادقة، أو ردا نافعا، أو تذكرة مؤثرة. ثم يلاحظ أن بعض الموضوعات تجذب الناس أكثر من غيرها: الهجوم يجذب أكثر من البناء، والفضيحة تنتشر أكثر من التربية، والتحذير يثير أكثر من التعليم، والعبارة القاسية تحصد تفاعلا أكثر من العبارة المنصفة. وهنا تبدأ النفس في التعلم. تتعلم ما الذي يجلب الجمهور، وما الذي يرفع الحساب، وما الذي يجعل الاسم متداولا. ثم يلبس ذلك كله لباس الغيرة على الدين.

التدين الاستعراضي لا يظهر دائما في صورة الرقص على المنابر الرقمية، بل قد يظهر في هيئة الجد والصرامة. صاحبه قد لا يبحث عن صورة جميلة لنفسه، لكنه يبحث عن صورة مخيفة: أن يراه الناس قويا، لا يجامل، لا يخاف، لا يلين، لا يترك أحدا، لا يسكت عن أحد. وهذه أيضا صورة نفسية؛ فقد يشتهي الإنسان أن يكون محبوبا، وقد يشتهي أن يكون مرهوبا.

ومن علامات هذا النمط أن صاحبه لا يكتفي ببيان الحق، بل يحرص على أن يرى الناس أنه هو الذي بينه. ولا يكتفي برد الخطأ، بل يريد أن يحسب الرد له. ولا يفرح بتصحيح المخطئ بقدر ما يفرح بانتشار مقطعه عنه. ولا يحزن على اضطراب الناس بقدر ما ينشغل بنمو حضوره في المعركة.

وهنا يختلط الإخلاص بحب الظهور اختلاطا خفيا. فالإنسان قد يبدأ لله، ثم تدخل عليه نفسه من باب العمل الصالح. وليس الخطر أن يشعر الإنسان بفرح طبيعي إذا انتفع الناس بكلامه، وإنما الخطر أن يصبح هذا الفرح هو الوقود الحقيقي للكلام. فإذا غاب التفاعل فترت غيرته، وإذا حضر الجمهور اشتعل حماسه. عندئذ لا يكون السؤال: أين الحق؟ بل: أين المعركة التي تصنع حضوري؟

عقدة التفوق الديني والأخلاقي

من الدوافع النفسية العميقة في التدين المغشوش شعور خفي بالتفوق الديني. لا يرى صاحبه نفسه مجرد عبد يرجو النجاة ويخاف التقصير، بل يراه حارسا على نجاة الآخرين، ومفتشا على إيمانهم، وقاضيا على صدقهم، ومقيما لدرجاتهم في الدين.

هذا الشعور لا يصرح به صاحبه غالبا، لكنه يظهر في لغته. يتكلم عن الناس من فوق، لا من بينهم. يصفهم كأنهم كتلة من الجهل والانحراف، ويصف نفسه وجماعته كأنهم البقية الناجية وحدهم. لا يقول: نحن نخطئ ونصيب، بل يقولها بلسان الحال: نحن الميزان. من اقترب منا اقترب من الحق، ومن خالفنا اقترب من الباطل.
وهذه العقدة تجعل الإنسان عاجزا عن الاعتراف بفضل المخالف. فإذا وجد عنده علما، قلل منه. وإذا وجد عنده خيرا، شكك فيه. وإذا وجد له أثرا، نسبه إلى الحظ أو الخداع أو تلبيس الشيطان. أما خطؤه، فيكبره حتى يبتلع كل حسناته. وكأن المخالف لا يملك إلا عيوبه، وكأن الموافق لا يرى إلا فضائله.

ومن أخطر آثار التفوق الديني أنه يقتل الخوف من النفس. فالإنسان المتضخم بشعوره الديني لا يعود يخاف من هواه كما ينبغي، بل يظن أن الهوى عند غيره فقط. فإذا قسا قال: هذه غيرة. وإذا ظلم قال: هذه شدة في الحق. وإذا شتم قال: هذه صراحة. وإذا تتبع قال: هذه نصيحة. وإذا تكبر قال: هذه عزة أهل الإيمان. وهكذا يمنح أمراضه أسماء فاضلة، فلا يراها ولا يتوب منها.

والتدين الصادق على العكس من ذلك؛ كلما ازداد الإنسان علما ازداد خوفا من نفسه، وكلما ازداد نصرة للحق ازداد حذرا من الظلم، وكلما عرف مقام الدين عرف خطورة أن يستعمله في حظوظ النفس.

التعصب الديني بوصفه حاجة نفسية إلى اليقين السهل

التعصب لا ينشأ دائما من قوة الإيمان، بل قد ينشأ أحيانا من ضعف القدرة على احتمال التعقيد. فبعض الناس لا يطيق أن تكون المسائل متعددة الأوجه، أو أن يكون في الخلاف سعة، أو أن يكون المخالف له دليله واجتهاده، أو أن يكون العالم الذي يحبه قد أخطأ، أو أن يكون الذي يخالفه قد أصاب في موضع.

النفس القلقة تحب اليقين السهل: أبيض وأسود، حق وباطل، نحن وهم، سنة وبدعة، ولاء وبراء، نقي ومنحرف. هذا التقسيم يريحها من مشقة التفكير، ومن أمانة التفصيل، ومن تواضع الاعتراف بأن الواقع أعقد من الشعارات.

على السوشيال ميديا، يجد هذا النمط بيئة مثالية؛ لأن المنصات لا تحب التفصيل الطويل، بل تحب العبارة القاطعة. لا تكافئ التوازن، بل تكافئ الحدة. لا تنشر غالبا الكلام المنصف الهادئ، بل تنشر الكلام الذي يثير الغضب والفرز والاستفزاز. وهكذا يتغذى التعصب من طبيعة الوسيط نفسه.

المتعصب يشعر براحة نفسية حين يصنف الناس بسرعة؛ لأن التصنيف يمنحه وهما بالسيطرة على الفوضى. بدلا من أن يتعب في الفهم، يضع ملصقا جاهزا. بدلا من أن يناقش الدليل، يحاكم الهوية. بدلا من أن يسأل: ماذا قال؟ يسأل: إلى أي جماعة ينتمي؟ ومن يمدحه؟ ومن يعاديه؟ ومن أعاد نشر كلامه؟

وهنا يصبح الدين عنده خريطة انتماءات لا طريقا إلى الله. يطمئن لأنه عرف موقع كل شخص في الخريطة، لا لأنه فهم الحجة. وهذا من أخطر الانحرافات؛

لأن الحق لا يعرف دائما براحة النفس، ولا يقاس بانتماء القائل، ولا يختصر في لون واحد من ألوان الناس.

القسوة حين تتنكر في هيئة الغيرة

الغيرة على الدين خلق عظيم إذا صحبها علم وعدل ورحمة. لكن القسوة قد تلبس ثوب الغيرة حتى لا يشعر صاحبها أنه قاس. فيظن أن جرح الناس عبادة، وأن إهانتهم قوة، وأن تحطيمهم نصرة، وأن إغلاق باب الرجوع عليهم حماية للدين.

وهناك فرق كبير بين من يغار لله فيحزن على الخطأ، ومن يغار لنفسه فيفرح بالخصومة. الأول يريد هداية المخطئ، والثاني يريد هزيمته. الأول يبين بقدر الحاجة، والثاني يكرر بقدر ما يخدم المعركة. الأول يحفظ للمخالف إنسانيته، والثاني يحوله إلى هدف. الأول يخاف أن يظلم، والثاني يرى أن المخالف لا يستحق الإنصاف.

القسوة الدينية مرض خفي؛ لأنها لا تبدو لصاحبها قسوة. إنه يراها صلابة. وقد يجد من يصفق له ويزيده اقتناعا بأن رحمته ضعف، وأن إنصافه ميوعة، وأن تردده ورع بارد، وأن التثبت جبن. فإذا اجتمع جمهور غاضب حول شخص قاس، زادته الجماعة قسوة إلى قسوته، وظن أن كثرة الموافقين دليل على صحة الطريق.

لكن الميزان ليس عدد المصفقين، بل مقدار العدل. وليس كل كلام صادم شجاعة، ولا كل شدة غيرة، ولا كل لين تمييعا. فقد يكون اللين فقها، والشدة هوى. وقد تكون الصراحة ظلما، والسكوت حكمة. وقد يكون الإنكار واجبا، لكن بأسلوب لا يهدم المقصود من الإنكار.

النرجسية الدينية والبحث عن مركزية الذات

النرجسية الدينية لا تعني بالضرورة أن الإنسان يحب صورته الجسدية أو يصرح بتعظيم نفسه، بل تعني أن يجعل نفسه مركزا للحقيقة، وأن يتعامل مع الدين كأنه يدور حول فهمه، وحول جماعته، وحول أحكامه، وحول غضبه ورضاه.

صاحب النرجسية الدينية لا يقول: أنا الدين. لكنه يتصرف أحيانا كأن مخالفته مخالفة للدين، والرد عليه رد على الحق، وانتقاده طعن في السنة، وتجاوزه تجاوز لأهل الحق. فهو يخلط بين مكانته ومكانة المعنى الذي يحمله، وبين نفسه وبين القضية التي يدافع عنها.

ومن علاماته أنه يضيق بالنقد جدا، مع أنه يمارس نقد الناس بقسوة. يطلب من الآخرين أن يتحملوا شدته، لكنه لا يتحمل منهم مراجعة هادئة. يطالبهم بالتواضع للحق، لكنه إذا خالفوه رأى في مخالفتهم جرأة عليه. يتكلم كثيرا عن التجرد، لكنه يفسر مخالفيه من خلال نياتهم لا من خلال حججهم.

النرجسية الدينية خطيرة لأنها تجعل الإنسان يستعمل الحق لحماية صورته. فإذا بان له خطأ في كلامه، لم يسهل عليه الرجوع؛ لأن الرجوع عنده لا يبدو عبادة، بل هزيمة أمام الجمهور. وإذا اعتذر، شعر كأنه فقد هيبته. وإذا أنصف خصمه، خاف أن تضطرب صورته أمام أتباعه. وهنا يصبح أسير المنصة التي صنعها لنفسه.

أما العالم الرباني أو الداعية الصادق فلا يخاف من الرجوع إلى الحق؛ لأن مكانته ليست مبنية على وهم العصمة، بل على صدق الطلب. ولا يرى الاعتذار سقوطا، بل يراه نجاة. ولا يرى الإنصاف تنازلا، بل يراه عبادة.

الإسقاط النفسي واتهام الآخرين بما يسكن في الداخل

من آليات النفس العجيبة أنها قد تهرب من مواجهة عيوبها بإسقاطها على الآخرين. فالذي يخاف في داخله من حب الظهور قد يكثر من اتهام الناس بالشهرة. والذي يحمل تعصبا شديدا قد لا يرى التعصب إلا في غيره. والذي يهوى الغلبة قد يصف كل مخالف بأنه صاحب هوى. والذي ينتقي النصوص قد يتهم الآخرين بالتلبيس والانتقاء.

ليس المقصود أن كل نقد هو إسقاط، ولا أن كل من حذر من خطأ واقع فيه بالضرورة. هذا تعميم باطل. لكن المقصود أن كثرة الانفعال، وغياب العدل، والفرح بالإدانة، وتكرار الاتهامات نفسها، قد تكشف أحيانا أن الإنسان لا يحارب الخطأ في الخارج فقط، بل يحارب شبحا داخليا لا يريد الاعتراف به.

في السوشيال ميديا يظهر الإسقاط في صورة عبارات جاهزة: هؤلاء يبحثون عن الشهرة، هؤلاء عبيد الجمهور، هؤلاء يميعون الدين، هؤلاء قساة، هؤلاء متطرفون، هؤلاء مداهنون، هؤلاء أصحاب دنيا. وقد يكون بعض هذا صحيحا في مواضع، لكنه حين يصبح لغة دائمة بلا تثبت ولا إنصاف، فإنه يتحول من بيان إلى مرآة نفسية.

ومن أعظم صور الإسقاط أن يهاجم الإنسان التعصب وهو متعصب، أو يهاجم القسوة بقسوة أشد، أو يهاجم حب الشهرة وهو يصنع شهرته من مهاجمة المشاهير، أو يهاجم سوء الظن وهو يملأ خطابه بتفسير النيات. عندها لا يكون الدين قد هذب النفس، بل صار مادة جديدة لصراعاتها القديمة.

اقتصاد الغضب الديني على المنصات

السوشيال ميديا لا تنقل التدين كما هو فقط، بل تعيد تشكيله. فهي تكافئ السريع، والحاد، والمثير، والمختصر، والغاضب. وكلما كان المحتوى أكثر قدرة على استفزاز الناس، زادت فرص انتشاره. وهذه البيئة تصنع ما يمكن تسميته باقتصاد الغضب الديني.

في هذا الاقتصاد، الغضب سلعة. والفضيحة سلعة. والتخويف سلعة. والتحذير سلعة. وإسقاط الأشخاص سلعة. والناس لا يستهلكون المعلومة فقط، بل يستهلكون الشعور: شعور الانتصار، شعور الغيرة، شعور الانتماء، شعور التفوق، شعور أنني لست وحدي في غضبي.

وهنا يتشكل نوع من الخطاب الديني الذي لا يعيش إلا في حالة اشتعال. يحتاج دائما إلى معركة جديدة، وشخص جديد، ومقطع جديد، وعبارة جديدة، ووسم جديد. فإذا لم توجد قضية كبرى، ضخّم قضية صغرى. وإذا لم يجد انحرافا واضحا، بحث عن كلمة محتملة. وإذا لم يجد خصما، صنع خصما من سوء فهم أو اجتزاء.

هذا لا يعني أن كل غضب ديني باطل؛ فهناك غضب محمود لله حين تنتهك الحرمات. لكن الغضب إذا صار نمطا دائما، ولغة دائمة، ومصدرا دائما للهوية، فإنه يتحول من خلق عارض إلى بنية نفسية. وصاحب هذه البنية لا يشعر بوجوده إلا وهو غاضب. لا يعرف التدين الهادئ، ولا العبادة الخفية، ولا العلم الصبور، ولا الإصلاح الطويل. يريد معركة الآن، وجمهورا الآن، وانتصارا الآن.

والدين أوسع من الغضب. فيه خشوع، ورحمة، وصبر، وحلم، وتعليم، وبناء، وتوبة، وستر، ومراجعة. فمن حصر الدين في الغضب فقد ظلم الدين، ولو غضب له.

عقلية القطيع الديني وفقاعات التشابه

من أخطر آثار السوشيال ميديا أنها لا تجمع الناس دائما حول الحق، بل قد تجمعهم حول التشابه. يتابع الإنسان من يشبهه، ويسمع من يؤكد قناعاته، ويطرد من يزعجه، ويحظر من يراجعه، ثم يظن أن العالم كله يقول ما تقوله دائرته الصغيرة.

هكذا تتكون الفقاعة الدينية المغلقة. داخلها تتكرر العبارات نفسها، وتنتشر الأحكام نفسها، ويتم تبادل المقاطع نفسها، ويتعزز الشعور بأننا نحن الواعون، ونحن الغيورون، ونحن الثابتون، وغيرنا إما جاهل أو مميع أو متطرف أو مخدوع.

في هذه الفقاعة يصبح الإنصاف صعبا؛ لأن الجماعة لا تكافئ من ينصف المخالف، بل قد تشك فيه. ولا تفرح بمن يراجع الحكم، بل قد تتهمه بالضعف. ولا تحب من يقول: المسألة فيها تفصيل، بل تميل إلى من يقول: الأمر واضح، ومن خالف فقد انحرف.

ومع الوقت يفقد الإنسان قدرته على التفكير الفردي. يظن أنه مستقل، لكنه في الحقيقة يردد ما تسمح به جماعته الرقمية. يخاف أن يكتب كلمة رحيمة فينهال عليه أتباعه. يخاف أن يترحم على مخالف فيتهم. يخاف أن يقول إن فلانا أخطأ وله فضل فيفقد مكانته بينهم. وهكذا يصبح التدين محكوما بضغط الجمهور، لا بمراقبة الله وحده.

وأخطر ما في عقلية القطيع أنها تجعل الإنسان يظلم وهو مطمئن؛ لأن الجميع حوله يظلمون بالطريقة نفسها. فإذا رأى كثرة المشاركات ظنها دليلا، وإذا رأى

كثرة الشتائم ظنها غيرة، وإذا رأى كثرة التحذيرات ظنها إجماعا. وقد تكون كلها موجة نفسية لا ميزانا شرعيا.

التدين الدفاعي والخوف من الاتهام

هناك نوع من التعصب لا ينبع من حب السيطرة بقدر ما ينبع من الخوف. صاحبه يخاف أن يتهم في دينه، أو يشك في غيرته، أو يوصف بالتساهل، أو يخرج من دائرة الصالحين في نظر جماعته. لذلك يختار الموقف الأشد لا لأنه الأعدل، بل لأنه الأكثر أمانا اجتماعيا.

هذا التدين الدفاعي يجعل الإنسان قاسيا على غيره حماية لنفسه. يشتد في الحكم حتى لا يقال عنه ضعيف. يبالغ في التحذير حتى لا يقال عنه مميع. يرفض التفصيل حتى لا يقال عنه متردد. يترك الرحمة حتى لا تفسر ضده. وقد يعلم في داخله أن المسألة أوسع، وأن الحكم يحتاج إلى تثبت، وأن المخالف ليس كما يصوره الجمهور، لكنه يخاف من ثمن الإنصاف.

وهذا لون مؤلم من ضعف الحرية الداخلية. فالإنسان لا يكون عبدا لله كاملا حتى يتحرر من عبودية نظرة الناس. وقد يكون الخوف من جمهور المتدينين أشد على بعض الناس من خوفهم من ظلم المخالف. فيقدمون رضا المجموعة على عدل الشريعة، وهم لا يشعرون.

ومن علامات التدين الدفاعي أن صاحبه يكثر من العبارات التي تثبت انتماءه: نحن أهل الحق، نحن لا نجامل، نحن لا نميع، نحن لا نخاف في الله لومة لائم. وهذه المعاني قد تكون حقا إذا صدقت، لكنها قد تتحول إلى درع نفسي يحتمي به الإنسان من تهمة الجماعة.

والعجيب أن من يخاف من اتهام الناس له بالتقصير قد يقع في تقصير أعظم: تقصير العدل، وتقوى اللسان، وحفظ الأعراض، والتثبت في الأحكام.

الحسد المقنع بالغيرة الدينية

الحسد في المجال الديني من أدق الأمراض؛ لأنه قلما يعترف بنفسه. لا يقول صاحبه: أنا أحسد فلانا لأن الناس يحبونه، أو لأن الله فتح له قبولا، أو لأن أثره أوسع من أثري. بل يقول: أنا أغار على الدين، وأخشى على الناس منه، وأريد كشف حقيقته.

وقد يكون التحذير واجبا إذا كان الخطأ واضحا ومؤثرا، لكن الحسد يظهر في طريقة التعامل مع الشخص لا في مجرد نقد خطئه. يظهر في إخفاء حسناته، وتضخيم زلاته، والفرح بانخفاض منزلته، والانزعاج من ثناء الناس عليه، وتكرار الكلام عنه حتى بعد البيان، ورفض أي صيغة عادلة تقول: أخطأ وله فضل.

الحسد المقنع لا يريد تصحيح الخطأ فقط، بل يريد إزاحة الشخص من القلوب. لا يريحه أن يرجع المخطئ، بل ربما يضيق برجوعه؛ لأن الرجوع يحرم الحاسد من مادة الهجوم. لا يفرح إذا انتفع الناس به في باب صحيح، بل يرى ذلك خطرا على مشروع إسقاطه. وهنا يظهر أن القضية ليست حماية الناس من خطأ محدد، بل منافسة نفسية على المكانة.

على السوشيال ميديا يتغذى هذا الحسد بسهولة؛ لأن المنصات تعرض الفوارق أمام العين: هذا له جمهور، وهذا له تأثير، وهذا يحظى بثناء، وهذا ينتشر كلامه. فإذا كان القلب غير مزكى، تحول فضل الله على الناس إلى ألم داخلي، ثم بحثت النفس عن مخرج ديني لهذا الألم: لا بد من إسقاطه، لا بد من كشفه، لا بد من تحذير الناس منه.

وما أرقى التدين حين يجعل الإنسان يفرح بالخير حيث كان، ولو سبق إليه غيره.
وما أشد زيفه حين لا يرى الخير إلا إذا خرج من دائرته.

التعلق بالمنزلة الدينية لا بحقيقة العبادة

قد يعيش الإنسان الدين بوصفه رتبة اجتماعية لا بوصفه عبودية لله. والفرق بين الأمرين كبير. فالعبودية تجعل الإنسان منشغلا بسؤال: ماذا يريد الله مني؟ أما الهوية الصراعية فتجعله منشغلا بسؤال: من نحن؟ ومن هم؟ وكيف نثبت أننا الأصح؟

حين يتحول الدين إلى هوية صراعية، يصبح المخالف ضروريا لبقاء الشعور بالتماسك. فلا بد من عدو، ولا بد من معركة، ولا بد من حدود فاصلة، ولا بد من رموز يتم إسقاطها ورموز يتم تعظيمها. وبقدر ما تشتد الخصومة مع الخارج، يشعر الداخلون في الجماعة أنهم أكثر صفاء وصلابة.

هذا النمط يجعل الإنسان يعرف دينه بما يرفض أكثر مما يعرفه بما يحب. يعرف نفسه بأنه ضد فلان، وضد التيار الفلاني، وضد الجماعة الفلانية، وضد الفكر الفلاني. أما معاني العبادة الكبرى: الإخلاص، والرحمة، والصدق، والتوبة، وبر الوالدين، وحفظ اللسان، وخدمة الخلق، وخوف الله في السر، فتتراجع خلف معارك الهوية.

ولذلك تجد بعض الحسابات الدينية لا تكاد تعرف منها ماذا تبني، وإنما تعرف فقط من تهاجم. لا ترى مشروعا تربويا واضحا، ولا تعليما راسخا، ولا تزكية مستمرة، بل ترى سلسلة لا تنتهي من الخصومات. وهذا ليس تدينا حيا، بل هوية قلقة تحتاج إلى خصم دائم لتشعر بوجودها.

الدين الحق لا يلغي المفاصلة بين الحق والباطل، لكنه لا يجعل الخصومة مركز الروح. فالمؤمن يعرف نفسه أولا بعبوديته لله، لا بعداوته للناس. ويقيس صدقه بما أصلح من قلبه وعمله، لا بعدد من صنفهم وأسقطهم.

ضعف الرحمة وتحول المخالف إلى كائن مجرد

التدين المغشوش يفقد القدرة على رؤية الإنسان كاملا. يرى المخالف من خلال خطئه فقط، لا من خلال بشريته، وتاريخه، وجهده، وضعفه، واحتمال توبته، واحتمال اجتهاده، واحتمال جهله، واحتمال وجود خير فيه.

حين تغيب الرحمة يتحول المخالف إلى ملف، أو حالة، أو وسم، أو مادة محتوى. لا يعود إنسانا له أهل وكرامة ومشاعر وستر بينه وبين الله. يصبح قابلا للتداول والتمزيق والاستهلاك. وهنا تقع القسوة الكبرى: أن تنسى أن من تكتب عنه يقرأ، ويتألم، وربما يضعف، وربما يفتن، وربما يكون أقرب إلى الله منك بدمعة لا تعرفها.
الرحمة لا تعني تمييع الحق. هذه مغالطة يكررها القساة كثيرا. الرحمة تعني أن تقيم الحق دون أن تفقد إنسانيتك. أن ترد الخطأ دون أن تتلذذ بالإهانة. أن تحذر عند الحاجة دون أن تفتح باب التشفي. أن تقول للمخطئ: أخطأت، لكن لا تقول له بلسان الحال: لا أريد لك عودة.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن رحيما لأنه يسكت عن الباطل، بل كان رحيما وهو يرد الباطل. كانت رحمته جزءا من قوته، لا نقيضا لها. ومن ظن أن الرحمة ضعف، فقد أساء فهم القوة في الدين.

الشماتة الدينية والفرح بسقوط الناس

من أقبح صور التدين المغشوش أن يفرح الإنسان بسقوط غيره، ثم يسمي فرحه فرحا بظهور الحق. والفرق بين الأمرين دقيق لكنه عظيم. الفرح بظهور الحق عبادة، أما الفرح بانكسار الناس فمرض.

الناصح الصادق إذا أخطأ أخوه حزن، وإذا رجع فرح، وإذا ستر الله عليه شكر، وإذا احتاج البيان بين بقدر الحاجة. أما صاحب الشماتة الدينية فيبحث عن العنوان الأكثر إيلاما، والعبارة الأكثر فضحا، والتوقيت الأكثر إحراجا. لا يريد فقط أن يعرف الناس الخطأ، بل أن يروا سقوط صاحبه.

وقد تظهر الشماتة في نبرة الكتابة، في اختيار الصورة، في كثرة علامات التعجب، في تكرار النشر، في جمع العثرات القديمة، في استدعاء الجمهور للسخرية، في قول: ألم نقل لكم؟ أرأيتم؟ انكشف الآن؟ سقط القناع؟

وهنا ينبغي للإنسان أن يخاف على قلبه. فمن وجد في نفسه لذة عند فضيحة مسلم، أو سقوط داعية، أو اضطراب طالب علم، أو انكشاف عاص، فليعلم أن في قلبه مرضا يحتاج إلى توبة. لا يكفي أن تكون القضية التي يفرح بها حقيقية؛ فرب حق يقال بقلب مريض.

المؤمن يفرح بظهور الهدى، لا بتمزيق الخلق. يفرح برجوع المخطئ، لا باستحالة رجوعه. يفرح بانطفاء الفتنة، لا باتساعها. يفرح إذا ستر الله عبدا وتاب، لا إذا صار مادة للناس.

العثرات صارت محتوى

من أعظم التحولات التي صنعتها السوشيال ميديا أنها نزعت عن العثرة خصوصيتها، وحولتها إلى مادة قابلة للتداول والتعليق والسخرية والتحليل. كان الخطأ قديما قد يقع في مجلس محدود، أو في لحظة عابرة، أو أمام عدد قليل من الناس، فيجد صاحبه فرصة للتوبة والرجوع والستر. أما اليوم فقد تتحول الزلة الواحدة إلى مقطع، والمقطع إلى وسم، والوسم إلى موجة، والموجة إلى ذاكرة رقمية لا ترحم.

وهنا يختبر التدين صدقه. فليست كل عثرة يراها الإنسان حقا له في النشر، وليست كل فضيحة يسمع بها بابا للتوعية، وليست كل زلة تقع من مسلم مادة مباحة للجمهور. فالستر في الدين ليس ضعفا، ولا مداهنة، ولا خوفا من مواجهة الباطل، بل هو خلق عظيم يدل على رحمة القلب، وفقه النفس، ومعرفة خطورة الفضيحة على الفرد والمجتمع.

الستر لا يعني إلغاء الخطأ، ولا تمييع الحدود، ولا حماية المفسد من آثار فساده. لكنه يعني أن الأصل في عورات الناس ألا تكشف إلا لحاجة معتبرة، وأن الخطأ لا يتحول إلى مادة استهلاك عام إلا إذا غلبت مصلحة البيان والحماية على مفسدة النشر والتشهير. فهناك فرق بين أن تعالج الجرح، وأن تعرضه على الناس ليتفرجوا عليه.

والتدين المغشوش كثيرا ما يخلط بين البيان والفضيحة. يرى عثرة إنسان، فيسرع إلى نشرها، ثم يقول: لا بد من التحذير. وربما كانت المسألة لا تحتاج إلى تحذير عام، أو كان صاحبها قد رجع، أو كانت العبارة مبتورة، أو كان الخطأ خاصا لا

يتعدى ضرره، أو كان علاجه بالنصيحة أبلغ من نشره. لكن النفس إذا أحبت التشفي وجدت في كلمة التحذير غطاء مريحا.

والأخطر من ذلك أن بعض الناس لا يكتفي بنشر الخطأ، بل يبحث عن الصورة الأشد إيلاما، والعبارة الأكثر إثارة، والتوقيت الذي يضاعف الإحراج، والعنوان الذي يسقط صاحبه من القلوب. ثم يقول: أنا أريد توعية الناس. وقد يكون في ظاهر كلامه شيء من الحق، لكن طريقة النشر تكشف أن المقصود لم يعد حماية الدين، بل استهلاك سقوط إنسان.

إن الستر عبادة قلبية قبل أن يكون تصرفا اجتماعيا. فالساتر لا يستر لأنه لا يبالي بالحق، بل لأنه يخاف على أخيه، ويخاف على نفسه، ويعلم أن للناس عورات، وأن له عورات، وأن الله لو شاء لكشفه كما كشف غيره. ولذلك فإن من أخطر علامات قسوة القلب أن يرى الإنسان عيوب الناس مادة للتسلية، لا موضعا للخوف والاعتبار.

ومما يزيد الأمر خطورة أن المنصات تكافئ الفضيحة. فالخبر الساتر لا ينتشر، والنصيحة الهادئة لا تجذب، والتصحيح المتزن لا يشعل الجمهور. أما المقطع الفاضح، والعنوان القاسي، والعبارة المشحونة، فكلها تجد طريقها إلى الانتشار بسرعة. وهكذا يصبح الستر عملا مكلفا، لأنه يخالف طبيعة السوق الرقمي، ويقاوم شهية الجمهور، ويكسر رغبة النفس في أن تكون أول من كشف وأول من علق وأول من حذر.

لكن المتدين الراشد لا يجعل خوارزميات المنصة ميزانه. لا يسأل فقط: هل سينتشر هذا؟ بل يسأل: هل يرضى الله عن نشري له؟ هل أحقق مصلحة شرعية

أم أوسع دائرة الفتنة؟ هل أستر ما ينبغي ستره؟ هل أتكلم بقدر الحاجة؟ هل أستطيع أن أعالج الخطأ دون أن أهدم صاحبه؟ هل لو كان الخطأ خطئي أحببت أن يعاملني الناس بهذه الطريقة؟

والستر لا يكون في كل موضع. فقد يكون البيان واجبا إذا كان الخطأ عاما، أو كان صاحبه مؤثرا يضلل الناس، أو ترتب على السكوت ضرر واضح، أو تعلق الأمر بحقوق الآخرين، أو كان في الستر تمكين للظلم أو الخداع أو التلاعب. لكن حتى في هذه الحالات لا يسقط أدب الستر كله، بل يبقى قدره قائما: أن يذكر من الخطأ ما تدعو إليه الحاجة، وأن يتجنب الفضول، وأن يفرق بين حماية الناس وإهانة المخطئ، وأن يبقي باب الرجوع مفتوحا.

فليس الستر أن نخفي الحق، وليس البيان أن نهتك الناس. الستر بلا بيان حين يجب البيان مداهنة. والبيان بلا رحمة حين يمكن الستر قسوة. وبينهما يقف التدين الراشد: يحفظ الدين، ويحفظ الإنسان، ويحمي الناس من الضرر، ولا يفرح بانكشاف العورات.

ومن فقه الستر أن لا يتعامل الإنسان مع الماضي كأنه ملك للجمهور. فقد يتوب الإنسان من ذنب قديم، ثم يأتي من ينبش ماضيه ليقول: هذه حقيقته. وهذا من أبشع الظلم إذا لم تكن هناك مصلحة معتبرة؛ لأن التوبة تمحو ما قبلها، والإنسان ليس سجينا أبديا لأسوأ لحظة في حياته. ومن جعل ماضي الناس مادة دائمة لإسقاطهم، فقد أغلق أبواب الرجوع وهو يزعم حماية الدين.

ومن فقه الستر أيضا أن يفرق الإنسان بين من يخطئ مستترا، ومن يجاهر ويدعو ويؤثر. فالمستتر ينصح ويستر عليه ما أمكن. أما المجاهر المؤثر فقد يحتاج إلى

بيان خطئه بقدر أثره. لكن البيان شيء، والتلذذ بسقوطه شيء آخر. فقد يكون التحذير واجبا، ومع ذلك يكون القلب مريضا في طريقة التحذير.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان قبل أن ينشر عثرة أحد: هل هذه العثرة تخصني؟ هل يترتب على نشرها نفع واضح؟ هل توجد وسيلة أستر وأنفع؟ هل صاحبها تاب أو اعتذر أو صحح؟ هل أحتاج إلى ذكر اسمه؟ هل أذكر قدر الخطأ فقط أم أضيف إليه ما يشعل الجمهور؟ هل أريد حماية الناس أم إرضاء غضبي؟ فإن لم يجد جوابا مطمئنا، فالسلامة في الكف. فكثير من المنشورات التي تلبس ثوب الغيرة لو عرضت على ميزان الستر والعدل لانكشف أنها ليست إلا فضولا أو شماتة أو طلبا للتفاعل.

وما أحوج المتدين الرقمي إلى أن يتذكر أن الله ستير يحب الستر، وأن الستر على الناس اليوم قد يكون سببا في ستر الله عليه غدا، وأن من كان همه تتبع عورات الناس ربما عوقب بأن يفضح الله عورته ولو في جوف بيته.

فالستر ليس هروبا من الحق، بل هو حفظ للحق من أن يتحول إلى فضيحة. وليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال ينشر، ولا كل ما ينشر يكون قربة. ورب كلمة كففتها لله كانت أزكى من منشور ظننت أنك نصرت به الدين.

حين يتحول التحذير إلى تشهير

التحذير الشرعي باب معتبر لا يجوز إلغاؤه باسم اللطف، ولا تجريمه باسم الستر، ولا تصويره دائما على أنه قسوة أو شماتة. فالدين الذي يأمر بالستر يأمر كذلك بالنصيحة، وبيان الحق، وحماية الناس من الضرر، وكشف الباطل حين يتعدى أثره. وليس من الرحمة أن يترك الناس فريسة لمن يلبس عليهم دينهم أو يأكل حقوقهم أو يستغل ثقتهم.

لكن هذا الباب الشريف قد يتحول في يد النفس غير المهذبة إلى تشهير وانتقام وإسقاط. ومن هنا كانت الحاجة إلى ضبط الفرق بين التحذير المشروع والتشهير الرقمي. فليس كل تحذير تشهيرا، وليس كل ستر مداهنة، وليس كل سكوت حكمة، وليس كل كلام شجاعة.

التحذير المشروع غايته حماية الناس وبيان الحق. أما التشهير فغايته، المعلنة أو الخفية، إسقاط الشخص وإيلامه وكسر صورته. التحذير يتكلم بقدر الحاجة، أما التشهير فيتوسع فيما لا حاجة إليه. التحذير يحزن لاضطرار البيان، أما التشهير يفرح بفرصة الهجوم. التحذير يبقي باب الرجوع مفتوحا، أما التشهير يغلقه بلسان الحال. التحذير يركز على الخطأ المؤثر، أما التشهير يجمع العثرات والظنون والسياقات القديمة ليصنع ملف إدانة كاملا.

وقد يكون الكلام في أصله صحيحا، لكنه يخرج من نفس مريضة فيتحول أثره. فالحق إذا قيل بقلب قاس قد يجرح أكثر مما يهدي، وإذا قيل بقصد الانتقام قد يفقد بركته، وإذا قيل طلبا للتفاعل قد يتحول إلى سلعة في سوق الغضب. لذلك

لا يكفي أن يسأل الإنسان: هل ما أقوله صحيح؟ بل لا بد أن يسأل: لماذا أقوله؟ ولمن أقوله؟ وبأي قدر؟ وبأي أسلوب؟ وما الأثر المتوقع من قوله؟

ومتى يكون التحذير واجبا أو مشروعا؟ يكون كذلك حين يكون الخطأ عاما مؤثرا، أو تكون هناك شبهة تنتشر بين الناس، أو شخص يستغل مكانته للإضرار بالآخرين، أو خطاب يلبس على العامة، أو سلوك يتكرر ويهدد حقوق الناس أو دينهم أو أمنهم النفسي والاجتماعي. في هذه المواضع قد يكون السكوت خطأ، وقد يكون الستر على المتعدي إعانة له على استمرار الضرر.

لكن حتى عند وجوب التحذير، يبقى التحذير مقيدا بالعلم والعدل والقدر. لا يجوز أن يضاف إلى الخطأ ما ليس منه، ولا أن تفسر النيات بغير بينة، ولا أن تستباح الحسنات كلها بسبب زلة، ولا أن يوسع الكلام حتى يدخل فيه ما لا علاقة له بالمصلحة. فالتحذير ليس تصريحا مفتوحا لهتك الإنسان، بل أمانة ثقيلة يؤديها الإنسان وهو خائف من الله.

ومن أخطر علامات تحول التحذير إلى تشهير أن يصبح الشخص أهم من الخطأ. فيبدأ الكلام ببيان مسألة، ثم ينتهي إلى تتبع حياة الإنسان، وملامحه، ونبرته، ونياته، وعلاقاته، وماضيه، وكل ما يمكن أن يستخدم ضده. عندئذ لا يعود الهدف حماية الناس من خطأ محدد، بل صناعة صورة كاملة للخصم بوصفه شرا محضا.

ومن علاماته أيضا أن يستمر الهجوم بعد تحقق المقصود. فقد صحح الخطأ، أو اعتذر صاحبه، أو تبين للناس موضع الخلل، ومع ذلك يستمر النشر والتكرار والتذكير. وهذا يكشف أن النفس لا تريد البيان فقط، بل تريد إبقاء الجرح

مفتوحا؛ لأن وجود الخصم ساقطا صار جزءا من متعة الجمهور أو هوية المتصدر.

ومن علاماته كذلك الفرح بالانتشار أكثر من الفرح بزوال الضرر. الناصح الصادق يفرح إذا انطفأت الفتنة ولو قل تفاعله، أما صاحب التشهير فيفرح إذا زادت المشاهدات ولو اتسعت الفتنة. الأول يريد أن يعرف الناس الحق، والثاني يريد أن يعرف الناس أنه هو الذي كشف الباطل.

وقد يتحول التحذير إلى انتقام حين يكون بين الإنسان وبين من يحذر منه خصومة شخصية أو منافسة أو جرح قديم. هنا ينبغي أن يخاف الإنسان من نفسه جدا. فربما كان الخطأ حقيقيا، لكن دافع الكلام ليس نقاء الحق، بل ثأر النفس. ومن الورع في هذه الحال أن يتراجع الإنسان خطوة، أو يوكل البيان إلى من هو أعدل وأبعد عن الخصومة، أو يراجع نيته مرارا قبل أن يتكلم.

وليس معنى ذلك أن صاحب الخصومة لا يجوز له أن يبين حقا أبدا، فقد يظلم الإنسان ثم يحتاج إلى دفع الظلم. لكن الخطر أن تختلط نصرة الحق بحظ النفس حتى لا يعود الإنسان يميز بينهما. ومن علامات السلامة أن يقبل أن يتولى غيره البيان، وأن يفرح لو زال الخطأ دون أن يذكر اسمه، وأن يلتزم بقدر الحاجة، وأن لا يستثمر التحذير لتصفية حسابات قديمة.

ومن أخطاء المميعين في هذا الباب أنهم يجعلون كل تحذير تشهيرا. فإذا تكلم أحد عن خطأ عام قالوا: اتركوا الناس، لا تفضحوا، الدين رحمة، لا تنفروا. وربما كان السكوت هنا خيانة للأمانة. فهناك من لا يردعه إلا البيان، وهناك من لا

يحمي الناس منه إلا التحذير، وهناك خطأ إذا ترك انتشر واغتر به الضعفاء. فالستر لا يكون سترا إذا تحول إلى غطاء للضرر.

ومن أخطاء المتعصبين أنهم يجعلون كل تشهير تحذيرا. فإذا جرحوا وشتموا وتتبعوا النيات قالوا: نحن نحمي الدين. وإذا طلب منهم العدل قالوا: هذا تمييع. وإذا دعوا إلى الرفق قالوا: هذه مداهنة. وكأن حماية الدين لا تكون إلا بتحطيم الناس. وهذا فهم سقيم؛ لأن الدين لا ينتصر بالظلم، ولا يبارك الله في بيان فقد العدل.

والضابط العملي في هذا الباب أن يسأل الإنسان: هل هناك ضرر حقيقي يستدعي التحذير؟ هل أملك علما كافيا وعدلا كافيا؟ هل أذكر من الأمر ما يحقق المصلحة فقط؟ هل أحتاج إلى ذكر الاسم أم يكفي بيان الخطأ؟ هل يمكن نصح الشخص قبل النشر؟ هل أفرق بين الزلة والمنهج؟ هل أبقي باب الرجوع مفتوحا؟ هل لو رجع المخطئ سأفرح أم سأفقد مادة الهجوم؟

فإن كان المقصد حماية الناس، والوسيلة عادلة، والقدر منضبطا، والنية أقرب إلى النصيحة منها إلى التشفي، فالتحذير باب مشروع. أما إذا غلبت لذة الإدانة، وتوسعت العبارة، واشتعل الجمهور، وضاع مقصد الهداية، فقد تحول التحذير إلى تشهير ولو بقيت ألفاظه شرعية.

والتدين الراشد لا يترك الناس للباطل باسم الستر، ولا يمزق الناس باسم التحذير. بل يعرف أن البيان أمانة، والستر أمانة، والسكوت أمانة، والكلام أمانة. ومن لم يضبط قلبه قبل لسانه، ربما ظن أنه يحذر من الباطل، وهو يربي في الناس باطلا آخر: باطل القسوة والشماتة واستباحة الأعراض.

تحويل العلم الشرعي إلى أداة للهيمنة

العلم الشرعي أمانة، ومن أعظم مقاصده أن يدل الخلق على الله، وأن يرفع الجهل، وأن يهذب النفس، وأن يحرر الإنسان من عبودية الهوى. لكن بعض الناس يحول العلم إلى أداة هيمنة. لا يتعلم ليعبد، بل ليتحكم. لا يستدل ليهتدي، بل ليغلب. لا يحفظ الأقوال ليزداد ورعا، بل ليقهر بها خصومه.

هذا النمط يستعمل المصطلحات العلمية كسلاح نفسي. فإذا أراد إسكات مخالف قال: هذا جهل بالأصول. وإذا أراد احتقار عامي قال: أنت لا تفهم. وإذا أراد إغلاق النقاش قال: هذا منهج أهل الأهواء. وإذا أراد رفع نفسه قال: هذه مسائل لا يدركها إلا أهل العلم. وربما كان في كلامه قدر من الحق، لكن طريقة استعماله تكشف أن المقصود ليس التعليم، بل السيطرة.

والعلم الذي لا يصحبه أدب قد يصبح فتنة على صاحبه. فقد يعرف الإنسان كثيرا من المسائل، لكنه لا يعرف كيف يخاطب جاهلا. وقد يحفظ أقوال العلماء، لكنه لا يتخلق بحلمهم. وقد يملك قدرة على الرد، لكنه لا يملك رحمة في البيان. وقد ينتصر في النقاش، لكنه يخسر قلب المدعو.

والعجيب أن بعض الناس يظن أن إهانة الجاهل دليل على العلم، مع أن العالم الرباني يزداد صبرا على الجاهل لأنه يعرف مقدار الجهل وآثاره. أما المتعالم فيغضب لأن جهل الناس يهدد صورته لا لأنه يهدد دينهم.

اختزال الدين في المظهر ولغة الخطاب

من علامات التدين المغشوش على المنصات تضخم المظهر والخطاب على حساب الحقيقة والعمل. يظهر الإنسان بمظهر المدافع عن الدين، لكنه قد يكون ضعيفا في حقوق بيته، أو قاسيا على أهله، أو مهملا لعمله، أو ظالما في خصومته، أو سيئ الخلق مع من لا يوافقه.

ولا يعني هذا أن صاحب التقصير لا ينصح، فكلنا مقصرون. لكن الخطر أن يصبح الخطاب الديني بديلا عن إصلاح الذات. كأن كثرة المنشورات تعوض قلة الخشوع، وكأن الهجوم على المنكر العام يعفي من منكرات النفس الخاصة، وكأن إعلان الانتماء للحق يكفي عن التخلق به.

التدين الحقيقي لا يظهر في المنشور وحده، بل في لحظة الغضب، وفي الخصومة، وفي التعامل مع الضعيف، وفي قبول النصيحة، وفي رد الحقوق، وفي حفظ الغيبة، وفي الاعتذار، وفي العدل مع من لا نحب. أما التدين الذي يعلو صوته في العلن ويضعف أثره في الخلق، فهو تدين يحتاج إلى صدق ومراجعة.

ومن هنا كان أخطر سؤال لا يسأله صاحب التدين المغشوش: ماذا صنع بي ديني؟ هل جعلني أصدق؟ أرحم؟ أوفى؟ أعدل؟ أكثر حياء من الله؟ أكثر حرصا على حقوق الناس؟ أم جعلني فقط أكثر قدرة على الكلام عن الدين؟

العدوى النفسية للغضب الديني

الغضب ينتقل بين الناس كما تنتقل العدوى. قد يدخل الإنسان إلى المنصة هادئا، فيقرأ سلسلة من المنشورات المتوترة، ويسمع مقاطع التحريض، ويرى التعليقات المشتعلة، فيخرج منها محملا بغضب لم يبدأ منه. ومع التكرار يصبح هذا الغضب جزءا من مزاجه الديني.

وهذه العدوى خطيرة لأنها تصنع تدينا عصبيا. الإنسان المتدين عصبيا لا يفكر بهدوء، ولا يقرأ النص كاملا، ولا يتحقق من السياق، ولا يسأل عن صحة النقل، ولا ينتظر البيان. يكفيه أن يرى جماعته غاضبة فيغضب، وأن يرى من يثق بهم يشتمون فيشتم، وأن يرى موجة تحذير فيركبها.

وتتحول المنصة إلى مجلس صخب دائم. كل يوم قضية، وكل قضية فتنة، وكل فتنة معركة مصيرية. ومع الوقت يفقد الإنسان سلم الأولويات. لا يعود يعرف ما يستحق الغضب وما لا يستحق. كل شيء عاجل، كل شيء خطير، كل شيء تهديد للدين. وهذا يرهق النفس ويبلد القلب ويشوه العقل.

الدين لا يريد من الإنسان أن يكون باردا تجاه الحق، لكنه لا يريد منه أيضا أن يكون مشتعلا بلا بصيرة. فالنار قد تضيء، وقد تحرق. والغضب إذا لم يقده العلم صار فتنة، وإذا لم تضبطه الرحمة صار ظلما، وإذا لم يحكمه الورع صار شهوة.

التدين المجهول خلف اسم مستعار

من الظواهر التي صنعتها السوشيال ميديا أن الإنسان استطاع أن يتكلم في الناس وهو مختبئ، وأن يطعن وهو مستور، وأن يجرح وهو آمن من التبعة المباشرة. ومع هذا الاختباء ظهر لون من التدين المغشوش يمكن تسميته بالتدين المجهول؛ تدين يرفع شعارات الغيرة والحق، لكنه يمارس كثيرا من القسوة والظلم من وراء اسم مستعار أو صورة وهمية أو حساب لا يعرف صاحبه.

وليست المجهولية شرا في كل حال. فقد يحتاج بعض الناس إلى إخفاء هويتهم لحماية أنفسهم من ضرر حقيقي، أو لظروف اجتماعية أو أمنية أو مهنية، أو لنشر علم نافع دون طلب شهرة، أو للتعبير عن تجربة شخصية لا يحسن كشف صاحبها. لكن المجهولية إذا تحولت إلى باب لإطلاق اللسان في الخلق، وصناعة الاتهامات، وتفسير النيات، ونشر الظنون، صارت فتنة على صاحبها وعلى الناس.

فالاسم المستعار قد يسقط عن الإنسان كثيرا من الضوابط النفسية. في الحياة الواقعية يحسب الإنسان حساب وجهه واسمه وعلاقاته ومروءته، أما خلف الحساب المجهول فقد يشعر أنه بلا ثمن يدفعه. يكتب ما لا يجرؤ أن يقوله مواجهة، ويهين من لا يستطيع أن يناظره علنا، ويتهم من لا يملك الشجاعة أن يلقاه باسمه، ثم يسمي ذلك صدعا بالحق.

وهنا تظهر الشجاعة المزيفة. فالشجاعة الحقيقية ليست أن تجرح وأنت مختبئ، بل أن تقول الحق بعدل، وأن تتحمل مسؤولية كلمتك، وأن تضبط نفسك ولو كنت قادرا على الأذى. أما أن يلبس الإنسان قناع المجهولية ثم يطعن

في أعراض الناس، فهذا ليس شجاعة، بل جرأة بلا مروءة، وربما كان جبنا أخلاقيا متسترا بثوب الغيرة.

ومن علامات التدين المجهول أن يكثر صاحبه من الأحكام القطعية. فلان صاحب هوى، فلان مداهن، فلان ضال، فلان عميل، فلان يبحث عن الشهرة، فلان لا يريد وجه الله. وكأن خفاء اسمه منحه حق كشف قلوب الناس. ولو سئل عن الدليل جاء بظنون، ولقطات، واجتزاءات، وتحليلات نفسية لا تقوم على بينة.

ومن علاماته أنه لا يبني مشروعا نافعا، بل يعيش على تفكيك مشاريع الآخرين. لا يعرف الناس منه علما مستقرا، ولا خلقا ظاهرا، ولا جهدا تربويا، بل يعرفون منه الهجوم والتعليق والسخرية والنبش. هو لا يقدم للناس طريقا إلى الله بقدر ما يقدم لهم قائمة خصوم. فإذا سقط خصم بحث عن آخر، وإذا انطفأت قضية صنع غيرها.

ومن علاماته أيضا أن يستعمل خفاءه لحماية نفسه من المعايير التي يفرضها على غيره. يطالب الناس بالوضوح، وهو غامض. يطالبهم بالشجاعة، وهو مختبئ. يطالبهم بالاعتذار، وهو لا يعرف له اسم يعتذر به. يطالبهم بالتجرد، وهو لا يسمح لأحد أن يعرف تاريخه وبيئته وعلاقاته ومصالحه. وهذا خلل في الميزان؛ لأن من يتصدر للحكم على الناس ينبغي أن يتحمل تبعة حكمه.

وقد تصنع الحسابات المجهولة مناخا مسموما في المجال الديني؛ لأنها تستطيع أن تشعل الفتن دون مسؤولية واضحة. تلمح ولا تصرح، تسرب ولا تثبت، تحرض ولا تواجه، تجمع القصاصات وتترك للجمهور مهمة الإدانة. ثم إذا حدث الضرر

قالت: أنا فقط طرحت سؤالا، أو نقلت كلاما، أو فتحت نقاشا. وهذا من أخطر أبواب التلاعب؛ لأن السؤال أحيانا يكون طعنا مقنعا، والنقل قد يكون فتنة، والفتح قد يكون إيقادا للنار.

ومع ذلك، لا يصح أن نحكم على كل مجهول بأنه سيئ النية. فالميزان ليس الاسم وحده، بل طبيعة الخطاب. قد يكون الحساب مجهولا لكنه مؤدب، نافع، لا يطعن في الأشخاص، ولا يفسر النيات، ولا يعيش على الفتنة. وقد يكون الحساب معروفا وصاحبه ظالم قاس. لكن المجهولية تزيد خطر الانفلات، وتحتاج إلى ورع مضاعف؛ لأن من قل رقيب الناس عليه وجب أن يعظم رقيب الله في قلبه .

والتدين الصادق خلف الاسم المستعار يظهر في أمور: أن يتكلم الإنسان بعلم، وأن يتجنب الأعراض، وأن لا يستعمل الخفاء للإيذاء، وأن يفرق بين نقد الفكرة والطعن في الشخص، وأن لا يفتح باب اتهام لا يملك عليه بينة، وأن يكون مستعدا لتحمل مسؤولية كلمته أمام الله ولو لم يعرفه الناس.

ومن فقه هذا الباب أن المتلقي كذلك مسؤول. فلا ينبغي أن يصدق الناس كل حساب مجهول لمجرد أنه يتكلم بلغة دينية أو يرفع شعار الغيرة. ومن السذاجة أن يجعل الإنسان حسابا لا يعرف صاحبه مصدرا لأحكامه على العلماء والدعاة والناس. فمن لا تعرف عدالته، ولا علمه، ولا ورعه، ولا خصوماته، ولا دوافعه، فخذ من كلامه بحذر، ولا تجعل ظنونه دينا في عنقك.

والضابط العملي لصاحب الحساب المجهول أن يسأل نفسه قبل النشر: هل كنت سأكتب هذا لو كان اسمي وصورتي فوق الكلام؟ هل أستطيع أن أقف أمام من أتكلم عنه وأقول له الكلام نفسه بالعدل؟ هل خفائي ضرورة أم شهوة

انفلات؟ هل أستعمل المجهولية لحماية نفسي من الظلم أم لأظلم غيري بلا تبعة؟ هل أجرح الناس لأن الحق يطلب ذلك أم لأن الحساب المجهول يغريني بما لا أجرؤ عليه في العلن؟

والضابط العملي للمتلقي أن يسأل: من هذا المتكلم؟ ما دليله؟ هل ينقل بعلم أم يلمح بظن؟ هل يبني أم يهدم؟ هل يدعوني إلى الله أم إلى خصومات لا تنتهي؟ هل لو كان الكلام صادرا ضد شخص أحبه قبلته بالسهولة نفسها؟

إن أخطر ما في التدين المجهول أنه قد يمنح النفس فرصة لتظهر أسوأ ما فيها دون أن تخاف سقوط صورتها. وهذا امتحان شديد؛ لأن حقيقة الأخلاق تظهر حين يقدر الإنسان على الظلم ولا يراه الناس. فمن اتقى الله وهو مجهول، فذلك دليل حياة قلبه. ومن أطلق لسانه لأنه مجهول، فقد كشف خفاء اسمه خفاء مرضه.

والله يعرف الاسم الذي تخفيه، والقلب الذي تكتب منه، والنية التي تختبئ خلف الألفاظ. وما كان مجهولا عند الناس ليس مجهولا عند الله.

استغلال الدين للتقرب إلى الجنس الآخر

من أخطر صور التدين المغشوش أن يتحول الدين من طريق إلى الله إلى جسر خفي للتقرب إلى الجنس الآخر. وهي صورة شديدة الخفاء؛ لأن صاحبها لا يدخل غالبا من باب الغزل الصريح، ولا من باب العبث المكشوف، بل يدخل من أبواب تبدو في ظاهرها شريفة: النصيحة، التعليم، الدعوة، تصحيح المفاهيم، شرح المسائل، متابعة الالتزام، السؤال عن الحال الإيماني، أو المساعدة على الثبات.

وهنا لا تكون المشكلة في النصيحة ذاتها، ولا في التعليم، ولا في التعاون على الخير، فهذه معان عظيمة إذا انضبطت بضوابطها. وإنما الخطر في انتقال العلاقة من مقصد شرعي واضح إلى تعلق نفسي مستتر، ثم تغليف هذا التعلق بلغة دينية تمنع صاحبه من الاعتراف بحقيقته.

قد يبدأ الأمر بسؤال ديني عابر، ثم تطول الإجابات، ثم تدخل العبارات اللينة، ثم يتكرر السؤال بلا حاجة، ثم يصبح الحديث اليومي عادة، ثم تتسع المساحة من العلم إلى الهموم، ومن الهموم إلى الأسرار، ومن الأسرار إلى الألفة، ومن الألفة إلى التعلق. وكل ذلك قد يجري تحت عنوان: أنا أنصحها، أو هي تحتاج إلى من يأخذ بيدها، أو نحن نتعاون على الطاعة، أو هو يفهمني في الدين، أو هي أفضل من كثير من الملتزمات ظاهرا.

وهذا من تلبيس النفس؛ لأن الدين الذي جاء ليحفظ القلب من أبواب الفتنة لا يصح أن يتحول إلى مفتاح للفتنة نفسها. وليس كل حديث عن الله خاليا من حظ النفس، وليس كل مجلس وعظ مأمونا من مداخل الشيطان، وليس كل علاقة بدأت بسؤال شرعي تبقى شرعية في مسارها ومآلها.

ومن علامات هذا الاستغلال أن يجد الإنسان في داخله حرصا زائدا على شخص بعينه دون غيره، وأن يفرح برسائله أكثر من فرحه بانتفاعه الحقيقي، وأن يطيل الكلام معه بما لا تقتضيه الحاجة، وأن يخصه بنوع من اللين والاهتمام لا يفعله مع غيره، وأن يضيق إذا انقطع التواصل، أو يشعر بالغيرة إذا وجد الطرف الآخر يسأل غيره، أو يتألم إذا قل اهتمامه.

هنا ينبغي أن يكون الإنسان صادقا مع نفسه. فربما لم يعد الأمر نصيحة، بل صار تعلقا. وربما لم يعد المقصد هداية الآخر، بل مؤانسته. وربما لم تعد اللغة الدينية جسرا إلى الله، بل جسرا إلى قلب إنسان.

والأخطر أن بعض الناس يستعمل هيبته الدينية أو صورته الدعوية في التأثير على الطرف الآخر. فهو لا يقترب بوصفه شخصا عاديا، بل بوصفه ناصحا، أو مربيا، أو صاحب علم، أو ذا خبرة في الطريق إلى الله. وهذه المكانة تمنحه سلطة نفسية خفية؛ لأن الطرف الآخر قد يخجل من الاعتراض، أو يفسر اهتمامه تفسيرا طاهرا، أو يظن أن قربه منه قرب من الخير.

وهذا باب شديد الخطورة؛ لأن استغلال الثقة الدينية أشد أثرا من استغلال الثقة العادية. فمن وثق في شخص بسبب دينه، ثم اكتشف أن وراء العبارات الجميلة رغبة نفسية أو عاطفية أو شهوانية، فقد لا يفقد ثقته في الشخص فقط، بل قد تضطرب ثقته في الخطاب الديني كله.

والتدين الصادق يجعل صاحبه أكثر حذرا في هذا الباب، لا أكثر تهاونا. فمن عرف ضعف النفس لم يفتح عليها أبواب التأويل. ومن عرف مداخل الشيطان لم يثق

في نفسه ثقة مطلقة. ومن صدق في نصح الناس لم يجعل النصيحة طريقا إلى التعلق بهم.

والضابط العملي هنا أن يكون التواصل بقدر الحاجة، واضح المقصد، محدود المدة، خاليا من الخصوصية غير الضرورية، بعيدا عن التوسع العاطفي، وأن يحال ما أمكن إلى قنوات عامة أو إلى من يناسب الجنس والحال. فإذا وجد الإنسان في قلبه ميلا خاصا، أو انتظارا للرسائل، أو لذة في الخصوصية، أو حزنا من الانقطاع، فليعلم أن الباب لم يعد باب نصيحة مجردة، بل دخلته النفس، وحين تدخل النفس ينبغي أن يتقدم الورع على التبرير.

استغلال الدين من أجل مصالح نفسية أو دنيوية

ليس أخطر ما في التدين المغشوش أنه يظهر بصورة غير حقيقته فقط، بل أن الدين قد يتحول عند بعض الناس إلى وسيلة لتحقيق مصالح نفسية أو دنيوية. فيستعمل الإنسان الخطاب الديني ليصل إلى نفوذ، أو مال، أو قبول، أو سلطة، أو جمهور، أو وجاهة، أو حماية من النقد، أو قدرة على التأثير في الناس.

وهذا لا يعني أن كل متصدر للدعوة طالب دنيا، ولا أن كل من انتفع الناس به متهم، ولا أن كل من له جمهور واقع في الفتنة. فالناس يحتاجون إلى العلماء والدعاة والمربين والناصحين. لكن المقصود أن النفس قد تدخل على هذا الباب من أوسع مداخله؛ لأنها تجد في الدين قوة رمزية عظيمة. فمن تكلم باسم الدين لم يتكلم باسم رأيه فقط، بل بدا كأنه يتكلم باسم الحق. ومن لبس هيئة الناصح صار الاعتراض عليه أصعب. ومن رفع شعار الثوابت صار نقده عند بعض الناس شبهة في الثوابت نفسها.

ولهذا قد يستعمل بعض الناس الدين ليحصلوا على ما عجزوا عن تحصيله بغيره. من لم يجد في نفسه كفاءة علمية أو مهنية أو اجتماعية كافية، قد يجد في التشدد أو الوعظ أو التصنيف طريقا مختصرا إلى الحضور. ومن لم يستطع أن يبني مكانة حقيقية بالعمل والخلق والإنجاز، قد يبني مكانة زائفة بالخطاب الديني الصاخب. ومن كان يحتاج إلى السيطرة، وجد في الدين لغة تمنحه حق الأمر والنهي. ومن كان يحتاج إلى الإعجاب، وجد في المنشورات الدينية جمهورا يصفق له بوصفه غيورا وصادقا وثابتا.

وهنا يتحول الدين من غاية إلى وسيلة. لا يعود الإنسان يسأل: كيف أكون عبدا صالحا؟ بل يسأل دون وعي: ماذا يمنحني التدين؟ هل يمنحني القبول؟ هل يمنحني المكانة؟ هل يمنحني النفوذ؟ هل يجعل الناس يهابونني؟ هل يجعلهم يحتاجون إلي؟ هل يجعل كلامي فوق النقد؟

ومن أخطر صور المصالح النفسية أن يستعمل الإنسان الدين ليهرب من مواجهة هشاشته الداخلية. يشعر بالقلق، فيرفع صوته على الناس. يشعر بالنقص، فيحتقرهم. يشعر بالفشل، فيحاكم الناجحين. يشعر بالضياع، فيتشبث بمنزلة دينية صلبة لا تسمح له بالسؤال والمراجعة. يشعر بالعجز، فيجد في التحريم والتصنيف والإدانة سلطة تعوض عجزه.

وقد يستعمل الدين أيضا لمصالح دنيوية مباشرة: علاقات، تبرعات، شهرة، مكاسب تجارية، نفوذ اجتماعي، أو فرص لا يحصل عليها إلا لأنه يظهر بصورة المتدين الصالح. وهنا يكون الخلل أعظم؛ لأن الدين يصبح سلما للمصلحة، لا طريقا للإخلاص.

والفيصل في هذا الباب ليس أن ينتفع الإنسان من عمله الدعوي أو العلمي مطلقا، فقد ينتفع بقدر مشروع، وإنما الفيصل في مركز القلب: هل الدين عنده أصل والمصلحة تابعة، أم المصلحة أصل والدين غلاف؟ هل إذا تعارضت المصلحة مع الحق قدم الحق؟ هل إذا خسر الجمهور بقي صادقا؟ هل إذا لم يحصل على ثناء استمر في الخير؟ هل إذا نصحه أحد قبل؟ هل إذا انكشف له خطأ رجع ولو نقصت صورته؟

من أراد النجاة في هذا الباب فليكثر من اتهام نفسه، لا من اتهام الناس. فالنفس بارعة في تحويل العبادة إلى مشروع ذاتي، وبارعة في تزيين الحظوظ الشخصية بألفاظ شرعية. وقد يظن الإنسان أنه يخدم الدين، بينما هو يخدم صورته بالدين. وقد يظن أنه يدافع عن الحق، بينما هو يدافع عن مكانته التي صنعها باسم الحق.

استغلال الدين من أجل المكانة الاجتماعية المصطنعة

هناك نمط من التدين المغشوش ينشأ عند من لا يجد لنفسه حيثية حقيقية في المجتمع: لا علم راسخ، ولا عمل معتبر، ولا إنجاز واضح، ولا خلق يأسر القلوب، ولا مشروع نافع، ولا مكانة قائمة على كفاءة. فيبحث عن طريق بديل يمنحه الاعتبار، فيجد في التدين الظاهري أو الخطاب الديني الحاد وسيلة سهلة لصناعة مكانة اجتماعية.

فبدلا من أن يبني ذاته بالعلم والعمل والصبر والإصلاح، يبنيها بالتصدر. وبدلا من أن يكتسب احترام الناس بما يقدم، يطلب احترامهم بما يدعي تمثيله. وبدلا من أن يتواضع لمحدودية قدره، يلبس ثوبا أكبر من حجمه، ويجعل من نفسه حارسا على العقول والقلوب والمناهج.

وهذه الظاهرة تظهر بوضوح على السوشيال ميديا؛ لأن المنصات جعلت صناعة المكانة أسهل من صناعة القيمة. قد لا يعرف الإنسان شيئا عميقا، لكنه يستطيع أن يتكلم بثقة. قد لا يملك مشروعا علميا، لكنه يستطيع أن يعلق على مشاريع العلماء. قد لا يحسن بناء فكرة، لكنه يحسن هدم أصحاب الأفكار. قد لا يعرف أبواب الفقه، لكنه يعرف عبارات التخوين والتبديع والتحذير. ومع شيء من الجرأة والصوت العالي، يبدأ الجمهور في التعامل معه كأنه صاحب شأن.

ومن هنا تنشأ المكانة المصطنعة: مكانة لا تقوم على رسوخ، بل على صخب. لا تقوم على نفع، بل على إثارة. لا تقوم على علم، بل على ادعاء امتلاك الميزان. وهذه المكانة تكون هشة جدا؛ لذلك يدافع عنها صاحبها بعنف. لأنه في داخله يعلم أنها ليست ثابتة، وأن أي مراجعة حقيقية قد تكشف فراغها.

ولهذا تجد بعض أصحاب هذا النمط يكرهون الأسئلة الهادئة، ويضيقون بالنقد العلمي، ويهربون من التفصيل، ويعوضون ضعف الحجة بشدة العبارة. لأنهم لا يريدون نقاشا يكشف مقدارهم الحقيقي، بل يريدون جمهورا يثبت لهم الصورة التي صنعوها عن أنفسهم.

والأخطر أن هذا النوع قد يجعل من الدين درعا ضد المساءلة. فإذا سألته عن الدليل اتهمك بضعف الغيرة. وإذا راجعته في ظلمه قال: أنت تدافع عن أهل الباطل. وإذا طلبت منه الإنصاف قال: هذا زمن لا يحتمل التميع. وإذا أشرت إلى جهله قال: المهم سلامة المنهج. وهكذا يتحول الدين إلى حصانة زائفة تمنع الناس من رؤية الخلل.

لكن الدين لا يمنح الإنسان مكانة حقيقية بمجرد الكلام باسمه. المكانة في الدين تبنى بالصدق، والعلم، والعمل، والخلق، والصبر، وخدمة الناس، وخوف الله في السر، والعدل مع الخصوم. أما من جعل الدين قناعا لتعويض فراغه الاجتماعي، فقد ينجح في خداع الجمهور زمنا، لكنه لا يخدع الله، ولا يخدع نفسه إلى النهاية.

ومن رحمة الله بالعبد أن يعرف قدره، وأن لا يطلب بالدين ما لم يعطه الله له من المكانة. فمن لم يكن عالما فليتعلم، ومن لم يكن مربيا فلا يتصنع التربية، ومن لم يكن أهلا للفتيا فليحذر من الجرأة، ومن لم يكن صاحب مشروع فليبدأ بالبناء الصامت. فالمكانة التي تأتي من الصدق بطيئة لكنها ثابتة، أما المكانة التي تأتي من الادعاء فسريعة لكنها قلقة، تحتاج كل يوم إلى معركة جديدة كي تبقى.

الرخصة الأخلاقية باسم الدين

من أخطر الآفات النفسية في التدين المغشوش أن يمنح الإنسان نفسه رخصة أخلاقية باسم الدين. فهو لا يرى نفسه مطالبا بالعدل والرحمة والورع كما يطالب بها غيره؛ لأنه يظن أن وقوفه في صف الحق يمنحه استثناء خاصا من بعض أخلاق الحق.

في هذه الحالة يقول بلسان الحال: لأنني أدافع عن الدين، يحق لي أن أغلظ بلا حدود. ولأنني أحمي العقيدة، يحق لي أن أسيء الظن. ولأنني أحذر من الباطل، يحق لي أن أفضح وأشهر وأجرح. ولأن خصمي منحرف أو مخطئ، فلا يستحق مني إنصافا كاملا.

وهذه من أخطر صور خداع النفس؛ لأن الدين لا يسقط الأخلاق عن صاحبه حين يدافع عنه، بل يزيده مطالبة بها. فالذي يتكلم باسم الحق أولى الناس أن يخاف من الظلم، والذي يرفع شعار السنة أولى الناس أن يتأدب بأخلاقها، والذي يحذر الناس من الانحراف أولى الناس أن يحذر من انحراف قلبه ولسانه.

والرخصة الأخلاقية تجعل الإنسان يرى حسناته السابقة أو مواقفه الصلبة مبررا لتجاوزاته اللاحقة. كأنه يقول لنفسه: يكفيني أنني أنصر الدين، فلا يضر بعد ذلك شيء من حدة أو قسوة أو ظلم. وهكذا تتحول بعض الأعمال الصالحة في يده إلى غطاء نفسي يمنعه من التوبة من أخطائه.

ومن علامات هذا النمط أن صاحبه إذا نوقش في أسلوبه لا يراجع نفسه، بل يذكرك بقضيته. فإذا قلت له: ظلمت، قال: أنا أدافع عن الحق. وإذا قلت له:

قسوت، قال: هذا زمن لا يحتمل اللين. وإذا قلت له: لم تنصف، قال: أتريدون تمييع الدين؟ وكأن شرف القضية يعفي صاحبها من شرف الوسيلة.

والحق أن نصرة الدين لا تكون بخيانة أخلاق الدين. ومن ظن أنه يستطيع أن يخدم الحق بالظلم، أو يحمي السنة بسوء الخلق، أو ينصر الشريعة بانتهاك مقاصدها، فقد وقع في تناقض عميق؛ لأن الوسيلة الفاسدة تلوث المعنى الشريف ولو كان العنوان صحيحا.

التنافر المعرفي الديني

من الآفات النفسية التي تظهر في التدين المغشوش ما يمكن تسميته بالتنافر المعرفي الديني؛ وهو أن يعيش الإنسان فجوة واضحة بين ما يقوله وما يفعله، وبين الصورة التي يقدمها عن نفسه والحقيقة التي يعرفها من داخله، ثم لا يملك الشجاعة للاعتراف بهذه الفجوة.

قد يتحدث كثيرا عن الإخلاص وهو شديد التعلق بالثناء. وقد يحذر من الكبر وهو لا يقبل مراجعة أحد. وقد يهاجم أهل الشهرة وهو أسير لشهرته. وقد يكثر من الكلام عن الورع وهو قليل الورع في أعراض الناس. وقد يدعو إلى التواضع وهو يتعامل مع المخالفين من مقام علوي.

هذه الفجوة تؤلم النفس لو واجهتها بصدق. لذلك تلجأ النفس إلى التبرير. تقول لصاحبها: أنت لا تحب الشهرة، لكن الناس هم الذين نشروك. أنت لست قاسيا، لكن المرحلة تحتاج إلى شدة. أنت لا تظلم، لكن هؤلاء لا يستحقون الإنصاف. أنت لا تتكبر، لكنك تعرف الحق أكثر منهم. أنت لا تنتقم لنفسك، بل تغار لله.

وهكذا لا يعالج الإنسان تناقضه، بل يزينه. لا يتوب من الخلل، بل يغير اسمه. لا يقول: في قلبي حظ نفس، بل يقول: هذه حمية للحق. لا يقول: جرحت فلانا، بل يقول: كشفت باطله. لا يقول: فرحت بسقوطه، بل يقول: فرحت بظهور الحقيقة.

والتدين الصادق يبدأ حين يملك الإنسان شجاعة الاعتراف بهذه الفجوة. حين يقول: ربما دخلتني نفسي. ربما خلطت بين غضبي لله وغضبي لنفسي. ربما قسوت أكثر مما ينبغي. ربما نشرت ما كان ينبغي ستره. ربما انتصرت في النقاش وخسرت شيئا من قلبي.

أما من أغلق باب المراجعة على نفسه، فسيظل ينتج تبريرات دينية لأمراضه النفسية، حتى لا يبقى من الدين في داخله إلا اللغة، بينما تغيب حقيقته من القلب.

الارتياب الديني وعقلية المؤامرة

هناك نمط آخر من التدين المغشوش يقوم على الارتياب الدائم. صاحبه لا يتعامل مع الخلافات بوصفها اختلافا في الفهم أو الاجتهاد أو التقدير، بل يراها غالبا مؤامرات خفية، واختراقات متعمدة، وحروبا مقصودة على الدين.

فإذا خالفه أحد في مسألة قال: وراءه مشروع. وإذا راجعه أحد في أسلوبه قال: يريدون إسكات أهل الحق. وإذا أنصف مخالفا اتهموه بالتمييع. وإذا دعا إلى الرحمة قالوا: هذه بداية التنازل. وإذا طالب بالتثبت قالوا: هذا تخذيل عن نصرة الدين.

وهذه العقلية تريح صاحبها من عبء الفهم؛ لأن تفسير المؤامرة أسهل من دراسة الحجة. وهي تريحه من مراجعة نفسه؛ لأن كل نقد يوجه إليه يصبح دليلا على أنه مستهدف. وتريحه من الاعتراف بالخطأ؛ لأن الخطأ لا يعود خطأ، بل جزءا من معركة كبرى لا يجوز فيها إضعاف الصف.

وعقلية الارتياب إذا سيطرت على الخطاب الديني جعلت المجتمع يعيش في حالة طوارئ دائمة. كل كلمة تهديد، وكل مخالفة اختراق، وكل اختلاف فتنة، وكل نصيحة مؤامرة. ومع الوقت تضيق مساحة الأمان، فلا يتكلم عاقل، ولا ينصح محب، ولا يراجع منصف، لأن الجميع يخاف أن يصنف ضمن أعداء الدين.

والفرق كبير بين الوعي بالمخاطر وبين الارتياب المرضي. الوعي يجعل الإنسان حذرا بلا ظلم، أما الارتياب فيجعله ظالما باسم الحذر. الوعي يطلب الدليل، أما

الارتياب يكتفي بالظن. الوعي يفرق بين المخطئ والمتآمر، أما الارتياب يجعل الجميع في قفص الاتهام.

ومن لم يضبط غيرته بالعلم والعدل، قد يتحول خوفه على الدين إلى خوف من الناس، ثم يتحول خوفه من الناس إلى سوء ظن عام، ثم يتحول سوء الظن إلى عدوان يراه صاحبه يقظة إيمانية.

عقدة المنقذ الديني

من الآفات الدقيقة أن يتوهم الإنسان أنه المنقذ الذي لولاه لضاعت الأمة، وأنه الحارس الأخير على الدين، وأن الناس في حاجة دائمة إلى صوته وتحذيره وتصنيفاته. وهذه ليست غيرة مجردة، بل تضخم خفي في الشعور بالدور.

صاحب عقدة المنقذ لا يرى نفسه مجرد خادم للحق، بل يرى نفسه مركزا في معركة الحق. لا يقول: أنا واحد من عباد الله أخطئ وأصيب، بل يشعر في داخله أن غيابه خطر، وأن صمته خيانة، وأن كل قضية يجب أن يضع بصمته عليها، وأن كل انحراف لا يكتمل التحذير منه حتى يتكلم هو.

وهذا الوهم يمنحه طاقة كبيرة، لكنه يسلبه التواضع. فيتكلم في كل شيء، ويدخل في كل معركة، ويظن أن عليه أن ينقذ الجميع من الجميع. ومع الوقت لا يعود يميز بين ما يقدر عليه وما لا يقدر، ولا بين ما يحسنه وما لا يحسنه، ولا بين النصيحة الواجبة وبين الحاجة النفسية إلى الشعور بالأهمية.

وقد تكون بدايته صادقة؛ يريد الخير، ويغار على الناس، ويخاف عليهم. لكن النفس قد تدخل من هذا الباب النبيل، فتجعل من الغيرة رسالة ذاتية، ومن النصيحة سلطة، ومن خدمة الدين مسرحا لتضخم الدور.

والدين لا يحتاج إلى أوصياء متضخمين بقدر ما يحتاج إلى عباد صادقين يعرفون قدر أنفسهم. فالأمة لا يحملها شخص واحد، والحق لا يتوقف على حساب واحد، والدين محفوظ بحفظ الله لا بصراخ المتصدرين. ومن عرف هذا المعنى

خف توتره، وهدأ خطابه، وعرف أن من العبادة أحيانا أن يتكلم، ومن العبادة أحيانا أن يصمت.

السادية الأخلاقية والتلذذ بالعقاب

الشماتة هي الفرح بسقوط المخالف، أما السادية الأخلاقية فهي أعمق من ذلك؛ إنها التلذذ بإطالة ألمه، واستمرار ملاحقته، وحرمانه من فرصة الرجوع، وجعل عقوبته النفسية والاجتماعية جزءا من متعة الانتصار.

صاحب هذا النمط لا يكتفي بأن يقال عن المخطئ إنه أخطأ، بل يريد أن يراه الناس مهانا. لا يكفيه أن يعتذر، بل يلاحقه بعد الاعتذار. لا يكفيه أن يتراجع، بل يذكره بماضيه كلما حاول النهوض. لا يكفيه أن يحذر الناس من خطئه، بل يريد أن يحترق اسمه كله في الوعي العام.

وهذه القسوة قد تلبس لباس العدل، لكنها في حقيقتها رغبة في العقاب. وقد تتكلم بلغة حماية الدين، لكنها تخفي لذة السيطرة على مصير إنسان. ولذلك تجد صاحبها يرفض كل باب للترميم: لا يقبل اعتذارا، ولا يحترم توبة، ولا يفرق بين خطأ قديم ورجوع جديد، ولا يفرح بانطفاء الفتنة؛ لأنه لا يريد للمعركة أن تنتهي.

والتدين الصادق لا يلغي العقوبة المعنوية عند الحاجة، ولا يمنع التحذير المنضبط، لكنه لا يتلذذ بالعقاب. فالمؤمن حين يضطر إلى الشدة يتألم لها، ولا يجعلها متعة. وحين يرى المخطئ يرجع، يفرح برجوعه، لا يشعر أن الرجوع أفسد عليه لذة الانتصار.

ومن وجد في قلبه رغبة في استمرار سقوط إنسان، أو ضيقا من توبته، أو ألما من عودة الناس إلى قبول عذره، فليعلم أن القضية تجاوزت الغيرة إلى مرض في القلب. فالحق لا يحتاج إلى قلب يتلذذ بعذاب الخلق.

الهروب الروحي من الجراح الشخصية

قد يستعمل بعض الناس الدين لا لمواجهة النفس، بل للهروب منها. يحمل الإنسان جراحا قديمة، أو شعورا بالرفض، أو ضعفا في تقدير الذات، أو فشلا اجتماعيا، أو اضطرابا عاطفيا، ثم لا يواجه هذه الجراح بصدق، بل يدفنها تحت خطاب ديني صاخب.

فيجد في التدين الصارم ما يمنحه صلابة تعوض هشاشته. ويجد في تصنيف الناس ما يصرفه عن النظر إلى ألمه. ويجد في المعارك الدينية ما يشغله عن فراغه الداخلي. ويجد في صورة الغيور القوي ما يخفي داخله المكسور.

وهنا لا يكون الدين دواء للجراح، بل غطاء عليها. والغطاء لا يشفي، بل يؤجل الانكشاف. لذلك قد ترى صاحب هذا النمط شديدا في العلن، لكنه مضطرب في الداخل. يملك لغة قوية، لكن قلبه غير مطمئن. يكثر من الحكم على الناس، لكنه لا يعرف كيف يجلس مع نفسه. يحارب انحرافات الخارج، لكنه لا يملك شجاعة مواجهة خوفه وحزنه واحتياجه.

والدين الحق لا يطلب من الإنسان أن ينكر ألمه، بل أن يذهب به إلى الله بصدق. لا يطلب منه أن يتصنع القوة، بل أن يعترف بضعفه بين يدي ربه. لا يطلب منه أن يعالج هشاشته بإيذاء الناس، بل أن يعالجها بالتوبة، والدعاء، والمصارحة، وطلب العون، ورد المظالم، وتزكية القلب.

ومن أخطر ما يقع فيه الإنسان أن يجعل من تدينه درعا يمنعه من الاعتراف بحاجته إلى الإصلاح النفسي والروحي. فليس كل ألم يعالج بالهجوم على الناس،

وليس كل فراغ يملأ بمعركة، وليس كل جرح يشفى بخطاب صارم. أحيانا يكون أصدق التدين أن يصمت الإنسان قليلا، ويرجع إلى نفسه، ويسأل: ما الذي أهرب منه حقا؟

التدين الانتقامي والثأر النفسي

قد يدخل الإنسان إلى الخطاب الديني من باب الهداية، وقد يدخل إليه من باب الجرح. وقد يختلط الأمران حتى لا يعود يميز بين غيرته لله وغضبه لنفسه، وبين نصرته للحق وثأره من آلام قديمة. وهنا يظهر لون شديد الخفاء من التدين المغشوش: التدين الانتقامي.

التدين الانتقامي لا يصرح بأنه انتقام. لا يقول صاحبه: أنا أريد أن أثأر ممن آذاني، أو ممن رفضني، أو ممن سبقني، أو ممن خالفني، أو ممن يذكرني بجرح قديم. بل يقول: أنا أغار على الدين، أنا أحمي الناس، أنا أكشف الباطل، أنا لا أجامل في الحق. وقد يكون في بعض كلامه حق، لكن النفس التي تحمله قد تكون مشحونة بثأر لم يتطهر.

فقد يحمل الإنسان جرحا من شيخ قسا عليه، فيبدأ بعد سنوات حربا على كل من يشبه ذلك الشيخ. وقد يجرحه مجتمع متدين بتصرفات خاطئة، فيتحول خطابه إلى انتقام من التدين كله أو من صورة معينة منه. وقد يرفضه تيار، فيجعل عمره في إسقاط هذا التيار. وقد يتفوق عليه شخص في القبول أو العلم أو المكانة، فيلبس حسده ثوب الغيرة. وقد يتألم من ظلم حقيقي، لكنه لا يعالج ظلمه بالعدل، بل يحوله إلى رخصة مفتوحة للقسوة.

والجرح لا يبرر الظلم. نعم، قد يفسر بعض القسوة، لكنه لا يزكيها. وقد يكون الإنسان مظلوما في أصل قصته، لكنه يتحول بعد ذلك إلى ظالم حين يجعل ألمه ميزانا للحكم على الناس. فليس كل من يشبه من آذاك ظالما، وليس كل من ينتمي

إلى بيئة جرحتك مسؤولا عن جرحك، وليس كل مخالفة لك امتدادا لذلك الألم القديم.

من علامات التدين الانتقامي أن صاحبه لا يكتفي بتصحيح الخطأ، بل يريد إيلام صاحبه. لا يريحه أن يعتذر المخطئ، بل يريحه أن ينكسر. لا يفرح برجوعه، بل يضيق إذا وجد له الناس عذرا. لا يبحث عن علاج الفتنة، بل عن بقاء نارها مشتعلة حتى يرى من يكره محترقا بها. وهذه ليست غيرة نقية، بل ثأر نفسي بلغة دينية.

ومن علاماته أن تتكرر موضوعاته حول نوع واحد من الخصوم. دائما يهاجم الفئة نفسها، المدرسة نفسها، النمط نفسه، الأشخاص الذين يشبهون بعضهم. قد يكون عند هؤلاء أخطاء حقيقية، لكن تكرار الهجوم، وحرارة الانفعال، وغياب العدل، وكراهية الاعتراف بأي فضل لهم، كلها تشير إلى أن القضية ليست علمية فقط، بل نفسية أيضا.

ومن علاماته أيضا أنه يفرح بأي مادة تؤكد حكمه السابق. لا يفتش عن الحقيقة، بل يفتش عما يدعم غضبه. فإذا ظهر خطأ صغير قال: ألم أقل لكم؟ وإذا ظهرت شبهة قال: هذا ما كنت أحذر منه. وإذا ظهر خير عند خصمه تجاهله؛ لأنه يزعج صورة العدو التي يحتاج إليها. فهو لا يريد أن يرى الإنسان كاملا، بل يريد أن يراه دليلا على صحة جرحه.

والتدين الانتقامي قد يظهر في اتجاه التعصب كما يظهر في اتجاه التمييع. فالمتعصب قد ينتقم من مجتمع يراه مائعا بأن يسحق الناس باسم الغيرة. والمميع قد ينتقم من قسوة تعرض لها بأن يهدم كل حزم ويسميه رحمة. كلاهما

لا ينطلق من ميزان صاف، بل من رد فعل جريح. أحدهما يقول: لن أسمح للناس أن يميعوا كما آذوني. والآخر يقول: لن أسمح للحزم أن يعود لأنه يشبه من جرحني.

والخطر أن الألم يمنح صاحبه شعورا أخلاقيا زائفا. لأنه تألم، يظن أنه أصدق من غيره. لأنه ظلم، يظن أنه لا يظلم. لأنه اكتوى، يظن أن له حقا في إحراق الآخرين. وهذا من مكر النفس. فالمظلوم قد يظلم، والمجروح قد يجرح، ومن ذاق القسوة قد يصبح قاسيا إذا لم يزكه الألم.

والعلاج ليس إنكار الجراح ولا مطالبة الناس بأن ينسوا آلامهم. فبعض الجراح حقيقية، وبعض القسوة الدينية الواقعة على الناس تحتاج إلى اعتراف ومراجعة، وبعض البيئات الدعوية والتربوية أخطأت فعلا في حق أفراد. لكن تحويل الجرح إلى مشروع انتقام لا يشفيه، بل يجعله يتناسل. فالذي ينتقم باسم الدين لا يخرج من ألمه، بل يوسعه في العالم.

ومن علامات الشفاء أن يستطيع الإنسان أن يقول: لقد تألمت، لكن ألمي ليس دليلا وحده. جرحي يفسر حساسيتي، لكنه لا يعطيني حق الظلم. تجربتي مهمة، لكنها ليست ميزان الدين كله. من آذاني يمثل نفسه، وربما يمثل خللا في بيئته، لكنه لا يختصر الحق. وأنا مطالب أن أطلب العدل، لا أن أستبدل ظلما بظلم.

ومن علامات الشفاء أيضا أن يستطيع الإنسان أن يفرق بين من آذاه ومن يشبهه، وبين الفكرة وأصحابها، وبين الخطأ والمنهج، وبين النقد والانتقام. وأن يقبل وجود الخير فيمن خالفه، والشر فيمن وافقه، والحق فيمن لا يحب، والخطأ

فيمن يحب. عندها يبدأ الدين في تزكية الجرح بدلا من أن يستعمله الجرح لتبرير نفسه.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان قبل أن يهاجم أو يحذر أو يكتب: هل هذا الكلام خارج من علم أم من ألم؟ هل أريد إصلاح الخطأ أم إيلام من يذكرني بجرحي؟ هل لو زال الضرر ورجع المخطئ سأهدأ؟ هل أستطيع أن أذكر له حسنة؟ هل أستطيع أن أقبل أن يتولى غيري الرد؟ هل غضبي هنا لله أم لكرامتي المجروحة؟

فإن وجد أن قلبه لا يهدأ إلا حين يرى خصمه مهانا، فليعلم أنه يحتاج إلى توبة لا إلى منشور جديد.

إن الغيرة الصادقة تطهر الغضب، أما التدين الانتقامي فيقدسه. الغيرة الصادقة تريد هداية الناس، أما الانتقام فيريد تصفية الحساب. الغيرة الصادقة تضبطها الرحمة، أما الانتقام فيكره الرحمة لأنها تحرم النفس من لذة الثأر. ومن هنا كان أخطر ما في التدين الانتقامي أنه يجعل الإنسان يظن أن ألمه عبادة، وأن غضبه وحي، وأن قسوته عدل.

والدين جاء ليشفي الجراح، لا ليحولها إلى أسلحة. جاء ليهذب الغضب، لا ليمنحه أسماء شرعية. جاء ليجعل الإنسان أعدل ممن ظلمه، لا نسخة أخرى منه بثوب مختلف.

ومن صدق مع الله، عرض جرحه على الوحي ليداويه، لا ليستعمل الوحي في ضرب من يذكره بجرحه. فالحق لا يكون ثأرا، والدعوة لا تكون انتقاما، والغيرة لا تكون نقية حتى تتحرر من حظ النفس.

ومن لم يشف جرحه، فليحذر أن يجعله منهجا.

الألتراس وحجاب عن الحق

كما قد يفتن الإنسان بشخص حتى يجعله معيارا للحق، قد يفتن بحزب أو تيار أو مدرسة أو صفحة أو دائرة فكرية حتى تصبح هي الحجاب بينه وبين الدليل. لا يسأل: ماذا قال الله ورسوله؟ ولا يسأل: أين الحق والعدل؟ بل يسأل أولا: ماذا يقول جماعتنا؟ ما موقف تيارنا؟ من معنا ومن ضدنا؟ وهل هذا الكلام يخدم صورتنا أم يضعفها؟

وهذا من أدق أبواب التدين المغشوش؛ لأن الانتماء إلى جماعة صالحة أو مدرسة علمية أو بيئة دعوية قد يكون عونا على الخير، وحفظا للإنسان من التشتت، وتربية له على معاني الدين. لكن الخطر يبدأ حين يتحول الانتماء من وسيلة إلى غاية، ومن صحبة تعين على الحق إلى عصبية تحجب عنه، ومن إطار للتعاون إلى هوية تمنع المراجعة.

الاتجاهات المذهبية في أصلها لا تعصم صاحبها من الهوى. قد يكون الإنسان فردا متعصبا، وقد يكون متعصبا باسم جماعة. وقد يعبد صورته الفردية، وقد يعبد صورة جماعته. بل إن التعصب الجماعي أشد أحيانا؛ لأن الإنسان يشعر أنه لا يدافع عن نفسه وحده، بل عن تاريخ ومشايخ ورموز وأتباع ومنزلة. وهنا يصعب الرجوع؛ لأن الاعتراف بالخطأ لا يبدو اعترافا شخصيا فقط، بل يبدو خيانة للجماعة.

ومن علامات تقديس المذهب أن يصبح الخطأ إذا صدر من الداخل اجتهادا، وإذا صدر من الخارج انحرافا. وأن يصبح النقد إذا وجه للآخرين نصيحة، وإذا وجه للجماعة طعنا وتشويها. وأن تصبح الرحمة بالموافق فقها، والرحمة

بالمخالف تمييعا. وأن يصبح التشدد من جماعتنا غيرة، والتشدد من غيرنا غلوا. واللين من جماعتنا حكمة، واللين من غيرنا مداهنة.

ومن علاماته أن يتوقف عقل الإنسان عند حدود الانتماء. لا يقرأ إلا لمن يشبهه، ولا يسمع إلا لمن يؤكد ما استقر في جماعته، ولا يثق إلا بمن تزكيه الدائرة، ولا يفرح بالحق إذا جاء من خارجها. فإذا ظهر فضل عند غيرهم قللوا منه، وإذا ظهر خطأ عندهم دفنوه أو برروه. وهكذا لا يعود الحق هو القبلة، بل المذهب.

ومن علاماته كذلك الخوف من مخالفة الداخل أكثر من الخوف من مخالفة الحق. قد يرى الإنسان أن موقف مذهبه أو مدرسته الفقهية أو جامعته التي درس فيها غير عادل، أو أن خطابها قاس، أو أن تصنيفها لشخص ما فيه ظلم، لكنه يسكت لأنه يخاف أن يفقد مكانته بينهم. وربما شارك في الظلم وهو يعلم ضعفه، لا اقتناعا به، بل خوفا من العزلة. وهذا لون من عبودية وتحزب يناقض كمال العبودية لله.

وقد تكون المجموعة التي ينتمي اليها صغيرة جدا: مجموعة واتساب، أو دائرة تعليقات، أو صفحة مشهورة، أو تيار رقمي، أو جمهور حول مؤثر. وليست العبرة بالحجم، بل بالأثر. فكل دائرة تمنعك من العدل، وتخيفك من الإنصاف، وتجعلك تردد قبل أن تفكر، وتحاكم الناس بانتمائهم لا بحججهم، فهي قابلة أن تصبح حجابا عن الحق.

والعجيب أن كل مجموعة متعصبة غالبا ترى نفسها مظلومة ومحاربة ونقية ومخلصة. وهذا الشعور ليس باطلا دائما، فقد توجد جماعات مظلومة فعلا، وقد يحارب أهل الحق. لكن الخطورة أن يتحول شعور المظلومية إلى حصانة

من النقد. فكل مراجعة تصبح خدمة للخصوم، وكل نصيحة تصبح تفريقا للصف، وكل إنصاف للمخالف يصبح ضعفا في الولاء.

والدين الراشد لا يلغي الانتماء، لكنه يضعه في موضعه. يجعل الاجتماع طريقا إلى التعاون على البر والتقوى، لا بديلا عن الدليل والعدل. يحب الصالحين، لكنه لا يقدسهم. ينتفع بالمدرسة، لكنه لا يحبس الحق فيها. يفرح بفضل جماعته، لكنه لا ينكر فضل غيرها. ينصح الداخل قبل الخارج، لأن القريب أولى بالنصيحة، لا لأنه مستثنى من المحاسبة.

ومن علامات صحة الانتماء أن يزيدك اجتماعك مع الصالحين تواضعا وإنصافا، لا تعاليا وانغلاقا. أن تعلمك كيف ترى أخطاءك، لا كيف تبررها. أن تعينك على الرجوع إلى الحق، لا أن تجعل الرجوع عارا. أن تفرح إذا أصاب غيرك، لا أن تضيق بفضله. أن تقول لك: اتبع الدليل ولو خالفنا، لا أن تقول لك بلسان الحال: نحن الدليل.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان نفسه: هل أستطيع أن أخالف مجموعتي إذا ظهر لي الحق؟ هل أستطيع أن أعترف بخطأ من أحب؟ هل أستطيع أن أفرح بصواب من يخالفنا؟ هل أستعمل المعايير نفسها مع الداخل والخارج؟ هل أخاف من كلام جماعتنا أكثر من خوفي من الله؟ هل صار الانتماء يعلمني العدل أم يعلمني الدفاع التلقائي؟

فإن وجد الإنسان نفسه لا يرى إلا بعين الجماعة، ولا يغضب إلا لغضبها، ولا يهدأ إلا إذا هدأت، ولا يحكم إلا بعد أن يعرف موقفها، فليعلم أن في قلبه حجابا

يحتاج إلى رفع. فالجماعة الصالحة لا تلغي بصيرة الفرد، بل توقظها. ولا تأخذ مكان الحق، بل تدل عليه.

ومن جعل مجموعته فوق المراجعة، فقد جعلها في موضع لا يكون إلا للوحي. ومن جعل الانتماء بديلا عن العدل، فقد خان الجماعة قبل أن يخون الحق؛ لأن أعظم نصرة للجماعة أن تنصحها، لا أن تزين لها خطأها.

والحق أكبر من كل مذهب، وأوسع من كل مدرسة، وأعز من كل رمز. ومن طلب الله بصدق انتفع بالجماعة ولم يعبدها، وسار مع الصالحين دون أن يغلق عينيه، وأحب إخوانه دون أن يجعل حبهم ستارا للظلم.

آفات التمييع الديني في الجهة المقابلة للتعصب

كما أن التعصب الديني يشوه الدين حين يجعله أداة للقسوة والغلبة والتصنيف، فإن التمييع الديني يشوهه من الجهة المقابلة حين يجعله تابعا للقبول الاجتماعي، أو أسيرا للذوق العام، أو خجولا من خصوصيته، أو قابلا للتذويب في كل ثقافة غالبة.

فليس الانحراف عن الاعتدال في جهة واحدة فقط. هناك من يغلظ النصوص حتى ينفر الناس من رحمتها، وهناك من يميع النصوص حتى يفرغها من قوتها. هناك من يستعمل الدين ليعلو على الخلق، وهناك من يبدل الدين حتى يرضى عنه الخلق. وهناك من يجعل الحزم قسوة، وهناك من يجعل الرحمة إلغاء للتكليف. وكلا الطرفين لم يخضع للدين كما أنزله الله، بل أخضع الدين لحاجة نفسية كامنة: هذا لحاجة التفوق والسيطرة، وذاك لحاجة القبول والسلامة الاجتماعية.

والتمييع لا يأتي غالبا في صورة رفض صريح للدين، بل في صورة إعادة صياغته حتى يفقد حدوده. لا يقول صاحبه: أنا أترك النص، بل يقول: أنا أفهمه بروح العصر. لا يقول: أنا أخجل من الحكم الشرعي، بل يقول: ينبغي ألا نصدم الناس. لا يقول: أنا أخاف من خسارة القبول، بل يقول: الدعوة تحتاج إلى خطاب ناعم. وهذه المعاني قد تكون صحيحة إذا انضبطت بالعلم والصدق، لكنها تصبح خطيرة حين تتحول إلى أدوات نفسية للهروب من الحق.

المداهنة الدينية طلبا للقبول الاجتماعي

كما أن من آفات التدين المغشوش أن يتشدد الإنسان ليصنع لنفسه مكانة داخل جماعته، فإن من آفاته كذلك أن يميع الدين ليصنع لنفسه قبولا عند الآخرين. فليست المشكلة دائما في الغلو الظاهر، بل قد تكون أحيانا في التنازل الناعم، والمداهنة المهذبة، وإعادة تشكيل النصوص حتى تبدو مقبولة في ذوق العصر، أو مرضية للجمهور، أو غير مزعجة لمن لا يريد أن يسمع من الدين إلا ما يوافق هواه.

وهذا الباب شديد الخفاء؛ لأن صاحبه لا يقدم نفسه بوصفه متنازلا عن الدين، بل بوصفه حكيما، واقعيا، منفتحا، متفهما، قادرا على مخاطبة العصر، رافضا للتشدد، مدركا لحساسية الجمهور. وهذه المعاني قد يكون فيها حق إذا انضبطت بالعلم والصدق؛ فالدعوة تحتاج إلى حكمة، والخطاب يحتاج إلى فقه، ومراعاة أحوال الناس أصل معتبر. لكن الخطر يبدأ حين تتحول الحكمة إلى تنازل، ويتحول الرفق إلى تمييع، ويتحول حسن العرض إلى تحريف للمعنى، ويتحول طلب الهداية إلى طلب القبول.

والفرق كبير بين المداراة والمداهنة. فالمداراة أن تلين في الأسلوب لتحفظ الحق وتبلغه بأحسن طريق، أما المداهنة فهي أن تلين في الحق نفسه حتى لا تخسر رضا الناس. المداراة خلق، والمداهنة ضعف. المداراة تحفظ النص وتغير طريقة عرضه، أما المداهنة فتغير معنى النص ليوافق رغبة الجمهور.

المداراة تنطلق من الرحمة بالناس، أما المداهنة فتنطلق غالبا من الخوف منهم أو الطمع في قبولهم.

ومن علامات هذا النمط أن يتحرج الإنسان من النصوص التي لا ترضي المزاج العام، فيعتذر عنها أكثر مما يشرحها، أو يخفيها أكثر مما يبينها، أو يفرغها من مضمونها حتى لا يبقى منها إلا عبارة عامة لا تؤثر في سلوك ولا تصطدم بهوى.

فإذا جاء النص آمرا أو ناهيا، حوله إلى مجرد "قيمة رمزية". وإذا جاء الحكم واضحا، جعله "رأيا تاريخيا". وإذا تكلم العلماء في باب من الأبواب، قال: هذا يناسب زمنهم. وإذا خالف الدين ذوق الجمهور، أسرع إلى إعادة تأويله حتى لا يظهر الخلاف.

وهنا لا يعود الإنسان خادما للنص، بل يصبح النص خادما لصورته الاجتماعية. لا يسأل: ماذا يريد الله منا؟ بل يسأل: كيف أجعل هذا الكلام مقبولا عند الناس؟ كيف لا أغضب الجمهور؟ كيف لا أخسر صورتي المتحضرة؟ كيف أبدو متدينا بلا أن أبدو مخالفا للثقافة السائدة؟

ومن أخطر صور المداهنة أن يتحول "الآخر" إلى مرجعية نفسية خفية. فيبدأ الإنسان يقرأ دينه بعين من يريد إرضاءهم، لا بعين من يريد معرفة الحق. قبل أن يتكلم يسأل في داخله: كيف سيراني المثقف؟ كيف سيتقبلني الجمهور الغربي؟ كيف سينظر إلي العلماني؟ كيف ستتفاعل المنصة؟ هل سيقال عني متطرف؟ هل سأفقد قبولي؟ وهكذا يصبح خوفه من التصنيف الاجتماعي أشد من خوفه من تحريف المعنى.

وهذا لا يعني أن يخاطب المسلم الناس بخشونة أو جفاء، ولا أن يتعمد الصدام، ولا أن يفرح بإثارة النفور، فهذه أيضا آفات مقابلة. وإنما المقصود أن لا يجعل

رضا الناس ميزانا للحق. فالحكمة ليست أن تقول للناس ما يحبون دائما، بل أن تقول الحق بأرحم وأعدل وأحكم طريق. والرفق ليس أن تمحو الفارق بين الحق والباطل، بل أن تبين الفارق بلا كبر ولا فظاظة.

وقد تنشأ المداهنة من حاجة نفسية عميقة إلى القبول. بعض الناس يخاف أن يكون مختلفا، أو أن يدفع ثمن انتمائه الديني، أو أن ينظر إليه باعتباره تقليديا أو متشددا أو خارجا عن الذوق السائد. فيبدأ بتقديم تنازلات صغيرة في العبارة، ثم تنازلات في المعنى، ثم تنازلات في الموقف، حتى يجد نفسه بعد زمن لا يدافع عن الدين كما هو، بل يدافع عن نسخة مخففة منه، صنعت خصيصا لتنال رضا الجمهور.

وهذه النفس قد لا تكون فاسدة في أصلها، لكنها ضعيفة أمام ضغط القبول. تريد أن تجمع بين التدين الكامل والرضا الكامل من الناس، بين النص والهوى العام، بين الولاء للحق وتجنب كلفة الحق. وهذه معادلة لا تستقيم دائما؛ لأن من طبيعة الحق أنه يحرر الإنسان من عبودية الناس، لا أن يجعله أسيرا لتوقعاتهم.

ومن علامات التمييع أيضا استعمال ألفاظ واسعة غامضة لإخفاء المعاني الواضحة. فيكثر الكلام عن "القيم"، و"الروح"، و"المقاصد"، و"الإنسانية"، و"السياق"، و"التطور"، دون أن يكون ذلك خادما لفهم النص، بل بديلا عنه. وهذه الألفاظ قد تكون نافعة إذا وضعت في موضعها، لكنها تتحول إلى أدوات تذويب حين تستعمل للهروب من الأحكام، أو لرد النصوص الصريحة، أو لإلغاء الفوارق التي أقامها الشرع.

والأخطر أن صاحب هذا النمط قد يتهم كل تمسك واضح بأنه تشدد، وكل غيرة صادقة بأنها انغلاق، وكل نص صريح بأنه يحتاج إلى إعادة قراءة، وكل اعتراض شرعي بأنه خطاب قديم. وهكذا يصبح الاتزان عنده مرادفا للتنازل، والتجديد مرادفا للتفريغ، والانفتاح مرادفا لفقدان الحدود.

ومثلما أن المتعصب يستعمل النص ليقهر الناس، فإن المميع يستعمل التأويل ليهرب من سلطان النص. الأول يحمّل النص قسوة نفسه، والثاني يجرده من قوته حتى لا يطالبه بشيء. وكلاهما لم يخضع للنص كما ينبغي؛ لأن الأول جعله سلاحا لنفسه، والثاني جعله مادة قابلة للتطويع أمام الناس.

والتدين الصادق لا يعرف هذه المداهنة. إنه يخاطب الناس برحمة، لكنه لا يكذب عليهم. يراعي أحوالهم، لكنه لا يخون النص. يحسن العرض، لكنه لا يبدل المضمون. يفرق بين ما هو قطعي وما هو اجتهادي، لكنه لا يجعل كل شيء سائلا بلا حدود. يعرف أن في الدين سعة، لكنه لا يجعل السعة بابا لإلغاء التكليف. ويعرف أن في الشريعة مقاصد، لكنه لا يجعل المقاصد سيفا على النصوص.

ومن أراد السلامة في هذا الباب فليسأل نفسه: هل أشرح النص لأقرب الناس إلى الحق، أم أغير معناه لأقرب نفسي إلى الناس؟ هل أخاف من سوء عرض الدين، أم أخاف من رفض الناس للدين نفسه؟ هل أبحث عن الحكمة، أم أبحث عن التصفيق؟ هل أريد أن أكون رحيما بالخلق، أم مقبولا عندهم بأي ثمن؟ هل أنا أزيل الشبهة عن النص، أم أزيل النص حتى لا تبقى شبهة؟

فالقبول الاجتماعي نعمة إذا جاء تابعا للصدق، لكنه فتنة إذا صار سابقا على الحق. ومن جعل رضا الناس سقف خطابه، ضاق عليه الدين حتى لا يبقى منه

إلا ما يسمح به الجمهور. أما من جعل رضا الله غايته، فإنه يتعلم كيف يقول الحق برحمة، وكيف يختلف بأدب، وكيف يثبت بلا قسوة، وكيف يلين بلا مداهنة.

عقدة القبول الاجتماعي

عقدة القبول الاجتماعي هي أن يصبح السؤال الخفي الذي يحرك الإنسان: كيف أبدو مقبولا؟ كيف أظهر لطيفا، عصريا، منفتحا، متفهما، غير صادم، غير تقليدي، غير مزعج؟ بدلا من أن يكون السؤال: كيف أكون صادقا مع الحق، رحيما بالناس، أمينا على النص، عادلا في البيان؟

وهذه العقدة لا تظهر دائما في هيئة نفاق واضح، بل قد تظهر في صورة حرص مبالغ فيه على الصورة. يريد الإنسان أن يجمع بين التدين وبين رضا الجميع عنه. يريد أن يكون متدينا بلا كلفة، ومنتميا بلا ثمن، وصاحب موقف بلا خسارة، وناصحا بلا اعتراض، ومقبولا عند المتدين وغير المتدين، وعند المحافظ والمتحرر، وعند صاحب النص وصاحب الهوى.

لكن الحق في كثير من الأحيان له كلفة. ليس لأنه قاس، بل لأنه يكشف للإنسان ما لا يحب أن يراه في نفسه. وليس لأنه ضد الناس، بل لأنه لا يجعل رغبات الناس مرجعا أعلى من مراد الله. ومن أراد دينا لا يغضب أحدا، ولا يراجع أحدا، ولا يصادم هوى أحد، فقد لا يبحث عن الدين، بل عن نسخة اجتماعية مريحة منه.

وصاحب عقدة القبول قد يبدأ بتخفيف العبارة، ثم تخفيف المعنى، ثم إخفاء الحكم، ثم تبرير مخالفته، ثم مهاجمة من يذكره. وفي كل مرحلة يقول لنفسه: أنا فقط أحسن العرض، أنا فقط أتجنب التنفير، أنا فقط أراعي الواقع. وقد يكون صادقا في بعض ذلك، لكن الخطر حين يصبح القبول هو الميزان الذي يحدد ما يقال وما لا يقال.

ومن علاماته أنه يراقب أثر كلامه في الناس أكثر مما يراقب صدقه أمام الله. فإذا رضي الجمهور اطمأن، وإذا اعترض الجمهور اضطرب، وإذا اتهمه أحد بالتشدد أسرع إلى التنازل، وإذا مدحه الناس بالانفتاح شعر أنه على الطريق الصحيح. ومع الوقت لا يعود الحق هو ما دل عليه الدليل، بل ما استطاع أن يمر اجتماعيا بلا تكلفة.

والتدين الصادق لا يتعمد صدمة الناس، لكنه لا يجعل رضاهم إلها خفيا. لا يفرح بالنفور، لكنه لا يشتري القبول بتحريف المعنى. لا يغلظ بلا حاجة، لكنه لا يذوب بلا حد. فالمؤمن مأمور أن يقول الحق بحكمة، لا أن يغير الحق حتى يبدو حكيما.

الخجل من الانتماء الديني

الخجل من الانتماء الديني ليس تركا صريحا للدين، ولا إنكارا معلنا له، بل هو ارتباك داخلي كلما ظهر الدين بخصوصيته وحدوده وتكاليفه. صاحبه قد يفتخر بالدين حين يكون حديثا عن الرحمة، والجمال، والروحانية، والعدل، والسلام، لكنه يتردد حين يكون الدين أمرا ونهيا، أو حلالا وحراما، أو تكليفا يخالف الذوق السائد.

هذا الخجل يجعل الإنسان يتمنى لو كان الدين كله قيما عامة لا تختلف عليها البشرية: الصدق، والإحسان، والرحمة، والتسامح، ومساعدة الفقير. وهذه كلها من صميم الدين، لكنها ليست كل الدين. فالدين كذلك عبادة، وامتثال، وحدود، ومجاهدة، وضبط للشهوة، وتمييز بين حق وباطل، ومواقف قد لا ترضي هوى الناس.

ومن علامات هذا الخجل أن يعتذر الإنسان عن النصوص أكثر مما يشرحها، وأن يتعامل مع بعض الأحكام كأنها عبء يحتاج إلى تبرئة، لا تكليف يحتاج إلى فهم وتسليم. فإذا سئل عن حكم لا يوافق المزاج العام، اضطرب، ودار، ولف، وربما حاول أن ينفي وجوده، أو يفرغه من مضمونه، أو يحيله إلى التاريخ، أو يتبرأ من كل من يذكره بوضوح.

والخجل من الانتماء الديني قد ينشأ من ضغط ثقافي طويل. حين يعيش الإنسان في بيئة تجعل التدين الواضح مرادفا للرجعية، والالتزام مرادفا للانغلاق، والغيرة مرادفا للتطرف، يبدأ في إخفاء معالم دينه حتى لا يوضع في هذه الخانة. ومع الوقت قد يصدق هو نفسه أن ظهور الدين مشكلة، وأن السلامة في تخفيفه.

لكن الإسلام لا يحتاج إلى أبناء يخجلون منه، كما لا يحتاج إلى أبناء يشوهونه بالغلو. يحتاج إلى من يحمله بصدق وطمأنينة، لا باستعلاء ولا بانكسار. فليس المطلوب أن يصرخ الإنسان بدينه في وجه الناس، ولا أن يحول هويته إلى خصومة دائمة، لكن المطلوب ألا يخجل من الحق إذا حضر، وألا يتبرأ من خصوصية دينه ليقال عنه إنه منفتح.

الانهزام النفسي أمام الآخر

الانهزام النفسي أمام الآخر هو أن يقرأ الإنسان دينه بعين من يريد إرضاءهم، لا بعين من يريد معرفة مراد الله. فيشعر أن النص متهم حتى يبرئه أمام الثقافة الغالبة، وأن الحكم الشرعي محرج حتى يعيد تأويله، وأن عليه دائما أن يثبت أن دينه مقبول وفق معايير الآخر.

والآخر هنا قد يكون الغرب، أو الثقافة الحداثية، أو الذوق الإعلامي، أو النخبة الاجتماعية، أو الجمهور العام، أو أي قوة رمزية يخاف الإنسان من حكمها عليه. وحين تتحول هذه القوة إلى مرجعية داخلية، يبدأ الإنسان في عرض دينه عليها قبل أن يعرض نفسه على دينه.

ومن مظاهر هذا الانهزام أن يكون الإنسان شديد الحساسية تجاه اتهامات الآخر، ضعيف الحساسية تجاه تحريفه هو لمعاني الدين. يخاف أن يقال عنه متشدد، ولا يخاف بالقدر نفسه أن يكون قد خان النص. يخاف أن يقال عنه تقليدي، ولا يخاف أن يكون قد فرغ الدين من مضمونه. يخاف أن يخسر صورته أمام الناس، ولا يخاف أن يخسر صدقه أمام الله.

والمنهزم نفسيا لا يكتفي بحسن عرض الدين، بل يعيد تشكيل الدين كله ليوافق ميزان الغالب. فإن قبلت الثقافة السائدة قيمة ما أبرزها وقال: هذا هو جوهر الدين. وإن رفضت حكما ما أخفاه أو أوله أو اعتذر عنه. ومع الزمن يصبح الدين عنده تابعا لا متبوعا، ومتهما لا حاكما، ومادة دفاع لا مصدر هداية.

وهذا لا يعني رفض الحوار مع الآخر، ولا إهمال لغة العصر، ولا تجاهل الشبهات، ولا مخاطبة الناس بما لا يفهمون. بل يعني أن الحوار شيء، والانهزام شيء آخر. الحوار أن تعرض الحق بلغة مفهومة وعقل رحيم. أما الانهزام فهو أن تغير الحق حتى يقبل به من لا يريد أن يخضع له.

النسبية الأخلاقية المطلقة

من آفات التمييع أن يذوب الفرق بين الحق والباطل بحجة أن كل إنسان له تجربته، وكل فهم محترم، ولا أحد يملك الحقيقة، ولا ينبغي الحكم على أحد، وكل طريق يؤدي إلى معنى ما. وهذه العبارات تبدو في ظاهرها رحيمة ومتواضعة، لكنها قد تنتهي إلى إلغاء معنى الهداية والضلال، والصواب والخطأ، والمعروف والمنكر.

صحيح أن الإنسان ينبغي أن يتواضع، وألا يدعي العصمة، وألا يتسرع في الحكم على الناس، وأن يدرك تعقيد التجارب البشرية. لكن هذا شيء، وإلغاء المعايير شيء آخر. فالتواضع لا يعني أن الحقيقة غير موجودة، والرحمة لا تعني أن الخطأ صار صوابا، وفهم ظروف الناس لا يعني إلغاء التكليف.

النسبية المطلقة تريح الإنسان نفسيا؛ لأنها تعفيه من كلفة الموقف. لا يحتاج أن يقول: هذا حق وهذا باطل، هذا عدل وهذا ظلم، هذا حلال وهذا حرام، هذا طريق هداية وهذا طريق فتنة. بل يكتفي بعبارات عامة ناعمة لا تغضب أحدا ولا تهدي أحدا: كل إنسان حر، كل تجربة معتبرة، كل اختيار له منطقه، المهم أن تكون صادقا مع نفسك.

لكن الدين لا يجعل صدق الإنسان مع نفسه بديلا عن صدقه مع الله. فقد يكون الإنسان صادقا في وصف هواه، لكنه ليس مصيبا في اتباعه. وقد يكون مخلصا لتجربته، لكنها تجربة تحتاج إلى تصحيح. وقد يكون جريحا يستحق الرحمة، لكن جرحه لا يحول الخطأ إلى حق.

والخطر في النسبية الأخلاقية أنها تبدو إنسانية، لكنها قد تترك الإنسان في ضياعه. فالطبيب الرحيم لا يلغي اسم المرض حتى لا يحزن المريض، بل يسميه برفق ليبدأ العلاج. وكذلك الناصح الصادق لا يلغي الخطأ حتى لا يحرج المخطئ، بل يبينه بحكمة حتى يفتح له باب الرجوع.

تديين الهوى باسم المقاصد

كما أن المتعصب قد يستعمل النصوص بانتقائية ليبرر قسوته، فإن المميع قد يستعمل المقاصد بانتقائية ليبرر تمييعه. فيرفع شعار الرحمة، أو التيسير، أو رفع الحرج، أو مراعاة الواقع، أو تحقيق المصلحة، لا ليحسن فهم النصوص، بل ليتجاوزها حين لا توافق ما يريد.

والمقاصد علم جليل، وليست تهمة. بل لا يكتمل الفقه دون فهم مقاصد الشريعة ومصالح الخلق ومآلات الأفعال. لكن الخلل أن تتحول المقاصد من أداة لفهم النص إلى أداة لإلغائه، ومن ميزان منضبط إلى مساحة سائبة يدخل منها الهوى.

فإذا جاء النص بما لا يوافق المزاج العام، قيل: المقصد هو الرحمة. وإذا جاء الحكم بما لا يوافق الرغبة، قيل: المقصد هو التيسير. وإذا وجدت الحدود الشرعية، قيل: المقصد هو الحرية. وإذا تكلم العلماء بضوابط، قيل: المقصد هو مصلحة الإنسان. وهكذا لا تعود المقاصد شارحة للنص، بل حاكمة عليه بهوى المتكلم.

ومن علامات هذا النمط أن صاحبه يذكر المقاصد العامة وينسى الضوابط الخاصة. يتكلم عن الرحمة دون أن يذكر العدل، وعن التيسير دون أن يذكر التكليف، وعن الحرية دون أن يذكر العبودية، وعن المصلحة دون أن يذكر الوحي، وعن الواقع دون أن يذكر أن الواقع نفسه يحتاج أحيانا إلى إصلاح لا إلى مسايرة.

والتدين الصادق لا يعادي المقاصد ولا يحبس الدين في ظاهرية جامدة، لكنه كذلك لا يجعل المقاصد جسرا لتديين الهوى. فالمقصد الشرعي لا يلغى به النص، ولا يستعمل ضد الوحي، ولا ينزع من منظومته الكاملة. ومن جعل المقاصد تابعة لرغبات العصر لا لهداية الوحي، فقد استبدل باسم الفقه بابا جديدا للتفلت.

تدين اللطف الزائف

اللطف خلق جميل إذا كان تابعا للحق، لكنه يتحول إلى آفة حين يصبح قيمة أعلى من الحق. عندئذ لا يعود السؤال: هل الكلام صحيح؟ بل: هل الكلام مريح؟ لا: هل هذا البيان واجب؟ بل: هل سيشعر أحد بالانزعاج؟ لا: هل هذا إنكار منضبط؟ بل: هل سيقال عنا إننا قساة؟

وهكذا يصبح كل بيان واضح قسوة، وكل إنكار تطرفا، وكل مفاصلة بين حق وباطل إقصاء، وكل نصيحة صريحة إيذاء، وكل تذكير بالتكليف حكما على الناس. ومع الوقت لا يبقى من الدين إلا ما يمكن قوله دون أن يوقظ أحدا من غفلته.

وهذا اللطف الزائف لا ينبغي أن يخلط بالرفق الشرعي. فالرفق قوة منضبطة بالرحمة، أما اللطف الزائف فهو خوف متزين بالأدب. الرفق يبلغ الحق بأحسن طريق، أما اللطف الزائف فيؤجل الحق أو يلغيه حتى لا يتألم أحد. الرفق يحفظ كرامة المخطئ، أما اللطف الزائف يلغي وجود الخطأ أصلا.

وقد ينشأ هذا النمط عند من رأى صورا قاسية من التدين، فكره القسوة حتى كره معها كل وضوح. رأى التعصب، فصار يخاف من الحزم. رأى التشهير، فصار ينفر من النصيحة. رأى الغلظة، فصار يظن أن كل بيان للحدود غلظة. وهذا رد فعل مفهوم نفسيا، لكنه غير صحيح شرعيا؛ لأن علاج القسوة ليس بإلغاء الحق، بل بإعادته إلى موضعه الرحيم العادل.

والدين ليس خشونة جافة، لكنه ليس مجاملة دائمة. فيه لطف، وفيه بيان. فيه رحمة، وفيه تكليف. فيه صبر على الناس، وفيه أمر ونهي. ومن عبد اللطف وحده، فقد يصنع دينا لا يؤذي مشاعر الناس، لكنه لا يهدي أرواحهم.

الخوف المرضي من الصدام

بعض الناس لا يميع النصوص لأنه درسها وانتهى إلى فهم معتبر، بل لأنه لا يحتمل التوتر الاجتماعي. يخاف من الصدام، يخاف من الاعتراض، يخاف من أن يغضب منه الناس، يخاف من أن يخسر علاقة، أو فرصة، أو مكانة، أو صورة صنعها لنفسه.

هذا الخوف يجعله يبحث عن دين بلا تكلفة، ومواقف بلا ثمن، وحق لا يغضب أحدا. فإذا احتاج الموقف إلى كلمة واضحة، صمت. وإذا احتاج إلى بيان، راوغ. وإذا احتاج إلى مفاصلة، تحدث عن سعة الخلاف. وإذا احتاج إلى إنكار، قال: المهم القلوب. وإذا احتاج إلى ثبات، قال: لا داعي للتصعيد.

وليس المطلوب من المسلم أن يكون صداميا، ولا أن يفتعل المعارك، ولا أن يتلذذ بالمواجهة. لكن هناك فرق بين تجنب الصدام غير الحكيم، وبين الخوف المرضي من كل كلفة. الحكمة أن تعرف متى تتكلم ومتى تسكت. أما الضعف فهو أن تسكت دائما حين يكون للكلام ثمن.

وصاحب هذا النمط قد يخدع نفسه بتسمية خوفه حكمة. يقول: أنا لا أريد الفتنة، وأنا أراعي الواقع، وأنا أختار الوقت المناسب. وربما كان هذا صحيحا أحيانا. لكن الاختبار الحقيقي: هل يأتي الوقت المناسب أبدا؟ هل يتكلم حين تهدأ العاصفة؟ هل يبين الحق في مجلس آمن؟ هل يقبل أن يخسر شيئا لله؟ أم أن كل الأوقات غير مناسبة، وكل البيئات حساسة، وكل كلمة واضحة مغامرة؟

الحق لا يطلب من الإنسان تهورا، لكنه يطلب منه شجاعة. والشجاعة ليست صراخا، بل قدرة على تحمل كلفة الصدق. ومن لم يرب نفسه على شيء من احتمال الكلفة، قد يجد نفسه يبدل دينه شيئا فشيئا لا عن قناعة، بل عن خوف.

تمييع الحدود باسم الرحمة

الرحمة من أعظم معاني الدين، لكن من آفات التمييع أن تتحول الرحمة إلى ذريعة لإلغاء الحدود. فيقال: لا تقل هذا خطأ حتى لا تجرح صاحبه. لا تقل هذا حرام حتى لا تنفر الناس. لا تذكر الحكم حتى لا يشعر أحد بالذنب. لا تبين الفرق حتى لا يضيق صدر المخالف. وهكذا لا تعود الرحمة طريقا للهداية، بل غطاء لإبقاء الناس في أماكنهم.

الرحمة الحقيقية لا تهين المخطئ، لكنها لا تكذب عليه. لا تفضحه، لكنها لا تسمي خطأه صوابا. لا تغلق عليه باب التوبة، لكنها لا تلغي حاجته إلى التوبة. لا تقسو عليه، لكنها لا تتركه يظن أن الطريق كله سواء.

أما الرحمة المزيفة فهي رحمة مريحة للناصح قبل المنصوح. لأنها تعفيه من صعوبة البيان، ومن احتمال الاعتراض، ومن ألم رؤية الآخر يتألم من الحقيقة. فيظن أنه رحيم لأنه لم يزعج أحدا، مع أنه ربما تركه في غفلته.

والإنسان قد يحتاج أحيانا إلى كلمة توقظه، لا إلى عبارة تطمئنه كذبا. يحتاج إلى من يقول له: أنت كريم عند الله، وباب الرجوع مفتوح، لكن هذا الطريق يؤذيك. يحتاج إلى من يجمع بين الحضن والمرآة؛ حضن لا يطرده، ومرآة لا تخدعه.

ومن أعظم الظلم أن نسمي إلغاء الخطأ رحمة. فالرحمة لا تعني أن نزيل اللافتات من الطريق حتى لا يحزن السائرون، بل أن نضعها بوضوح، ونضيء لهم الطريق، ونمد أيدينا لمن تعثر.

تحويل الدين إلى تجربة شعورية فقط

من صور التمييع المعاصر أن يتحول الدين إلى تجربة شعورية جميلة: طمأنينة، وسلام داخلي، وتأمل، وراحة، وطاقة إيجابية، وإحساس بالمعنى. وهذه المعاني قد تكون آثارا عظيمة للإيمان، لكنها ليست الدين كله.

فالدين ليس شعورا فقط، بل عبودية. ليس راحة داخلية فقط، بل امتثال ومجاهدة. ليس روحانية جميلة فقط، بل أمر ونهي، وحلال وحرام، وصدق وأمانة، وصلاة وصيام، وغض بصر، وكف لسان، ورد مظالم، وصبر على التكليف، ومقاومة للهوى.

حين يختزل الإنسان الدين في الشعور، فإنه يأخذ منه ما يريحه ويترك ما يربيه. يحب الذكر لأنه يطمئنه، لكنه لا يحب الأمر لأنه يلزمه. يحب الحديث عن السلام، لكنه يضيق بالحديث عن المجاهدة. يحب أن يشعر بالقرب من الله، لكنه لا يريد أن يغير نمط حياته. يحب الدين حين يمنحه دفئا داخليا، لا حين يطالبه بثمن عملي.

وهذا التدين الشعوري قد يكون مرحلة بداية نافعة لمن يعود إلى الله، لكنه يصبح خللا حين يقدم بوصفه الدين الكامل. فالإيمان لا يقاس فقط بما يشعر به الإنسان في لحظة صفاء، بل بما يصنعه هذا الصفاء في سلوكه حين يغضب، وحين يشتهي، وحين يظلم، وحين يستطيع أن يأخذ ما ليس له، وحين يختار بين رضا الله ورضا نفسه.

والتدين الصادق يجمع بين الروح والتكليف. يذوق الطمأنينة، لكنه لا يجعلها بديلا عن الطاعة. يطلب السلام الداخلي، لكنه يعرف أن بعض السلام لا يأتي إلا بعد مجاهدة صادقة. يحب جمال الدين، لكنه لا يهرب من حدوده.

الانتقائية الحداثية

الانتقائية الحداثية هي أن يقبل الإنسان من الدين ما ينسجم مع الثقافة المعاصرة، ويرد أو يؤول أو يسكت عن كل ما يصادمها. فإذا تكلم الدين عن الرحمة والعدل والكرامة، قال: هذا هو الإسلام الحقيقي. وإذا تكلم عن الحلال والحرام، أو الأسرة، أو الهوية، أو الانضباط الأخلاقي، أو مخالفة الهوى، قال: هذه قراءات تاريخية، أو اجتهادات بشرية، أو مسائل تحتاج إلى إعادة نظر.

والمشكلة ليست في مراجعة الفهم البشري، فالفهم البشري يراجع، والاجتهاد يدرس، وتنزيل الأحكام يحتاج إلى علم بالواقع. لكن المشكلة أن تكون الثقافة الحديثة هي الحاكم الأعلى، فما وافقها من الدين قبلناه، وما خالفها جعلناه مشكوكا فيه حتى يثبت العكس.

هذه الانتقائية تجعل الإنسان يتعامل مع الدين كمتجر يختار منه ما يناسب ذوقه. يأخذ الآيات التي تصلح للخطاب الإنساني العام، ويتجنب الآيات التي تذكر التكليف والحدود. يأخذ من السنة الرحمة والابتسامة، ويترك الجهاد مع النفس، والورع، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يأخذ من العلماء ما يخدم صورة الانفتاح، ويترك ما يذكره بأن للدين بنية وحدودا.

والدين ليس ضد كل جديد، ولا ضد العقل، ولا ضد الاجتهاد، ولا ضد فهم العصر. لكن العصر ليس وحيا. والثقافة الغالبة ليست معصومة. وما يسميه الناس اليوم تقدما قد يظهر غدا أنه عبودية جديدة للهوى أو السوق أو الجسد أو الصورة. لذلك يحتاج المسلم إلى عقل مفتوح، لكن بقلب ثابت؛ يفهم عصره دون أن يعبده، ويجدد خطابه دون أن يبدل دينه.

كراهية الحزم لذاته

بعض الناس ينفر من أي حزم ديني، حتى لو كان حكيما رحيما عادلا، لأنه ربط في ذهنه بين الحزم والتطرف دائما. فإذا رأى إنكارا منضبطا قال: تشدد. وإذا سمع حكما واضحا قال: إقصاء. وإذا رأى مفاصلة بين حق وباطل قال: هذا خطاب حاد. وإذا وجد من يقول: لا، في موضع تستحق لا، اتهمه بالقسوة.

وهذا النمط غالبا نتاج تجربة سابقة مع الغلظة. فقد يرى الإنسان نماذج متعصبة شوهت معنى الحزم، فيظن أن العلاج هو إلغاء الحزم كله. لكن هذا يشبه من رأى طبيبا قاسيا، فكره الطب كله. أو من رأى قاضيا ظالما، فرفض العدل كله.

الحزم ليس نقيض الرحمة. قد يكون الحزم في موضعه أعلى صور الرحمة. فالأب الرحيم يحزم أحيانا، والمعلم الصادق يصحح أحيانا، والطبيب الأمين يمنع المريض أحيانا، والناصح المحب يقول كلمة واضحة أحيانا. القسوة أن يكون الحزم بلا رحمة، أما التمييع فهو أن تكون الرحمة بلا حق.

ومن كره الحزم لذاته، فقد يعجز عن حماية أي قيمة. لأن القيم لا تعيش بالكلام الجميل وحده؛ تحتاج أحيانا إلى حدود. والحدود لا تعني العدوان، بل تعني أن للحق حرمة، وللأخلاق معنى، وللمجتمع سياجا، وللنفس تربية تمنعها من الانفلات.

والتدين الصادق لا يجعل الحزم طبعا دائما، ولا يجعله تهمة دائمة. يضعه في موضعه، بقدره، وبأدبه، وبعلمه. فإن كان اللين أصلح لان، وإن كان البيان الصريح

أوجب صرح، وإن كان السكوت أحكم سكت، لا يحكمه خوف من صورة الحزم ولا شهوة الحزم.

تذويب الهوية باسم الإنسانية

الإنسانية معنى شريف، والدين جاء لصيانة كرامة الإنسان، والرحمة بالخلق، والعدل مع الموافق والمخالف. لكن الخلل يبدأ حين تستعمل الإنسانية لإلغاء خصوصية الدين، وكأن المسلم لا يكون إنسانيا إلا إذا أخفى معالم إيمانه، أو خفف انتماءه، أو ذوب عقيدته في عبارات عامة لا تميز شيئا.

في هذا النمط يصبح الحديث عن المشترك الإنساني بديلا عن الحديث عن الحق. وتصبح الرحمة العامة مبررا لإلغاء الفروق العقدية والأخلاقية. ويصبح الانفتاح معناه ألا يكون لك حد واضح، ولا موقف مميز، ولا هوية ظاهرة. وكأن ثمن أن تكون لطيفا مع الناس أن تتخلى عن خصوصيتك أمامهم.

والدين لا يمنع المسلم من التعاون مع الناس في الخير، ولا من العدل معهم، ولا من الرحمة بهم، ولا من احترام كرامتهم. لكنه لا يطلب منه أن يذوب حتى يفقد معناه. فالإنسانية في الإسلام لا تلغي العبودية لله، بل تنبع منها. والرحمة لا تعني أن كل الطرق سواء، بل أن تحب الخير للناس وتدلهم عليه بلا كبر ولا عدوان.

ومن علامات تذويب الهوية أن يتحرج الإنسان من الألفاظ الدينية الخاصة، فيستبدل بها دائما ألفاظا عامة. لا يتكلم عن الإيمان بل عن الطاقة الروحية، ولا عن الطاعة بل عن الانسجام الداخلي، ولا عن الحلال والحرام بل عن الاختيارات الشخصية، ولا عن الهداية بل عن التجارب المتعددة. وقد تستعمل هذه الألفاظ أحيانا للتقريب والشرح، لكنها تصبح مشكلة حين تحل محل المعاني الأصلية وتمحوها.

والتدين الصادق يجمع بين رحابة الإنسانية ووضوح الهوية. يحب الخير للناس جميعا، لكنه لا يخجل من كونه مسلما. يحترم كرامة المخالف، لكنه لا يذوب في مخالفته. يتعاون على البر، لكنه لا يتنازل عن معنى الحق. يرى المشترك الإنساني، لكنه لا يلغي الخصوصية الإيمانية.

الخلاصة

هذه الآفات كلها تبدو مضادة للتعصب، لكنها ليست اعتدالا حقيقيا. فالاعتدال ليس أن نهرب من القسوة إلى التمييع، ولا من التشدد إلى الذوبان، ولا من التصنيف الظالم إلى النسبية المطلقة. الاعتدال أن يبقى الحق حقا، لكن يقال بعلم ورحمة. وأن يبقى الباطل باطلا، لكن يرد بعدل وحكمة. وأن تبقى النصوص حاكمة، لكن تفهم بفهم راسخ لا بجمود ولا بهوى.

فالمتعصب يجعل الدين ثقيلا بقسوته، والمميع يجعله خفيفا إلى حد الفراغ. المتعصب يخيف الناس من الدين، والمميع يجعل الدين غير قادر على هداية الناس. المتعصب يعبد صورة القوة، والمميع يعبد صورة القبول. أما المتدين الصادق فيطلب رضا الله، ويخاف من نفسه في الحالين: يخاف أن يقسو باسم الحق، ويخاف أن يميع الحق باسم الرحمة.

وهكذا يظهر أن التدين المغشوش له طرفان متقابلان: طرف يغلو في النصوص ليقهر الناس، وطرف يميع النصوص ليرضي الناس. وكلاهما لم يتحرر من عبودية النفس. فالأول عبد لصورة القوة، والثاني عبد لصورة القبول. أما التدين الصادق فهو أن تكون عبدا لله وحده؛ لا تستعمل الدين لتعلو على الخلق، ولا تفرغه من معناه لتنال رضاهم.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع
فقه الدليل والقفز فوق الإنتاج الفقهي لعلماء الأمة

من أكثر العبارات التي شاعت في زماننا، وأشدها إغراء للعامة وأنصاف المتعلمين، قول بعضهم: "نحن لا نريد أقوال الرجال، نريد الدليل". وهي عبارة تبدو في ظاهرها جميلة جليلة، بل لا يستطيع مسلم أن يعترض على أصلها إن أريد بها تعظيم الوحي ورد الناس إليه. فمن ذا الذي يملك أن يقول: لا نريد الدليل؟ ومن ذا الذي يزهد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

لكن الخلل لا يكون أحيانا في الشعار، بل في المعنى الذي يندس تحته. فحين تتحول كلمة "الدليل" إلى سلاح يهدم به صاحبه قرونا من الفقه، ويقفز به فوق جهود الأئمة، ويستبيح به اقتحام مسائل عميقة لمجرد أنه قرأ آية، أو حديثا، أو ترجمة مختصرة، أو مقطعا مجتزأ، فهنا لا نكون أمام تعظيم للدليل، بل أمام فوضى باسم الدليل.

وهذه الآفة لا يقع فيها المتعصب وحده، بل يقع فيها المميع أيضا. فالمتعصب قد يقول: "الدليل واضح"، ثم يأخذ نصا واحدا أو أثرا واحدا أو عبارة واحدة، ويجعلها سيفا على رقاب الناس، دون جمع للنصوص، ولا فهم للسياقات، ولا اعتبار للشروط والموانع، ولا نظر في المآلات. والمميع قد يقول كذلك: "الدليل في مقاصد الشريعة وروح النص"، ثم يتجاوز النصوص والأحكام المتراكمة، ويعيد تشكيل المعنى حتى يوافق الذوق العام، أو القبول الاجتماعي، أو الثقافة الغالبة. وكلاهما، وإن اختلفت وجهته، يشترك في آفة واحدة: أنه يتعامل مع الدليل بغير فقه.

إن المشكلة ليست في طلب الدليل، بل في توهم أن الدليل نص مفرد معزول، يراه كل قارئ بمجرد النظر، ويستطيع كل أحد أن ينتزع منه الحكم مباشرة دون أدوات، ولا أصول، ولا لغة، ولا معرفة بمواقع النصوص، ولا إدراك لاختلاف أحوال الناس. وهذا في الحقيقة ليس رجوعا إلى الوحي، بل اختزال للوحي في فهم فردي عاجل، قد يكون صاحبه أبعد الناس عن مراد الوحي وهو يظن أنه أقربهم إليه.

فالدليل لا ينطق في الفراغ. والدليل لا يعمل وحده مجردا عن بقية الأدلة. والدليل لا يفهم بمجرد الحماسة له، ولا بمجرد رفعه في وجه الخصوم، ولا بمجرد نسخه ولصقه في منشور قصير. النص الشرعي له لسان، وسياق، وسبب، ومحل، ودرجة ثبوت، ووجه دلالة، وعلاقة بغيره من النصوص، ومدخل في أبواب الفقه، وموقع في بناء المقاصد، وحدود في التنزيل على الوقائع.

ومن هنا كان فقه الأمة عبر قرون ليس حجابا بين الناس وبين الوحي، بل جسرا لفهم الوحي. فالعلماء لم يجتمعوا عبر العصور ليحجبوا الدليل عن الناس، بل ليخدموه، ويحرروا دلالته، ويجمعوا أطرافه، ويميزوا صحيحه من ضعيفه، ومحكمه من متشابهه، وعامه من خاصه، ومطلقه من مقيده، وناسخه من منسوخه، وما يصلح للفتوى العامة مما يحتاج إلى تنزيل خاص.

والقفز فوق هذا التراث بدعوى الرجوع المباشر إلى الدليل يشبه من يقول: لا أريد خبرة الأطباء، أريد نصوص الطب وحدها. أو يقول: لا أريد علم المهندسين، أريد قوانين البناء مباشرة. نعم، النص الأصلي هو المرجع، لكن فهمه وتطبيقه يحتاج إلى علم. وليس من تعظيم النص أن يقتحمه من لا يحسن أدواته، كما أن احترام الدواء لا يعني أن يصفه كل قارئ لنشرة طبية.

والفتوى ليست مجرد نص يلقى على واقعة. وليست مجرد آية تحفظ، أو حديث يروى، أو فتوى قديمة تنقل من كتاب إلى واقع مختلف. الفتوى بناء مركب له أركان لا يستغني بعضها عن بعض: الدليل، وطريقة استنباط الحكم من الدليل، وحال المستفتي أو الواقع عند تنزيل الحكم عليه.

فالدليل هو الأصل الذي يرجع إليه الفقيه، لكن النص لا ينطق بالحكم التفصيلي في كل واقعة إلا عبر أدوات الفهم والاستنباط؛ من جمع للأدلة، ومعرفة بالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ، ومراتب الثبوت والدلالة، ومواقع الإجماع والخلاف، ومدارك العلماء في الترجيح. ثم يأتي الركن الآخر، وهو حال المستفتي والواقع؛ إذ ليست الفتوى حكما معلقا في الفراغ، بل جواب شرعي ينزل على إنسان له ظرفه وقدرته وحاجته ونيته وبيئته ومآلات فعله.

ومن فصل بين هذه الأركان وقع في اضطراب الفتوى. فقد يستدل بدليل صحيح، لكنه يفهمه بغير أصول، أو ينزله على غير موضعه، فيفسد من حيث أراد الإصلاح. وقد يستحضر مقصدا صحيحا، لكنه يستعمله في غير بابه، فيلغي به نصا أو يذيب به حكما. وقد ينقل فتوى إمام معتبر، لكنه ينزلها على واقع مختلف دون فهم مناطها وسياقها. وقد يرى حكما في كتاب، فيظنه صالحا لكل زمان ومكان وشخص وحال، مع أن الفقهاء أنفسهم يفرقون بين الحكم الكلي وتنزيله، وبين الفتوى والقضاء، وبين حال القدرة وحال العجز، وبين الخاص والعام، وبين الضرورة والحاجة والعادة والاختيار.

ومن هنا تظهر الآفة المشتركة بين المتعصب والمميع. المتعصب يختزل الدليل في ظاهر ينتصر به على الناس. والمميع يختزل الدليل في مقصد عام يهرب به من النصوص. الأول يقتل سعة الفقه باسم النص، والثاني يقتل هيبة النص باسم السعة. الأول يجعل الدليل سوطا، والثاني يجعله مادة سائبة. الأول يقفز فوق فقه العلماء لأنه يظن نفسه أصفى منهم في الاتباع، والثاني يقفز فوقهم لأنه يظن نفسه أقدر منهم على مخاطبة العصر. وكلاهما لم يعرف قدر نفسه، ولم يعرف قدر العلم.

والأزمة في السوشيال ميديا أن هذه القفزة صارت سهلة ومغرية. فالمسألة المعقدة تتحول إلى بطاقة مصممة، أو مقطع قصير، أو اقتباس مجتزأ، أو منشور حاد. والجمهور يحب الوضوح السريع، والعبارة القاطعة، والرد المريح. فإذا قال أحدهم: "الدليل واضح"، شعر المتابع أنه أمام حقيقة لا تحتاج إلى فقه. وإذا قال آخر: "المقصد واضح"، شعر المتابع أنه أمام رحمة لا تحتاج إلى نص. وهكذا يتغذى التسرع من طبيعة المنصة، ويضعف الصبر على العلم والتحرير.

ومن علامات هذا الخلل أن يحتقر الإنسان عبارة "قال العلماء" كأنها انصراف عن الدليل، مع أن العلماء هم ورثة فهم الدليل. أو أن يضع أقوال الأئمة في مقابل الوحي دائما، كأن تاريخ الفقه الإسلامي كله كان خصومة مع القرآن والسنة. أو أن ينتقي من أقوال العلماء ما يشاء، فإذا وافقوه قال: قال الأئمة، وإذا خالفوه قال: هم رجال ونحن رجال. وهذه ليست شجاعة علمية، بل اضطراب في تعظيم العلم.

ومثل ذلك من جهة التمييع أن يكثر الإنسان من الكلام عن "روح الشريعة" و"المقاصد" و"الواقع" و"التيسير"، ثم يضيق بذكر الضوابط التي وضعها

العلماء لهذه المعاني. فإذا ذكر له أحد نصا أو إجماعا أو قولا محررا، قال: لا تجمدوا على التراث، أو لا تحبسوا الدين في أقوال القدماء. وكأن الفقهاء كانوا غائبين عن الرحمة، أو عاجزين عن فهم المقاصد، أو لا يدركون اختلاف الأحوال. وهذا أيضا نوع من التعالي على الإنتاج الفقهي للأمة، لكنه تعال ناعم لا صاخب.

والحق أن تعظيم الدليل لا يناقض احترام العلماء، بل يقتضيه. لأن من عظم الدليل عظم أدوات فهمه. ومن أحب الوحي أحب من أفنوا أعمارهم في خدمته. ومن أراد الرجوع إلى القرآن والسنة لم يجعل نفسه فوق قرون من الاجتهاد، بل دخل من أبواب العلم التي دل عليها العلماء، وسأل، وتعلم، وتأدب، وعرف أن المسائل ليست كلها بدرجة واحدة من الوضوح، وأن النصوص ليست كلها سواء في الثبوت والدلالة، وأن تنزيل الأحكام على الوقائع ليس عملا عاطفيا ولا خطابيا.

وليس معنى ذلك أن أقوال العلماء معصومة، أو أن التراث لا يراجع، أو أن الاجتهاد قد أغلق، أو أن العامي لا يطلب الدليل. كلا. فالعلماء يخطئون ويصيبون، والفقه البشري ليس وحيا، والاجتهاد باق، والسؤال عن الدليل حق. لكن الفرق كبير بين طالب علم يسأل عن الدليل ليفهم، وبين متعجل يطلب الدليل ليهدم. وبين مجتهد مؤهل يراجع الأقوال بأدواتها، وبين متصدر رقمي يتجاوزها بانطباعه. وبين من يسأل: ما وجه الدليل؟ وما مأخذ العلماء؟ وما مناط الحكم؟ وبين من يقول: اتركوا أقوال الرجال، ثم يستبدل بها رأيه هو.

ومن فقه الدليل أن يعرف الإنسان قدر نفسه أمام الدليل. فليس كل من رأى حديثا فهمه، وليس كل من فهم لفظه أدرك دلالته، وليس كل من أدرك دلالته عرف موقعه بين بقية النصوص، وليس كل من عرف الحكم العام أحسن تنزيله

على شخص معين، وليس كل من عرف رأيا فقهيا عرف متى يعمل به ومتى لا يعمل به.

ومن فقه الدليل أيضا أن يعرف الإنسان أن الدليل قد يكون ظاهرا في أصل الحكم، لكن تنزيله يحتاج إلى فقه. فقد يكون الحكم معلوما، لكن الشخص معذور بجهل، أو عاجز بقدرة، أو واقع في ضرورة، أو محاط بملابسات تغير الفتوى لا تغير أصل الحكم. وقد تكون المصلحة معتبرة، لكن لا يجوز أن تهدم نصا. وقد تكون الرحمة مقصودة، لكن لا يجوز أن تلغي التكليف. وقد تكون الشدة مطلوبة أحيانا، لكن لا يجوز أن تتحول إلى ظلم.

ولذلك فإن التدين على الواقع الرقمي الراشد لا يقول: نأخذ الدليل ونترك العلماء، ولا يقول: نأخذ أقوال العلماء ونترك الدليل. بل يقول: نأخذ الدليل بفهم العلماء، ونحترم اجتهادهم دون أن نجعلهم معصومين، ونتعلم أدوات النظر قبل أن نخاصم بها الناس، ونفرق بين مقام التعلم ومقام الترجيح، وبين مقام الدعوة ومقام الفتوى، وبين مقام العالم ومقام المتابع.

إن القفز فوق الإنتاج الفقهي للأمة ليس تحررا من التقليد دائما، بل قد يكون وقوعا في تقليد النفس. فمن ترك أقوال الأئمة بلا أدوات، لم يصبح تابعا للدليل بالضرورة، بل ربما صار تابعا لانطباعه عن الدليل. ومن رفض التراث كله بدعوى التجديد، لم يصبح أكثر فهما للعصر والدين، بل ربما صار أسير الثقافة الغالبة. ومن جعل نفسه حكما على العلماء من غير علم، فقد انتقل من تعظيم الوحي إلى تعظيم الذات.

وهكذا يتبين أن الآفة المشتركة بين المتعصب والمميع ليست فقط في النتيجة التي يصلان إليها، بل في الطريق الذي يسلكانه. كلاهما يتجاوز العلم المركب إلى الانطباع السريع. كلاهما ينتقي ما يخدم صورته. كلاهما يستعمل شعارا شريفا: هذا يقول "الدليل"، وذاك يقول "المقاصد". كلاهما قد يصيب في جزئية، لكنه يخطئ في المنهج. وكلاهما يحتاج إلى أن يتعلم أن الوحي لا يخدم أهواءنا، بل نحن الذين نخضع للوحي بفهم علمي راسخ، وقلوب متواضعة، وألسنة ورعة.

فمن أراد النجاة في زمن الفوضى الرقمية، فليتعلم أن يقول: لا أدري. وليتعلم أن يسأل أهل العلم قبل أن ينشر. وليتعلم أن يفرق بين الاقتباس والفقه، وبين الحماسة والعلم، وبين الجرأة والبصيرة. وليعلم أن خدمة الدين لا تكون بتجاوز علمائه، ولا بتقديسهم، بل بإنزالهم منزلتهم: أدلاء على الطريق، لا أربابا من دون الله؛ وحملة لفهم الوحي، لا حجبا تحول بين الناس وبينه.

وبذلك يعود الدليل إلى مكانه الصحيح: نورا يهدي، لا سلاحا للخصومة، ولا مادة للتذويب. ويعود الفقه إلى مكانه الصحيح: خادما للوحي، لا بديلا عنه. ويعود المتدين إلى مقامه الصحيح: عبد يتعلم ويتأدب ويخاف، لا قاضيا على الأمة باسم دليل لم يفقه أدواته، ولا مصلحا للعصر باسم مقاصد لم يضبط حدودها.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع
فقه النصوص حين يغيب عنه فقه النفوس

من أخطر أخطاء التدين المغشوش، في طرفيه المتقابلين، أن يحفظ الإنسان النصوص ولا يفهم النفوس؛ أو أن يتكلم عن الرحمة والمقاصد ولا يفهم مداخل الهوى إلى القلب. فالمشكلة لا تقع فقط عند المتشدد الذي يستعمل النصوص ليقسو، بل تقع كذلك عند المميع الذي يستعمل الرحمة ليهرب من وضوح النص. كلاهما قد يغيب عنه فقه النفس: هذا لا يرى كيف تتحول غيرته إلى عدوان، وذاك لا يرى كيف تتحول رحمته إلى مداهنة.

فالمتعصب قد يعرف أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه لا يعرف مداخل الكبر على قلب الآمر والناهي. يعرف نصوص التحذير من البدع، لكنه لا يعرف كيف تتحول الغيرة إلى شهوة للسيطرة. يعرف أقوال السلف في الرد على المخالف، لكنه لا يعرف ورع السلف في الحكم، ولا خوفهم من الظلم، ولا بكاءهم من القول على الله بغير علم، ولا هيبتهم من الكلام في أعراض الناس.

وفي المقابل، قد يعرف المميع نصوص الرحمة والتيسير ورفع الحرج، لكنه لا يعرف مداخل الخوف من الناس إلى قلب الداعية. يعرف الكلام عن المقاصد والواقع وحسن الخطاب، لكنه لا يعرف كيف تتحول الحكمة إلى تنازل، والرفق إلى تمييع، ومراعاة الجمهور إلى عبودية خفية للقبول الاجتماعي. يعرف أن الدين رحمة، لكنه ينسى أن الرحمة لا تعني إلغاء التكليف، ولا تذويب الحدود، ولا إخفاء الحق حين يكون بيانه واجبا.

ولذلك قد يستخدم كل طرف معنى صحيحا استخداما نفسيا فاسدا. فالمتعصب يضع الآية أو الحديث في غير مقامه، لا لأن النص ناقص، بل لأن نفسه تدخلت في طريقة تنزيله. والمميع قد يستدعي المقصد أو الرحمة في غير موضعهما، لا لأن الرحمة مذمومة، بل لأن نفسه جعلت الرحمة غطاء للخوف أو المداهنة. النص نور، والرحمة نور، والمقاصد نور؛ لكن اليد التي تحمل النور قد تكون مرتعشة، أو ملوثة بحظ النفس، أو خائفة من الناس، أو طالبة للغلبة.

وكم من إنسان استدل بالحق على باطل في السلوك، لا في أصل المعنى. وكم من إنسان تكلم عن الرحمة وهو لا يقصد هداية المخطئ بقدر ما يقصد تجنب كلفة البيان. وكم من إنسان رفع شعار الحزم وهو ينتقم لنفسه، وكم من إنسان رفع شعار اللين وهو يهرب من الحق. فالخلل ليس دائما في العبارة المرفوعة، بل في النفس التي تستعملها، وفي المقصد الذي يسكن خلفها، وفي المآل الذي تنتجه.

فقه النصوص لا يكتمل بغير فقه المقاصد، وفقه الواقع، وفقه المآلات، وفقه النفوس. وليس فقه النفوس بابا جانبيا في الخطاب الديني، بل هو من أهم ما يحفظ الدين من أن يتحول إلى أداة في يد الهوى. فمن لم يفهم النفس قد يظن أنه يغار وهو يعتدي، أو يظن أنه يرحم وهو يميع، أو يظن أنه ينصح وهو يفضح، أو يظن أنه يجدد وهو يفرغ، أو يظن أنه يحمي الدين وهو يشوه صورته في القلوب.

ليس كل حق يقال في كل لحظة بالطريقة نفسها، وليس كل خطأ يعالج بالفضيحة، وليس كل مخالف يهجر، وليس كل جاهل يغلظ عليه، وليس كل زلة تجعل صاحبها ساقطا. وفي المقابل، ليس كل وضوح قسوة، وليس كل إنكار

تطرفا، وليس كل حزم غلظة، وليس كل حكم شرعي قابلا للتأويل حتى يرضى عنه الجمهور، وليس كل مراعاة للواقع تبريرا للذوبان فيه.

ومن لم يفهم النفوس قد يفسد من حيث يظن أنه يصلح. قد ينشر مقطعا بحجة التحذير، فيفتح باب شماتة وفتنة. وقد يهاجم شخصا بحجة الغيرة، فيجعل العامة يكرهون أهل الدين. وقد يشتد على شاب مخطئ، فيدفعه إلى العناد أو الانهيار. وقد يفضح عاصيا، فيغلق عليه باب التوبة. وقد يظن أنه حمى الدين، بينما هو شوه صورته في قلوب الناس.

وكذلك قد يفسد المميع من حيث يظن أنه يرحم. قد يخفي النص بحجة عدم التنفير، فيظن الناس أن الدين لا يملك موقفا واضحا. وقد يذيب الحكم بحجة مراعاة الواقع، فيفقد الخطاب الديني قدرته على التربية. وقد يبالغ في الاعتذار عن الشريعة حتى تبدو الشريعة كأنها متهمة تحتاج إلى تبرئة. وقد يسكت عن الباطل بحجة الحكمة، حتى يعتاد الناس غياب البيان. وقد يظن أنه قرب الناس من الدين، بينما قربهم من صورة مخففة لا تطالبهم بشيء.

والجامع بين المتعصب والمميع أن كلا منهما يغفل عن قلبه وهو يتكلم في الدين. الأول لا يفتش عن حظ القسوة والغلبة في داخله، والثاني لا يفتش عن حظ الخوف والقبول في داخله. الأول يخاف من التمييع حتى يقع في الظلم، والثاني يخاف من التشدد حتى يقع في المداهنة. وكلاهما يحتاج إلى أن يسأل نفسه قبل أن يسأل عن موقف الناس: ما الذي يحركني الآن؟ أهو تعظيم الحق، أم الانتصار للنفس؟ أهي الرحمة بالخلق، أم الخوف منهم؟ أهو البيان لله، أم صناعة صورة أمام الجمهور؟

إن فقه النصوص حين ينفصل عن فقه النفوس قد ينتج قسوة باسم الحق، أو مداهنة باسم الرحمة. أما التدين الراشد فيجمع بين الأمرين: يفهم النصوص بأدوات العلم، ويفهم النفوس بأدوات البصيرة والتزكية. يعرف أن النص لا يظلم، لكن النفس قد تظلم وهي تستدل به. ويعرف أن الرحمة لا تميع، لكن النفس قد تميع وهي تتكلم باسمها. ويعرف أن الحق لا يحتاج إلى قسوة حتى يكون حقا، ولا إلى إخفاء حتى يكون رحيما.

ومن هنا كان على من يتكلم في الدين أن يتعلم كيف يراقب قلبه كما يراقب دليله؛ لأن فساد النية قد يفسد طريقة الاستدلال، ومرض النفس قد يفسد تنزيل النص، والخوف من الناس قد يفسد معنى الرحمة، وشهوة الغلبة قد تفسد معنى الحزم. وليس النجاة أن يملك الإنسان نصا يستدل به، بل أن يملك قلبا يخضع للنص، ولسانا يتأدب به، ونفسا تخاف أن تستعمل الحق في غير موضعه.

فالمؤمن الصادق لا يسأل فقط: ما الدليل؟ بل يسأل أيضا: هل فهمت الدليل؟ وهل جمعت ما يتعلق به؟ وهل وضعت الحكم في موضعه؟ وهل حملت النص بروح العدل والرحمة؟ وهل دخلت نفسي في طريقة فهمي أو إنكاري أو تليبني؟ وهل أنا أقرب بهذا الكلام إلى هداية الناس، أم إلى إرضاء غضبي أو خوفي أو جمهوري؟

بهذا وحده يتحول فقه النصوص من مادة للخصومة أو التمييع إلى طريق للهداية. أما حين يغيب فقه النفوس، فقد يحمل المتعصب النص فيجعله سوطا، ويحمل المميع الرحمة فيجعلها مخدرا، وكلاهما يحتاج إلى أن يعود إلى حقيقة الدين: نور يهدي القلب قبل أن يحاكم الآخرين، ورحمة تقيم الحق لا تلغيه، وعدل يمنع القسوة كما يمنع المداهنة.

الآفة المشتركة بين المتعصب والمميع
لي عنق النصوص والقص واللصق لتمرير فهم قاصر

من أعظم صور التدين المغشوش، في طرفيه المتقابلين، أن يتعامل الإنسان مع النصوص لا بوصفها وحيا يهتدي به، بل بوصفها مادة ينتقي منها ما يخدم رأيه المسبق. فالمتعصب يبدأ من موقف حاد يريد إثباته، ثم يبحث له عن آية أو حديث أو قول عالم يشدد به على الناس. والمميع يبدأ من رغبة في القبول أو التخفيف أو موافقة الذوق السائد، ثم يبحث هو الآخر عن نص أو مقصد أو عبارة لعالم يمرر بها ما يريد. وفي الحالين لا يكون النص قائدا للنفس، بل تصبح النفس قائدة لطريقة التعامل مع النص.

وهذا هو لي عنق النصوص: ألا تترك النص يقودك إلى الحق، بل تجبره أن يسير خلفك. أن تجعل الدليل خادما لموقفك، لا حاكما عليك. أن تقرأ بعين المنتصر لنفسه، أو الخائف على صورته، لا بعين العبد الباحث عن مراد الله. فالمتعصب يلوي النص ليجعله أشد مما يحتمل، والمميع يلويه ليجعله أخف مما يدل عليه. والأول يخون النص بإغلاظه فوق موضعه، والثاني يخونه بتفريغه من قوته.

ومن صور ذلك القص واللصق من كتب العلماء، حيث تؤخذ العبارات من سياقها، وتنزع من ظروفها، وتستعمل في غير موضعها. فقد يأخذ المتعصب عبارة شديدة قيلت في مقام مخصوص، أو في بدعة صريحة، أو في شخص قامت عليه الحجة، أو في زمن له ملابساته، فيسقطها على كل مخالف، وكل جاهل، وكل متأول، وكل صاحب زلة. وقد يأخذ المميع عبارة في التيسير أو الرحمة أو مراعاة الحال، فيجعلها أصلا عاما لإلغاء الحدود، أو تذويب الأحكام، أو إسكات كل بيان واضح بحجة أن الدين يسر.

وهذا ليس اتباعا للعلماء، بل استعمال لهم. فاتباع العلماء لا يكون باقتطاف عباراتهم فقط، بل بفهم طرائقهم في الاستدلال، وورعهم في الحكم، وتفريقهم بين المسائل، ونظرهم إلى المصالح والمفاسد، وتمييزهم بين الخطأ وصاحبه، وبين الجاهل والمعاند، وبين المعذور والمفرط، وبين المسألة القطعية والمسألة الاجتهادية، وبين الحكم العام وتنزيله على شخص معين.

والقص واللصق يصنع تدينا مبتورا؛ لأن النصوص لا تعيش مفردة في الهواء، بل لها سياقات، ومقاصد، وشروط، وموانع، ومجالات تنزيل. ومن يأخذ بعضها ويترك بعضها قد يصل إلى عكس مقصودها. فالآية حق، والحديث حق، وكلام العالم قد يكون حقا، لكن وضع الحق في غير موضعه قد ينتج ظلما أو تمييعا. وقد يكون الكلام عن الشدة حقا في موضعه، فإذا وضع في غير موضعه صار قسوة. وقد يكون الكلام عن الرحمة حقا في موضعه، فإذا وضع في غير موضعه صار مداهنة.

ومن علامات هذا النمط أن صاحبه لا يجمع النصوص، بل ينتقيها. لا يسأل: ما مجموع الأدلة؟ بل يسأل: ما النص الذي يخدم موقفي؟ لا يقرأ كلام العلماء قراءة فهم، بل قراءة اصطياد. لا يحب السياق؛ لأن السياق قد يضبط حماسته أو يكشف تمييعه. لا يحب التفصيل؛ لأن التفصيل يمنع الإدانة السريعة عند المتعصب، ويمنع التسهيل المنفلت عند المميع. كلاهما يريد عبارة جاهزة: هذا يريدها لتقسيم الناس، وذاك يريدها لإلغاء الفوارق بين الحق والباطل.

وهنا يصبح النص أداة نفسية لا طريقا للهداية. فإن أراد المتعصب التشدد وجد نصوص الوعيد، وإن أراد إسقاط شخص وجد أقوال الجرح، وإن أراد احتقار

مخالف وجد عبارات الرد على أهل الأهواء، لكنه قد لا يذكر نصوص العدل، ولا الرحمة، ولا التثبت، ولا حرمة الغيبة، ولا خطورة البهتان، ولا فضل الستر، ولا أدب الخلاف. وفي المقابل، إن أراد المميع التخفيف المنفلت وجد نصوص الرحمة، وإن أراد إلغاء الحدود تكلم عن المقاصد، وإن أراد تجنب البيان تحدث عن عدم التنفير، لكنه قد لا يذكر نصوص التكليف، ولا الأمر والنهي، ولا التوبة، ولا المجاهدة، ولا الحلال والحرام، ولا أن الرحمة لا تعني ترك الناس في غفلتهم.

والخطر أن العامة قد تنخدع بالطرفين؛ لأن النص حاضر، والعبارة قوية، والمصدر معروف. المتعصب يخيفهم بسطوة النص المقتطع، والمميع يطمئنهم بنعومة النص المقتطع. لكن حضور النص لا يكفي إذا غاب الفقه. فقد يحمل الإنسان الدواء نفسه، لكنه يضعه في غير موضعه فيصير ضررا. وقد يستعمل السيف في غير معركة فيصير عدوانا. وقد يستعمل البلسم في موضع الجراحة التي تحتاج إلى علاج أعمق فيزيدها فسادا. وقد يقول الإنسان كلمة حق يريد بها نصرة نفسه، أو يقول كلمة رحمة يريد بها حماية صورته.

والدين لا يؤخذ بالقص واللصق، ولا بالاقتباسات المجتزأة، ولا بالمقاطع القصيرة وحدها. الدين يحتاج إلى فقه، وتؤدة، وجمع بين النصوص، ومعرفة بالمقاصد، وسؤال لأهل العلم، وخوف من الله في تنزيل الأحكام على الناس. ولا يكفي أن تقول: عندي دليل، حتى تسأل: هل فهمت الدليل؟ وهل جمعت ما يتعلق به؟ وهل عرفت موضعه؟ وهل أنزلته على الحال الصحيح؟ وهل حملته بروح العدل والرحمة، أم حملته بروح الغلبة أو الخوف أو طلب القبول؟

ومن تواضع للحق لم يخف من اكتمال الصورة. أما صاحب الهوى فيخاف من السياق؛ لأن السياق قد يكشف ضعف فهمه. ويخاف من التفصيل؛ لأن

التفصيل قد يمنعه مما يريد: المتعصب يخاف أن يمنعه التفصيل من الإدانة السريعة، والمميع يخاف أن يمنعه التفصيل من التخفيف المنفلت. ويخاف كلاهما من كلام العلماء الآخرين؛ لأن تعدد الأقوال، وظهور القيود، وبيان الشروط والموانع، قد يهدم وهم الاحتكار الذي بناه لنفسه.

ولهذا كان من الضوابط العظيمة في الخطاب الديني الرقمي ألا ينشر الإنسان نصا في حكم خطير حتى يعرف سياقه، ولا ينقل كلام عالم حتى يفهم مراده، ولا يسقط حكما عاما على معين حتى يعرف الشروط والموانع، ولا يجعل النصوص مطية لمعركة نفسية أو اجتماعية، ولا يجعل المقاصد ستارا لتمييع حكم واضح، ولا يجعل الرحمة ذريعة لإخفاء الحق، ولا يجعل الغيرة ذريعة للظلم.

فالنصوص أمانة، ومن خان أمانة النص لم ينصر الدين ولو أكثر من الاقتباس. وخيانة النص ليست صورة واحدة؛ فقد تكون بتشديده فوق مراده، وقد تكون بتخفيفه دون مراده. قد تكون باستعماله سوطا على الناس، وقد تكون بتذويبه حتى لا يبقى له أثر في النفوس. ومن خضع للنص حقيقة زاده ذلك ورعا وعدلا ورحمة وثباتا، لا جرأة على الخلق باسم الحق، ولا مداهنة للخلق باسم الرحمة.

والتدين الراشد لا ينتقي النصوص ليهزم خصما أو يرضي جمهورا، بل يتعبد لله بجمعها وفهمها وإنزالها في مواضعها. فإذا تكلم عن الحزم لم ينس الرحمة، وإذا تكلم عن الرحمة لم ينس الحق، وإذا استدل لم ينس الفقه، وإذا نقل عن العلماء لم ينس سياقهم وورعهم. وبذلك ينجو من آفتين متقابلتين: آفة من يجعل النص أداة للقسوة، وآفة من يجعله مادة للتذويب.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع
التلاعب بالمصطلحات حين تصبح الألفاظ أقنعة للنفس

من أخطر أبواب التدين المغشوش أن لا يغير الإنسان حقيقة الفعل، بل يغير اسمه. فالظلم لا يحتاج دائما إلى أن يظهر عاريا حتى يمارسه صاحبه، بل يكفي أن يلبس ثوبا جميلا، وأن يمنح اسما شريفا، وأن يدخل إلى النفس من باب المعاني المحبوبة. وهكذا لا يقول القاسي عن نفسه إنه قاس، بل يقول: أنا غيور. ولا يقول المتكبر: أنا أحتقر الناس، بل يقول: أنا أتعالى عن أهل الباطل. ولا يقول المميع: أنا أخاف من غضب الناس، بل يقول: أنا حكيم في الخطاب. ولا يقول المداهن: أنا أتهرب من الحق، بل يقول: أنا أراعي المقاصد والمآلات.

هنا لا تكون المشكلة في المصطلح نفسه، بل في استعماله. فكثير من الألفاظ التي يتلاعب بها الناس ألفاظ صحيحة شريفة في أصلها: الغيرة، الرحمة، الحكمة، المقاصد، الحزم، اللين، النصيحة، الإنصاف، التجديد، الثبات، الواقعية، فقه المآلات. لكن النفس إذا لم تزك، استطاعت أن تدخل إلى هذه الألفاظ، فتستعير نورها لتغطي ظلامها، وتستعمل جلالها لتستر اضطرابها.

والتلاعب بالمصطلحات ليس مجرد خطأ لغوي، بل هو انحراف أخلاقي ومعرفي؛ لأن الإنسان حين يسمي المرض باسم العافية، يغلق على نفسه باب العلاج. فمن عرف أن ما عنده كبر ربما خاف وتاب، أما إذا سماه عزة للحق فقد يدافع عنه. ومن عرف أن ما عنده مداهنة ربما راجع نفسه، أما إذا سماها حكمة فقد يجعلها منهجا. ومن عرف أن ما عنده قسوة ربما استحيا من الله، أما إذا سماها غيرة فقد يطلب عليها الثناء.

لهذا كان فساد الأسماء من أخطر ما يصيب الوعي؛ لأن الاسم ليس مجرد صوت، بل هو مفتاح الحكم على الأشياء. فإذا تغير الاسم تغير الشعور، وإذا تغير الشعور تغير الموقف، وإذا تغير الموقف صار الانحراف مقبولا، بل ربما صار مطلوبا وممدوحا.

حين تختبئ القسوة خلف اسم الغيرة

الغيرة على الدين خلق شريف، وهي من علامات حياة القلب إذا صحبتها بصيرة ورحمة وعدل. لكن القسوة حين تتنكر في صورة الغيرة تتحول إلى سوط لا يبني، وإلى نار لا تضيء. وصاحبها لا يقصد دائما نصرة الحق بقدر ما يقصد هزيمة المخالف. يفرح إذا انكشف خطؤه، ويطرب إذا سقطت صورته، ويتلذذ حين يراه الناس مكسورا. ثم يسمي ذلك غيرة.

والغيرة الصادقة تحزن على الخطأ ولا تفرح بالفضيحة. تريد رجوع المخطئ لا هلاكه. تحفظ للإنسان قدره وإن ردت قوله. أما الغيرة المغشوشة فتحتاج إلى خصم دائم، ومعركة دائمة، وجمهور دائم، وتصفيق دائم. فإذا غاب الخصم بردت، وإذا غاب الجمهور فترت، وإذا لم تجد معركة صنعت معركة من احتمال أو زلة أو عبارة مبتورة.

هنا يظهر التلاعب بالمصطلح: فليس كل غضب غيرة، وليس كل شدة نصرة، وليس كل صراخ بيانا، وليس كل تجريح نصيحة. قد يكون الكلام حقا في أصله، لكنه يخرج من نفس لم تتأدب بالحق، فيصير الحق في يدها أداة إيذاء لا وسيلة هداية.

حين تختبئ المداهنة خلف اسم الحكمة

وفي الجهة المقابلة، قد لا يجرؤ الإنسان على بيان الحق، لا لأنه فقيه بالمآلات، بل لأنه خائف من فقدان القبول. يخاف أن يغضب الجمهور، أو أن يخسر صورته اللطيفة، أو أن يتهم بالتشدد، أو أن يخرج من دائرة الإعجاب الاجتماعي. لكنه لا يسمي ذلك خوفا، بل يسميه حكمة.

والحكمة حق عظيم، لكنها ليست إلغاء للحق، ولا إخفاء للبيان، ولا إذابة للحدود، ولا تحويل الدين إلى كلام مطاط يرضي الجميع. الحكمة أن تضع الحق في موضعه، وبأسلوبه، ووقته، وقدره، لا أن تؤجل الحق حتى يموت، ولا أن تلينه حتى يفقد معناه، ولا أن تغير اسمه حتى لا يجرح ذوق الناس.

وهنا يكون التلاعب بالمصطلحات أشد خطرا؛ لأن صاحبه قد يبدو رحيما، هادئا، متزنا، متسامحا، بينما هو في داخله أسير لصورة اجتماعية لا يريد أن يخسرها. إنه لا يعبد راحة الناس، لكنه يخشى غضبهم. ولا ينكر النص، لكنه يعيد تأويله حتى لا يدفع ثمنه. ولا يصرح برفض الحزم، لكنه يصف كل حزم بأنه قسوة، وكل وضوح بأنه تنفير، وكل ثبات بأنه انغلاق.

حين يصبح التجديد اسما للتفريغ

التجديد في الدين معنى صحيح إذا كان إعادة للناس إلى صفاء الوحي، وتجديدا للفهم، وتنزيلا رشيدا للنصوص على الواقع، وإحياء لما اندرس من المعاني. لكنه يصبح مغشوشا حين يتحول إلى تفريغ للدين من مضمونه، وإعادة تشكيله على مقاس الذوق السائد.

فبعض الناس لا يجدد الخطاب، بل يجدد القابلية للتنازل. لا يشرح الدين للناس، بل يعيد صناعة الدين حتى لا يعترض عليه الناس. لا يميز بين الثابت والمتغير، بل يجعل كل شيء قابلا للمساومة ما دام الجمهور يضغط، والواقع يلح، والصورة العامة مهددة.

وهنا يتلاعب الإنسان بمصطلح التجديد، فيجعله ستارا للانبهار، أو غطاء للانهزام، أو لغة مهذبة للتخلص من ثقل التكليف. والتجديد الحق لا يبدأ من الرغبة في إرضاء العالم، بل من الصدق مع الوحي، والفهم العميق للواقع، والتمييز بين ما يتغير وما لا يتغير، وبين ما يحتاج إلى شرح وما لا يجوز تبديله.

حين يصبح الثبات اسما للجمود

وكما يميع بعض الناس الدين باسم التجديد، يجمده آخرون باسم الثبات. والثبات على الحق عبادة عظيمة، خاصة حين تكثر الفتن وتتغير الأذواق وتضعف القلوب. لكن الثبات لا يعني إغلاق باب الفهم، ولا رفض كل مراجعة، ولا تحويل الموروث البشري إلى وحي، ولا مساواة اجتهاد العالم بالنص المعصوم. صاحب الجمود لا يقول غالبا: أنا أخاف من السؤال. بل يقول: أنا ثابت. ولا يقول: لا أملك قدرة على التفريق بين النص وفهمي له. بل يقول: أنا لا أتنازل. ولا يقول: أنا أضيق بالخلاف. بل يقول: أنا أحمي الدين.

وهنا يتبدل معنى الثبات من عبودية لله إلى تعصب لصورة ذهنية. فالثابت حقا لا يخاف من الدليل، ولا من المراجعة، ولا من التفصيل، ولا من الاعتراف بالخطأ. أما الجامد فيخاف أن يتحرك؛ لأن حركته تهدد البناء النفسي الذي

احتمى به. لذلك يختار أسهل طريق: كل جديد بدعة، كل سؤال شبهة، كل مراجعة تميع، كل تفصيل ضعف.

حين تتحول النصيحة إلى فضيحة

النصيحة في الدين من أعظم أبواب الرحمة، لكنها إذا دخلت عليها حظوظ النفس صارت فضيحة باسم النصيحة. وقد يكتب الإنسان منشورا، أو يسجل مقطعا، أو يرد على شخص، ويقول: أردت النصيحة. لكن قلبه يعلم أنه أراد الظهور، أو الانتصار، أو الانتقام، أو تعليم الناس أنه أعرف وأثبت وأقوى.

النصيحة لها رائحة يعرفها القلب. فيها شفقة، وستر ما أمكن، وعدل في العبارة، وفرح برجوع المخطئ، وحزن على انتشار الخطأ. أما الفضيحة فلها رائحة أخرى: فرح بالإسقاط، وتوسع في التشهير، وتكرار للزلة، وإهمال للحسنات، وانتقاء للعبارات، وتغذية للجمهور الغاضب.

ومن التلاعب بالمصطلحات أن يقول الإنسان: أنا أنصح، وهو يهدم. أو يقول: أنا أبين، وهو يتشفى. أو يقول: أنا أحذر، وهو يصنع من أخطاء الناس سلما لشهرته. وليس كل تحذير تشهيرا، ولا كل بيان فضيحة، لكن من علامات الصدق أن يسأل الإنسان نفسه: هل كنت سأفعل هذا لو لم يعرف الناس اسمي؟ هل أفرح لو تاب المخطئ ورجع؟ هل أكتفي بالقدر الذي يحقق المصلحة؟ هل أحفظ له حقه الإنساني، أم أختصره في زلته؟

حين يسمى الهوى مقاصد

من أعظم المصطلحات التي يتلاعب بها الخطاب المعاصر مصطلح المقاصد. فالمقاصد باب جليل من أبواب الفقه، لكنها لا تصلح أن تكون طريقا للهروب من النصوص، ولا سلما لتبرير الرغبات، ولا مساحة مفتوحة يصنع فيها كل إنسان دينا يناسب ذوقه.

قد يقول الإنسان: مقصد الدين الرحمة. وهذا صحيح. لكنه ينسى أن الرحمة لا تعني إلغاء الحدود. ويقول: مقصد الدين التيسير. وهذا صحيح. لكنه ينسى أن التيسير لا يعني اتباع الهوى. ويقول: مقصد الدين رفع الحرج. وهذا صحيح. لكنه ينسى أن كل تكليف فيه مشقة محتملة، وأن رفع الحرج ليس رفعا للدين نفسه.

والمتعصب أيضا قد يتلاعب بالمقاصد، لا المميع وحده. فقد يختار من المقاصد ما يخدم معركته، فيقول: حماية الدين، سد الذرائع، حفظ الهوية، صيانة المجتمع. وكلها معان صحيحة، لكنه قد يستعملها لتوسيع دائرة المنع، أو إساءة الظن، أو إغلاق أبواب مباحة، أو تحويل الوسائل إلى غايات.

فالتلاعب بالمقاصد له صورتان: صورة تميع النص باسم الروح، وصورة تخنق الروح باسم الحماية. وكلاهما يحتاج إلى علم وعدل وتجرد.

أثر السوشيال ميديا في تضخيم التلاعب

السوشيال ميديا بيئة مثالية للتلاعب بالمصطلحات؛ لأنها تحب العناوين المختصرة، والانفعالات السريعة، والتصنيفات الحادة. فيها تصبح الكلمة شعارا،

والشعار هوية، والهوية معسكرا. كلمة واحدة قد تكفي لقتل فكرة: مميع، متطرف، منبطح، جامد، حداثي، ظلامي، متنطع، مداهن، متشدد.

وبدل أن يناقش الناس المعاني، ينشغلون بالملصقات. وبدل أن يسألوا: ما الدليل؟ يسألون: من أي فريق هذا الكلام؟ وبدل أن يميزوا بين الحق والباطل، يميزون بين الكلمات المحبوبة والمكروهة داخل فقاعتهم.

وهنا يفقد المصطلح وظيفته المعرفية، ويتحول إلى سلاح نفسي. لا يعود وسيلة للفهم، بل وسيلة للفرز. لا يكشف الحقيقة، بل يحجبها. لا يساعد على العدل، بل يختصر الإنسان في كلمة واحدة. وهذا من أعظم الظلم؛ لأن الإنسان أعقد من أن يختصر في وسم، والمسائل أعمق من أن تحسم بعبارة، والحق أجل من أن يحتكره قاموس جماعة أو ذوق جمهور.

علامات الخطر في التلاعب بالمصطلحات

من علامات التلاعب بالمصطلحات أن يستعمل الإنسان الكلمة الشريفة دائما لمصلحة نفسه لا لمحاسبتها. فإذا كان حادا سمى حدته غيرة، وإذا كان خائفا سمى خوفه حكمة، وإذا كان مترددا سمى تردده ورعا، وإذا كان منفعلا سمى انفعاله صدعا بالحق، وإذا كان متساهلا سمى تساهله رحمة، وإذا كان متكبرا سمى كبره عزة.

ومن علاماته أيضا أن تتغير الأسماء بحسب الأشخاص لا بحسب الأفعال. فإذا فعل الموافق فعلا سمي اجتهادا، وإذا فعله المخالف سمي انحرافا. وإذا اشتد الموافق قيل: غيور. وإذا اشتد المخالف قيل: قاس. وإذا لان الموافق قيل:

حكيم. وإذا لان المخالف قيل: مميع. وإذا أخطأ الموافق قيل: زلة عالم. وإذا أخطأ المخالف قيل: انكشاف منهج.

ومن علاماته أن تصبح المصطلحات بديلا عن الدليل. فلا يشرح الإنسان لماذا هذا الفعل خطأ، بل يكتفي بأن يضع عليه اسما قبيحا. ولا يبين لماذا هذا القول صواب، بل يضع عليه اسما جميلا. وهكذا يتحول النقاش من طلب الحق إلى معركة أسماء.

الضابط العملي

الضابط العملي هنا أن لا يكتفي الإنسان بسؤال: ما الاسم الذي أعطيه لهذا الفعل؟ بل يسأل: ما حقيقته عند الله؟ هل هو عدل أم ظلم؟ رحمة أم مداهنة؟ حزم أم قسوة؟ حكمة أم خوف؟ ثبات أم جمود؟ تجديد أم تفريغ؟ نصيحة أم تشف؟ مقاصد أم هوى؟

وليحذر الإنسان من الكلمات التي تريحه أكثر مما تزكيه. فرب كلمة جميلة منعت صاحبها من التوبة، ورب اسم شريف صار مخبأ لمرض قديم، ورب شعار ديني حجب عن صاحبه رؤية نفسه.

والتدين الراشد لا يخاف من ضبط المصطلحات؛ لأنه لا يبحث عن ألفاظ تحمي النفس، بل عن حقائق تصلحها. يعرف أن الغيرة لا تكون غيرة حتى يصحبها عدل، وأن الرحمة لا تكون رحمة حتى تصحبها أمانة، وأن الحكمة لا تكون حكمة حتى لا تخون الحق، وأن الثبات لا يكون ثباتا حتى لا يتحول إلى كبر، وأن التجديد

لا يكون تجديدا حتى يبقى وفيا للوحي، وأن النصيحة لا تكون نصيحة حتى تخلو من التشفي.

وحين يصدق الإنسان مع الله، لا يعود همه أن يجد اسما جميلا لفعله، بل أن يكون فعله جميلا في ميزان الله. فالعبرة ليست بما نسمي به أنفسنا، بل بما نحن عليه حقا. وليس الخطر أن نخطئ في المصطلح مرة، بل أن نجعل المصطلح ستارا دائما نهرب به من رؤية العيب.

ومن لم يصدق في تسمية مرضه، لن يصدق في طلب علاجه.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع.
الهروب من واجبات الحاضر إلى القضايا الآمنة

من حيل النفس الخفية أنها لا تهرب دائما من الدين إلى المعصية الصريحة، بل قد تهرب من واجب قريب إلى قضية بعيدة، ومن إصلاح حاضر إلى معركة مؤجلة، ومن مسؤولية محددة إلى شعار واسع لا يكلفها شيئا. وقد يبدو الإنسان في ظاهر الأمر منشغلا بالحق، متحمسا للدين، كثير الكلام في قضايا الأمة، شديد الغضب لله، لكنه في الحقيقة قد يكون هاربا من واجب يسكن عند بابه، ويطرق عليه قلبه كل يوم.

فليس كل انشغال بالقضايا الكبرى وعيا، ولا كل حديث عن هموم الأمة صدقا، ولا كل غضب على الباطل دليلا على حياة القلب. قد يكون ذلك كله حقا وعبادة إذا صدر عن نفس صادقة تعرف ترتيب الواجبات، وتجمع بين الهم العام والإصلاح الخاص. لكنه قد يتحول إلى غطاء نفسي إذا صار بديلا عن واجبات الحاضر: بر الوالدين، إصلاح البيت، رد المظالم، أداء الأمانة، ضبط اللسان، طلب العلم، حفظ الحقوق، التوبة من ذنب متكرر، الاعتذار لمن جرحناه، أو القيام بمسؤولية مباشرة لا يراها الناس ولا يصفقون لها.

والقضية الآمنة هي القضية التي تمنح صاحبها شعورا أخلاقيا عاليا، دون أن تطالبه بتغيير حقيقي في نفسه. يتكلم عنها كثيرا، يغضب لها كثيرا، يجمع حولها الناس، ويشعر أنه في صف الحق، لكنها لا تطلب منه أن يراجع طبعه، ولا أن يكسر كبرياءه، ولا أن يعتذر، ولا أن يرد مالا، ولا أن يصل رحما، ولا أن يترك عادة سيئة، ولا أن ينضبط في وقت، ولا أن يتحمل واجبا يوميا ثقيلا.
إنها قضية آمنة لأنها بعيدة عن موضع الامتحان الحقيقي.

قد ينشغل الإنسان بالحديث عن نصرة الأمة، وهو عاجز عن إنصاف أخيه في خصومة صغيرة. وقد يملأ صفحته بالكلام عن الظلم العالمي، وهو يظلم زوجته أو أبناءه أو موظفيه أو جيرانه. وقد يكتب عن سقوط الأخلاق في المجتمعات، وهو لا يحفظ لسانه من الغيبة والشماتة. وقد يتكلم عن خيانة النخب، وهو يخون أمانة عمله. وقد يهاجم المداهنين للباطل، وهو يداهن هواه في موضع لا يراه الناس. وقد يدافع عن الدين في الفضاء العام، وهو لم يسمح للدين أن يهذب قسوته في بيته.

وهذا لا يعني التقليل من شأن القضايا الكبرى، ولا الدعوة إلى الانكفاء على النفس وترك هموم المسلمين والناس. فالمؤمن الصادق يحمل هما واسعا، ولا يعيش لنفسه وحدها. لكن الخلل يبدأ حين تصبح القضايا الكبرى طريقا للهروب من الواجبات الأقرب، وحين تصير المعارك البعيدة بديلا عن التكاليف الحاضرة، وحين يستعمل الإنسان هم الأمة ليتهرب من إصلاح نفسه.

فالميزان ليس: هل تتكلم عن القضايا الكبرى أو لا تتكلم؟ بل الميزان: هل زادك هذا الكلام قياما بواجبك القريب؟ هل جعلك أعدل في بيتك؟ أصدق في عملك؟ أرحم بمن حولك؟ أحرص على حقوق الناس؟ أم منحك شعورا كاذبا بالفضل، حتى ظننت أن انفعالك العام يغنيك عن إصلاحك الخاص؟

ومن أخطر صور هذا الهروب أن يختار الإنسان دائما القضايا التي لا تكلفه مواجهة نفسه. فالماضي آمن؛ لأن أهله رحلوا ولا يطالبونه بشيء. والبعيد آمن؛ لأنه لا يطرق بابه في الصباح. والعدو العام آمن؛ لأنه لا يحتاج إلى اعتذار شخصي. والشعارات الكبرى آمنة؛ لأنها لا تكشف عيوب الطبع اليومي. أما الحاضر فمكلف؛ لأن فيه أما تنتظر برا، وأبا ينتظر وفاء، وزوجا ينتظر عدلا، وولدا ينتظر

رحمة، وموظفا ينتظر إنصافا، وخصما ينتظر كلمة حق، وفقيرا قريبا ينتظر عونا، وذنبا متكررا ينتظر توبة.

ولهذا قد يهرب الإنسان من حاضر صغير في عيون الناس، لكنه عظيم في ميزان الله، إلى قضية كبيرة في عيون الناس، لكنها عنده ليست إلا ستارا نفسيا. لا لأن القضية تافهة، بل لأن علاقته بها لم تكن عبودية، بل تعويضا.

حين يتحول الوعي إلى مخدر

الأصل أن الوعي يوقظ الإنسان، لكن الوعي المغشوش قد يخدره. فقد يقرأ كثيرا، ويتابع كثيرا، ويحلل كثيرا، ويغضب كثيرا، حتى يشعر أنه أدى ما عليه بمجرد المعرفة والانفعال. يظن أن فهمه للمؤامرات، وتحليله للانحرافات، وكشفه للتلاعبات، ووعيه بحركة التاريخ، كل ذلك يعفيه من السؤال الأبسط: ماذا فعلت أنت فيما تقدر عليه؟

وقد يكون الإنسان عالما بأمراض المجتمعات، جاهلا بمرض قلبه. يعرف أسباب انهيار الأمم، ولا يعرف سبب انهيار علاقته بأهله. يحلل فساد الخطاب العام، ولا يراجع فساد طريقته في الكلام. ينتقد الاستبداد السياسي، ويمارس استبدادا صغيرا داخل بيته أو عمله. يتكلم عن العدل العالمي، ويضيق بالعدل حين يطلب منه أن يعترف بخطئه.

هنا يصبح الوعي مخدرا لا منبها؛ لأنه يعطي الإنسان لذة الفهم دون مشقة التغيير. يفتح له نوافذ واسعة على العالم، لكنه يغلق عليه باب حجرته الصغيرة

التي تحتاج إلى ترتيب. يجعله يرى عيوب البعيدين بوضوح، ويمنعه من رؤية عيبه القريب.

والسوشيال ميديا تضخم هذا النمط؛ لأنها تكافئ الكلام عن القضايا الكبيرة أكثر مما تكافئ الالتزام الصامت. منشور غاضب عن قضية عامة قد يجلب مئات الإعجابات، أما اعتذار صادق لشخص ظلمته فلا يراه أحد. تعليق حاد في معركة فكرية قد يصنع لك صورة، أما ضبط لسانك عن غيبة في مجلس خاص فلا يصنع جمهورا. وهكذا تتعلم النفس أن تختار العبادة المرئية، لا العبادة التي تكسرها أمام الله.

القضايا الآمنة وصناعة الصورة الأخلاقية

القضية الآمنة تمنح صاحبها صورة أخلاقية مريحة. تجعله يبدو شجاعا دون أن يدخل موضع الخطر الحقيقي، ورحيما دون أن يرحم القريب، وعادلا دون أن ينصف خصمه، وواعيا دون أن يعمل، وغاضبا لله دون أن يغضب على نفسه حين تخالف أمر الله.

وقد تكون هذه الصورة من أخفى أبواب الرياء؛ لأن صاحبها لا يطلب بالضرورة مدح الناس بعبارة مباشرة، لكنه يطلب أن يرى نفسه في مرآة جميلة. يريد أن يشعر أنه من أهل الوعي، من أهل النصرة، من أهل الغيرة، من أهل الثبات، من أهل الموقف. وهذه المشاعر قد تكون صادقة إذا دفعت إلى العمل، لكنها تصبح خطرة إذا صارت بديلا عنه.

فالإنسان لا يبتلى فقط بما يقول، بل بما يترك. قد يقول حقا كثيرا، لكنه يترك حقا أوجب عليه. وقد ينكر منكرا بعيدا، ويألف منكرا قريبا. وقد يتألم لمآسي الناس في بلد بعيد، ولا يتألم لدمعة إنسان يعيش معه. وليس هذا تناقضا ظاهريا فحسب، بل دليل على أن النفس قد تختار من الدين ما يغذي صورتها، لا ما يصلح حقيقتها.

الفرق بين حمل الهم والهروب إليه

ليس المطلوب أن يترك الإنسان هموم الأمة، ولا أن ينشغل بذاته وحدها، ولا أن يقول: لا علاقة لي إلا بما حولي. فهذا فهم ضيق يخالف معنى النصرة والرحمة والمسؤولية العامة. لكن المطلوب أن تكون القضايا الكبرى امتدادا لصدق داخلي، لا بديلا عنه.

الذي يحمل الهم بصدق، تجده أكثر تواضعا لا أكثر صخبا. يزيده وجع الناس رحمة بمن حوله، لا قسوة عليهم. يدفعه الكلام عن العدل إلى أن يبدأ بنفسه، لا أن يستثنيها. إذا تحدث عن الظلم خاف أن يكون ظالما في موضع ما. وإذا تكلم عن الخيانة فتش في أماناته الصغيرة. وإذا بكى على حال الأمة لم ينس حال قلبه.

أما الهارب إلى القضايا الآمنة، فيستعملها كحصن يحتمي فيه من صوت الواجب القريب. كلما طولب بإصلاح نفسه فتح ملفا عاما. وكلما ذكر بخطئه الشخصي تحدث عن فساد الزمان. وكلما دعي إلى واجب مباشر قال: الأمة تحترق. وكأن احتراق الأمة يعفيه من إطفاء النار التي أشعلها في بيته، أو في قلب من ظلمه، أو في حق أضاعه.

والحق أن الواجبات لا تتزاحم بهذه السهولة في نفس صادقة. فمن عجز عن كل شيء، قدر على شيء. ومن لم يملك تغيير العالم، ملك أن يغير نفسه. ومن لم يستطع نصرة الحق في ساحة بعيدة، استطاع أن ينصره في كلمة عدل، وفي أمانة يؤديها، وفي ظلم يرفعه، وفي معروف يفعله، وفي ذنب يتركه.

الهروب إلى المعارك التاريخية

ومن صور القضايا الآمنة الانشغال المفرط بمعارك الماضي على حساب واجبات الحاضر. والتاريخ علم نافع إذا أورث بصيرة، وربط السنن بالواقع، وعلّم الإنسان كيف يفهم حركة الحق والباطل. لكنه قد يتحول إلى مخبأ نفسي إذا صار الإنسان يعيش في معارك مات أصحابها، بينما يعجز عن خوض معركة خلقه اليوم.

قد يشتد غضبه لقضية تاريخية، ويخاصم عليها الأحياء، ويمتحن بها الناس، ويجعلها معيار ولاء وبراء، ثم لا يسأل نفسه: ماذا صنعت هذه المعرفة في قلبي؟ هل زادتني عدلا؟ هل علمتني الورع؟ هل جعلتني أحفظ لساني؟ هل قربتني إلى الله؟ أم صارت مادة جديدة للتعالي والخصومة؟

ليست المشكلة في معرفة التاريخ، بل في تحويله إلى بديل عن التزكية. فالعبرة من الماضي أن يعين الإنسان على إصلاح الحاضر، لا أن يسجنه في مشاعر لا تثمر عملا. ومن لم يتعلم من التاريخ كيف يعدل اليوم، فقد أخذ من التاريخ حرارته ولم يأخذ حكمته.

الهروب إلى العدو البعيد

ومن صور الهروب أيضا أن يجعل الإنسان كل حديثه عن العدو البعيد؛ لأنه عدو لا يطالبه بتوبة شخصية. قد يكون العدو موجودا، والخطر حقيقيا، والتحذير واجبا، لكن النفس قد تتوسع في الحديث عنه لتتجنب سؤال المسؤولية الذاتية. فالعدو البعيد يفسر كل شيء، ويعفي النفس من كثير من الحرج: نحن متأخرون بسببهم، ضعفاء بسببهم، ممزقون بسببهم، فاسدون بسببهم.

ولا شك أن للأعداء أثرا، وللظلم الخارجي واقعا، وللمكر بالحق تاريخا. لكن التدين الراشد لا يسمح لهذا كله أن يتحول إلى عذر دائم يلغي واجب الإصلاح الداخلي. فقد يكون هناك عدو يتربص، لكن هناك أيضا نفس تتكاسل، وهوى يضل، وجهل ينتشر، وظلم داخلي يفتك، وفساد أخلاقي يحتاج إلى مواجهة.

الوعي بالعدو لا ينبغي أن يقتل الوعي بالذات. بل كلما عرف الإنسان خطر الخارج، ازداد حرصا على إصلاح الداخل؛ لأن الداخل المريض هو أسهل الأبواب لكل عدو.

من علامات الهروب

من علامات الهروب من واجبات الحاضر إلى القضايا الآمنة أن يكون الإنسان شديد الحماسة في الكلام العام، باردا في الواجب الخاص. يغضب للحق أمام الجمهور، ولا يغضب من نفسه إذا قصرت في حق واضح. يطالب الأمة بالنهوض، ولا ينهض هو لصلاة في وقتها، أو عمل في موعده، أو وعد قطعه، أو حق أضاعه.

ومن علاماته أنه يكثر من سؤال: ما الذي يجب على الناس؟ ويقل عنده سؤال: ما الذي يجب علي أنا؟ يتكلم عن العلماء، والدعاة، والحكام، والجماهير، والنخب، والمؤسسات، لكنه لا يذكر نفسه إلا بوصفها شاهدة على الانحراف، لا طرفا محتاجا إلى الإصلاح.

ومن علاماته أنه يختار دائما القضايا التي تمنحه شعورا بالبطولة، لا القضايا التي تكشف ضعفه. يحب الكلام عن الشجاعة، لكنه يهرب من شجاعة الاعتذار. يحب الكلام عن العدل، لكنه يضيق بعدل ينصف خصمه. يحب الكلام عن الرحمة، لكنه لا يصبر على قريب ثقيل. يحب الكلام عن الإصلاح، لكنه لا يحتمل إصلاح عادة صغيرة.

ومن علاماته أنه إذا نبه إلى واجب حاضر، شعر أن ذلك تقليل من شأن القضايا الكبرى. فإذا قيل له: أصلح بيتك، قال: وهل نترك الأمة؟ وإذا قيل له: اضبط لسانك، قال: وهل نسكت عن الباطل؟ وإذا قيل له: أنصف مخالفك، قال: وهل نلين لأهل الانحراف؟ وكأنه لا يستطيع أن يجمع بين الأمرين؛ لأن الجمع يكلفه، أما الفصل فيريحه.

الضابط العملي

الضابط العملي أن يسأل الإنسان نفسه عند كل قضية تشغله: ما نصيبي العملي منها؟ ما الواجب القريب الذي تذكرني به؟ ما الخلق الذي ينبغي أن يتغير في؟ ما الحق الذي يجب أن أؤديه؟ ما الذنب الذي يجب أن أتركه؟ ما الإنسان القريب الذي ظلمته بينما كنت أبكي على المظلومين البعيدين؟

فإن لم يجد للقضية أثرا في سلوكه، فليخف أن تكون صارت غذاء لصورة نفسية لا لطاعة حقيقية.

وليضع الإنسان لنفسه قاعدة واضحة: لا أهرب من الواجب المحدد إلى الشعار العام. ولا من القريب إلى البعيد. ولا من العمل إلى الانفعال. ولا من التوبة إلى التحليل. ولا من إصلاح نفسي إلى إدانة العالم.

فالقضايا الكبرى لا تكتمل إلا برجال ونساء صدقوا في القضايا الصغيرة. والأمة لا تنهض بأناس يملؤون المنصات غضبا، ثم يخذلون الحق في مواضعهم القريبة. والحق لا ينتصر في العالم إذا كان مهزوما في البيوت، والقلوب، والألسنة، والأمانات، والعلاقات.

ومن صدق في واجب الحاضر، بارك الله له في همه العام. ومن هرب من واجب الحاضر إلى القضايا الآمنة، فقد يجعل من الحق نفسه وسيلة للهروب من الحق. والدين لا يريد منا أن نكون شهودا غاضبين على فساد العالم فقط، بل يريدنا أن نكون مواضع صالحة يبدأ منها الإصلاح.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع.
عبادة الأشخاص والرموز الدينية

ليس المقصود بعبادة الأشخاص هنا العبادة بمعناها العقدي الصريح دائما، وإنما المقصود ذلك التعلق المرضي بالرموز حتى يفقد الإنسان قدرته على العدل، وتضعف بصيرته في التمييز بين الحق وصاحبه، وبين الخطأ وفاعله، وبين توقير أهل الفضل وتحويلهم إلى معيار مطلق لا يراجع ولا يخطئ ولا يسأل.

فمن أخطر صور التدين المغشوش أن ينتقل الإنسان من اتباع الحق إلى اتباع من يحبهم من الرجال. يبدأ الأمر غالبا بمحبة صالحة لعالم أو داعية أو شيخ أو مصلح أو مؤثر ديني نفع الله به الناس، وهذه المحبة في أصلها ليست عيبا، بل قد تكون من الوفاء لأهل العلم والفضل. لكن الخلل يبدأ حين تتحول المحبة إلى تعطيل للعقل، وإلغاء للميزان، ورد للحق إذا جاء من غير المحبوب، وقبول للخطأ إذا صدر ممن نحبه.

والفرق كبير بين توقير العالم وعبادة الرمز. توقير العالم يجعلك تحفظ قدره وتنتفع بعلمه وتدعو له وتلتمس له العذر في مواضع الاجتهاد، أما عبادة الرمز فتجعلك ترى قوله فوق النقد، وخطأه اجتهادا دائما، وصواب غيره فتنة أو تلبيسا. توقير العالم يجعلك تقول: هذا عالم جليل، يصيب ويخطئ. أما عبادة الرمز فتجعلك تقول بلسان الحال: لا يكون الحق إلا معه، ولا يخطئ إلا من خالفه.

وفي السوشيال ميديا تتضخم هذه الآفة؛ لأن المنصات لا تصنع علما فقط، بل تصنع نجوما، وتمنح بعض الأشخاص هالة نفسية كبيرة. تتكرر صورهم، وتنتشر

مقاطعهم، وتتضخم حولهم الجماعات، ويصبح الدفاع عنهم جزءا من هوية أتباعهم. ومع الوقت لا يعود النقاش حول المسألة نفسها، بل حول مكانة الشخص: هل أنت معه أو ضده؟ هل تحبه أو تهاجمه؟ هل تنتمي إلى مدرسته أو إلى خصومه؟

وهنا يتحول الدين من طلب للدليل إلى اصطفاف حول الرمز. فإذا تكلم الرمز صفق الناس قبل أن يفهموا. وإذا أخطأ بحثوا له عن ألف تأويل. وإذا خالفه غيره لم يسألوا: ما الحجة؟ بل سألوا: من أنت حتى تخالفه؟ وإذا تراجع الرمز عن قول سابق اضطربوا، لا لأن الحق تغير، بل لأن هويتهم كانت معلقة بشخص لا بمبدأ.

ومن علامات هذه الآفة أن يصبح الإنسان قاسيا على خصوم شيخه أكثر من قسوته على الباطل نفسه. يفرح بزلاتهم، ويكبر أخطاءهم، ويشكك في نياتهم، ويعد كل نقد لرمزه حربا على الدين أو السنة أو الدعوة أو المنهج. وربما كان النقد في محله، وربما كان بأدب، وربما كان في مسألة اجتهادية، لكن التعلق بالرمز يمنع القلب من الإنصاف.

ومن علاماتها أيضا أن يتبدل الحكم بتبدل القائل. فإذا قال المحبوب كلاما شديدا قيل: صدع بالحق. وإذا قاله غيره قيل: قسوة وتنفير. وإذا لان المحبوب قيل: حكمة ومراعاة. وإذا لان غيره قيل: تمييع ومداهنة. وإذا اجتهد المحبوب فأخطأ قيل: له سلف، وله فضل، وله نية صالحة. وإذا وقع المخالف في خطأ قريب قيل: هذا انحراف قديم، وسقوط متوقع، وكشف لحقيقة المنهج.

وهذا من الظلم؛ لأن العدل لا يتغير بحسب المحبوب والمكروه. فالحق لا يصبح حقا لأن من قاله شخص نحبه، ولا يصبح باطلا لأن من قاله شخص نكرهه.

والخطأ لا يتحول إلى صواب لأن صاحبه محبوب، ولا الصواب يتحول إلى خطأ لأن صاحبه مخالف. والتدين الصادق يعلم الإنسان أن ينصر الحق ولو جاء على يد من لا يحب، وأن يرد الخطأ ولو صدر ممن يحب.

ولا يعني هذا أن نساوي بين العلماء والجهال، أو أن نهدم مكانة أهل الفضل، أو أن نفتح الباب لكل متطاول على العلماء والدعاة. فهذا باب آخر من الفساد. فحفظ المقامات من الدين، ومعرفة أقدار الناس من العقل والخلق، والطعن في أهل العلم بغير علم من علامات الجهل والهوى. لكن حفظ المقامات لا يعني صناعة العصمة، ومحبة العلماء لا تعني إلغاء الدليل، والدفاع عن الفضل لا يعني ستر الخطأ إذا احتاج إلى بيان.

ومن أعظم ما يختبر صدق الإنسان في هذا الباب أن يرى الخطأ فيمن يحب، ثم لا يظلمه ولا يقدسه. يحفظ فضله، ويعرف خطأه، ولا يفرح بإسقاطه، ولا يكذب دفاعا عنه. وكذلك يرى الصواب فيمن يخالف، فلا يمنعه الخلاف من الاعتراف به. وهذه منزلة دقيقة لا يثبت فيها إلا من جعل الحق فوق الأشخاص، وجعل محبة الأشخاص تابعة لمحبة الحق.

وقد تكون عبادة الرمز في جهة التعصب، وقد تكون في جهة التمييع. فالمتعصب قد يتعلق بشيخ صارم يرى فيه صورة الحارس النهائي للدين، فيدافع عن شدته ولو ظلم. والمميع قد يتعلق بمؤثر لطيف مقبول اجتماعيا يرى فيه صورة الدين العصري الجميل، فيدافع عن تمييعه ولو فرغ الحق من معناه. وكلاهما لم يتحرر من عبودية الصورة، وإن اختلفت الصورة.

والضابط العملي هنا أن يسأل الإنسان نفسه: هل أقبل من شيخي أو رمزي ما لا أقبله من غيره؟ هل أغضب للنقد الموجه إليه أكثر مما أغضب للحق نفسه؟ هل أبحث عن الدليل أم عن تبرير موقف من أحب؟ هل أستطيع أن أقول: أخطأ وله فضل؟ وهل أستطيع أن أقول عن المخالف: أصاب في هذه وله ما له وعليه ما عليه؟

فإن عجز عن ذلك، فليخف أن يكون قد انتقل من اتباع الحق إلى التعلق بالأشخاص.

والدين الراشد يربي في القلب محبة أهل الفضل دون تقديسهم، وتوقير العلماء دون عبادتهم، والانتفاع بالدعاة دون الذوبان فيهم. فالأشخاص أبواب إلى الحق، وليسوا بديلا عنه. ومن جعل الشخص طريقا إلى الله انتفع به، ومن جعله حجابا عن العدل افتتن به.

ومن تمام الوفاء لأهل العلم ألا نحملهم ما لا يطيقون من العصمة، وألا نجعل الدفاع عنهم دفاعا عن أخطائهم، وألا نسيء إليهم باسم محبتهم؛ فالعالم الرباني لا يريد أتباعا يعبدون صورته، بل طلاب حق يعبدون الله.

فقدان فقه الأولويات

من آفات التدين المغشوش أن يختل ميزان الأولويات في نفس صاحبه، فيكبر الصغير، ويصغر الكبير، ويعظم الهامشي، ويهمل الجوهري، ويتحول الدين من سلم مراتب إلى فوضى انفعالات. فيغضب الإنسان لقضية محدودة غضبا لا

يغضبه لظلم عظيم، وينشغل بزلة فردية أياما طويلة، ثم يمر على فساد أوسع أو واجب أوجب كأنه لا يعنيه.

وفقه الأولويات ليس ترفا فكريا، بل هو من تمام البصيرة في الدين؛ لأن الواجبات ليست في مرتبة واحدة، والمنكرات ليست في درجة واحدة، والمصالح ليست سواء، والمفاسد ليست سواء. وليس العاقل من يعرف أن هذا خطأ وهذا صواب فقط، بل من يعرف ما الذي يقدم وما الذي يؤخر، وما الذي يعلن وما الذي يسر، وما الذي يعالج الآن وما الذي يحتاج إلى تدرج، وما الذي يستحق الغضب العام وما الذي يكفي فيه النصح الهادئ.

على السوشيال ميديا يضطرب هذا الفقه كثيرا؛ لأن المنصات لا ترتب القضايا بحسب أهميتها عند الله، بل بحسب قابليتها للانتشار. قد تصعد قضية صغيرة لأنها مثيرة، وقد تختفي قضية عظيمة لأنها معقدة أو لا تصلح للجدل السريع. وقد يصبح خطأ لفظي في مقطع قصير حديث الناس، بينما تضيع قضايا أعمق تتعلق بالظلم، والجهل، والفساد، وضياع الحقوق، وضعف التربية، وانهيار البيوت، وفساد القلوب.

وهنا يترب المتلقي والمتصدر معا على ميزان مختل: ما ينتشر فهو مهم، وما يثير الغضب فهو خطير، وما يكثر حوله الكلام فهو أولوية. وهذا ميزان مغشوش؛ لأن كثرة الضجيج لا تعني عظمة القضية، وقلة الكلام لا تعني صغرها، وانتشار الوسم لا يجعله أولى من واجب صامت لا يراه الناس.

ومن مظاهر فقدان فقه الأولويات أن ينشغل الإنسان بإسقاط شخص أكثر من انشغاله بتصحيح الفكرة. فتصبح المعركة حول الاسم، لا حول المعنى. يفرح

الناس إذا سقط فلان، لكنهم لا يتعلمون ما الصواب. ينتهي الجدل وقد تمزقت الأعراض، واتسعت الشماتة، واشتعلت الخصومات، بينما بقي الجهل كما هو، وربما زاد.

ومن مظاهره أيضا أن يتحول الدين إلى سلسلة ردود لا مشروع بناء. كل يوم رد، وكل أسبوع تحذير، وكل شهر إسقاط، لكن لا تعليم مستقر، ولا تزكية هادئة، ولا بناء للقلوب، ولا تربية للعقول، ولا إصلاح للأخلاق. وهذا خلل عميق؛ لأن الأمة لا تبنى بالردود وحدها، وإن كانت الردود أحيانا واجبة. تبنى بالعلم، والرحمة، والصبر، والمؤسسات، والقدوة، وحسن التعليم، وطول النفس.

ومن مظاهره كذلك تضخيم المخالف القريب وإهمال المنكر البعيد الأثر. قد يشتد الإنسان على خطأ أخيه في صياغة أو عبارة، ثم يلين أمام ظلم واضح لأنه لا يريد خسارة جمهور، أو لأنه يخاف من كلفة المواجهة، أو لأن القضية لا تمنحه التفاعل المطلوب. وهنا لا يكون الميزان هو الحق، بل الراحة النفسية أو المكسب الاجتماعي.

وفقدان الأولويات يظهر أيضا في الخلط بين مقام الدعوة ومقام الخصومة. فليس كل جاهل يعامل كمعاند، وليس كل مخطئ يعامل كمفسد، وليس كل متأثر بشبهة يعامل كصاحب مشروع هدم. بعض الناس يحتاج إلى تعليم، وبعضهم يحتاج إلى احتواء، وبعضهم يحتاج إلى حوار، وبعضهم يحتاج إلى إنكار، وبعضهم يحتاج إلى تحذير. ومن سوى بين هذه المقامات ظلم الدين والناس معا.

وقد يظن بعض الناس أن فقه الأولويات مدخل إلى التمييع، وهذا خطأ. ففقه الأولويات لا يلغي الإنكار، بل يمنعه من الفوضى. لا يلغي الحزم، بل يجعله في

موضعه. لا يسكت عن الباطل، لكنه يسأل: ما أفضل طريق لرفعه؟ لا يضيع الحق، لكنه يراعي مراتب الحق. أما الذي يصرخ في كل شيء بالطريقة نفسها، فهو لا يدل على قوة غيرته بقدر ما يدل على ضعف ميزانه.

وفي الجهة المقابلة، قد يستعمل المميع فقه الأولويات للهروب من كل واجب مزعج. فإذا طلب منه بيان حق قال: هناك ما هو أولى. وإذا دعي إلى إنكار منكر قال: ليست هذه معركتنا. وإذا واجه نصا واضحا قال: الأولوية للرحمة. حتى يصبح فقه الأولويات اسما مؤدبا للتفلت من التكاليف. وهذا تلاعب لا يقل خطرا عن فوضى المتعصب.

فالضابط أن فقه الأولويات ليس ما يوافق مزاجنا، بل ما يدل عليه العلم والعدل والنظر في المصالح والمفاسد. وهو لا يعني ترك الصغير دائما، ولا الاشتغال بالكبير دائما، بل يعني وضع كل شيء في قدره. فقد يكون الصغير خطيرا إذا دل على أصل فاسد أو انتشر أثره، وقد يكون الكبير مؤجلا إذا كان الكلام فيه الآن يزيد الفتنة ولا يحقق مصلحة. لذلك يحتاج هذا الباب إلى علم وورع، لا إلى انفعال ولا إلى مداهنة.

ومن علامات سلامة الأولويات أن يزيد اشتغال الإنسان بالقضايا العامة من إصلاحه للواجبات الخاصة. وأن يعرف أن حفظ اللسان أولى من الانتصار في جدل، وأن العدل مع المخالف أولى من كسب جمهور، وأن تعليم الناس أولى من إحراقهم بالفضائح، وأن إصلاح القلب أولى من تحسين الصورة، وأن هداية المخطئ أولى من التشفي فيه.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان قبل أن يدخل في معركة دينية رقمية: هل هذه القضية في حجم الضجيج حولها؟ هل الكلام فيها الآن يحقق مصلحة أو يزيد فسادا؟ هل أملك علما كافيا بها؟ هل هناك واجب أقرب أهرب منه؟ هل أتعامل مع شخص أم فكرة؟ هل أريد الإصلاح أم الانتصار؟ وهل لو لم يعرف الناس موقفي كنت سأغضب لله بالقدر نفسه؟

فإن لم يجد جوابا مطمئنا، فليتوقف؛ فليس كل صمت جبنا، وليس كل مشاركة نصرة، وليس كل حضور في المعارك عبادة.

والتدين الراشد لا يعيش بلا أولويات. يعرف أن الدين بحر واسع، وأن العمر قصير، وأن القلب محدود الطاقة، وأن اللسان مسؤول، وأن كل كلمة ستعرض على الله. ومن عرف مراتب الأشياء نجا من فوضى المنصات، ومن ضاعت أولوياته صار أسيرا لما يفرضه الضجيج لا ما يطلبه الحق.

الآفات المشتركة بين المتعصب والمميع.
الاحتراق الروحي والدعوي

من الآفات الخفية في التدين على الواقع الرقمي أن يتحول الدين من مصدر سكينة وبصيرة إلى مصدر توتر دائم، ومن طريق إلى الله إلى ساحة إنهاك لا تنتهي. يدخل الإنسان إلى المنصات يريد نصرة الحق، أو تعليم الناس، أو متابعة أحوال الدعوة، فإذا به بعد مدة يعيش في حالة اشتعال مستمر: قضية بعد قضية، ورد بعد رد، وفضيحة بعد فضيحة، وتحذير بعد تحذير، حتى يضعف قلبه، ويجف خشوعه، وتتعب نفسه، ويصبح الدين عنده مرادفا للقلق والمعركة.

هذا ما يمكن تسميته بالاحتراق الروحي والدعوي. وهو ليس ضعفا في أصل المحبة للدين دائما، بل قد يصيب أصحاب الهم الصادق حين يفقدون التوازن، ويخلطون بين حمل الرسالة وحمل العالم كله على أكتافهم. وقد يصيب المتصدرين، والدعاة، والكتاب، وطلاب العلم، بل حتى المتابعين الذين يستهلكون يوميا جرعات هائلة من الغضب والخوف والجدل.

فالإنسان محدود الطاقة، وقلبه يحتاج إلى عبادة هادئة كما يحتاج إلى نصرة معلنة، ويحتاج إلى خلوة كما يحتاج إلى مخالطة، ويحتاج إلى علم صبور كما يحتاج إلى ردود وقتية، ويحتاج إلى بكاء بين يدي الله كما يحتاج إلى بيان أمام الناس. فإذا أخذت المنصات منه كل طاقته، ولم تترك له وقتا ليتزود، صار كمن يحمل المصباح للناس بينما الزيت ينفد من داخله.

ومن علامات الاحتراق الروحي أن يفقد الإنسان لذة العبادة الخفية. يصبح نشيطا في النشر، فاترا في الصلاة. حاضرا في الجدل، غائبا في الخلوة. قادرا على كتابة

منشور مؤثر عن الإخلاص، عاجزا عن لحظة صدق لا يراها أحد. يكثر كلامه عن أمراض القلوب، لكنه لا يجد وقتا لعلاج قلبه. وهنا يكون الخطر عظيما؛ لأن الدعوة التي لا تتغذى من العبادة تتحول مع الوقت إلى أداء اجتماعي مرهق.

ومن علاماته أيضا أن يضعف الحلم. فالإنسان المحترق يصبح سريع الانفعال، ضيق الصدر، قليل الاحتمال، يرى كل سؤال استفزازا، وكل مخالفة خيانة، وكل نقد طعنا، وكل تأخر في الفهم دليلا على فساد الناس. لم يعد يتعامل مع الخلق بوصفهم مرضى يحتاجون إلى رحمة، بل بوصفهم عبئا يثقل عليه. وهذا من آثار الإنهاك؛ لأن النفس إذا تعبت ضاق وعاؤها، فإذا ضاق الوعاء قلت الرحمة.

ومن علاماته أن تتشابه القضايا في عينه. كل شيء خطير، وكل شيء عاجل، وكل شيء مصيري. لا يستطيع أن يقول: هذه مسألة تحتمل، وهذه تؤجل، وهذه لا تعنيني، وهذه أتركها لمن هو أعلم، وهذه لا تستحق أن أخسر قلبي من أجلها. إنسان كهذا لا يعيش الدين بميزان، بل يعيش المنصة كغرفة إنذار لا تنطفئ.

والاحتراق الدعوي قد يصيب الإنسان حين يظن أن تركه لبعض المعارك خيانة. يشعر أنه يجب أن يعلق على كل حدث، ويرد على كل خطأ، ويحذر من كل شخص، ويثبت موقفه في كل قضية. وهذا وهم ثقيل. فليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال يقال الآن، وليس كل ما يحدث يحتاج إلى حضورك، وليس كل من سكت قصر، وليس كل من تكلم نصر.

وقد يكون من فقه النفس أن يغيب الإنسان أحيانا ليحفظ قلبه، وأن يسكت ليحفظ لسانه، وأن يترك معركة لا يحسنها لمن يحسنها، وأن يشتغل بفرض

عينه قبل كفاية غيره، وأن يدرك أن الدين لا يقوم على فرد واحد، وأن الله لم يكلفه أن يكون حارسا على العالم كله.

ومن أخطر صور الاحتراق أن يظن الإنسان أن قسوته دليل إخلاصه، مع أنها ربما تكون نتيجة إنهاكه. قد يقول: لم أعد أحتمل الناس. والحقيقة أنه لم يعد يملك زادا روحيا يعينه على احتمالهم. وقد يقول: الناس لا يستحقون اللين. والحقيقة أن قلبه هو الذي جف من كثرة الاحتكاك والجدل والغضب. وقد يقول: لا بد من الشدة. والحقيقة أنه يحتاج إلى راحة وعبادة وصحبة صالحة ومراجعة.

والعلاج ليس ترك الدعوة، ولا الانسحاب من نصرة الحق، ولا إطفاء الغيرة الصادقة، بل إعادة ترتيب العلاقة بين الظاهر والباطن. لا بد من نصيب ثابت من العبادة التي لا تتحول إلى محتوى، ومن علم لا يراد به الجدل، ومن صحبة تذكر بالله لا بالمعارك، ومن صمت يرد للنفس توازنها، ومن إغلاق مؤقت للأبواب التي لا يدخل منها إلا الصخب.

ومن العلاج أن يفرق الإنسان بين ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه. فكثير من الاحتراق يأتي من محاولة حمل ما لم يكلفنا الله حمله. ترى منكرا لا تستطيع تغييره، وتتابع كارثة لا تملك لها دفعا، وتدخل في جدل لا ينتهي، فتستهلك روحك في دائرة العجز. أما التدين الراشد فيعلمك أن تبذل الممكن، وتدعو، وتنصح، وتعمل، ثم تسلم ما لا تقدر عليه لله.

ومن العلاج أيضا أن يعود الإنسان إلى الأعمال الصغيرة الثابتة. ورد قرآن لا ينشره. ركعتان لا يصورهما. صدقة لا يعرفها أحد. اعتذار صادق. زيارة رحم. تعليم هادئ

لشخص واحد. ستر مسلم. إصلاح خلق. هذه الأعمال تعيد للدين روحه في القلب؛ لأنها تخرج الإنسان من سوق الصورة إلى مقام العبودية.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان نفسه: هل زادني حضوري الدعوي قربا من الله أم بعدا؟ هل صرت أرحم أم أقسى؟ هل صرت أهدأ أم أعنف؟ هل بقي لي نصيب من عبادة لا يراها أحد؟ هل صرت أفرح بهداية الناس أم بانتصاري عليهم؟ هل أستطيع أن أترك معركة لله كما أدخل معركة لله؟

فإن وجد أن قلبه يجف، ولسانه يقسو، وصلاته تضعف، ونفسه لا تهدأ إلا في الخصومة، فليتوقف قبل أن يحترق باسم النصرة.

فالدين ليس طاقة غضب لا تنتهي، بل طريق إلى الله فيه جهاد وصبر، وفيه سكينة ورحمة، وفيه بيان وإنكار، وفيه خلوة وخشوع. ومن لم يحفظ قلبه في الطريق، قد يصل إلى الناس بكلام كثير، لكنه يصل إلى الله بقلب منهك قليل الحياة.

ما يطلبه الجمهور
المتلقي المغشوش وصناعة موجات الغضب

ليس التدين المغشوش صناعة المتصدرين وحدهم. فكما يوجد متكلم مغشوش، يوجد متلق مغشوش. وكما أن هناك من يصنع خطابا قاسيا أو مائعا أو استعراضيا، فهناك جمهور يطلب هذا الخطاب، ويكافئه، وينشره، ويحميه، ويغضب له، ويصنع من أصحابه نجوما. ولذلك فإن نقد الخطاب الديني الرقمي لا يكتمل إذا انشغل بالمتصدر فقط، ونسي المتلقي الذي يمنحه القوة والانتشار.

فالمتلقي ليس بريئا دائما. قد يقول: أنا مجرد متابع، لم أكتب، لم أفت، لم أهاجم. لكنه يضغط زر الإعجاب، ويعيد النشر، ويعلق بسخرية، ويشارك في تضخيم الفضيحة، ويطلب المزيد من الردود، ويفرح بالمعارك، ويتنقل بين الحسابات بحثا عن جرعة جديدة من الغضب. وهذا كله مشاركة في صناعة المناخ، وإن لم يظهر صاحبها في الواجهة.

فالمتصدر القاسي لا يكبر وحده، بل يكبر بجمهور يحب القسوة. والمستعرض لا ينتشر وحده، بل ينتشر بجمهور يكافئ الاستعراض. والمميع لا يتمدد وحده، بل يتمدد بجمهور يريد دينا بلا كلفة. وصانع الفتن لا يعيش وحده، بل يعيش على عيون تتابع، وآذان تسمع، وأيد تعيد النشر، وقلوب تستلذ بالخصومة.

ومن هنا تنشأ موجات الغضب الديني. تبدأ أحيانا بمنشور، أو مقطع مبتور، أو تعليق حاد، أو تلميح غامض، ثم يتلقفه الجمهور، فيعيد نشره، ويضيف إليه، ويعلّق عليه، ويضخ فيه الانفعال، حتى يتحول الخطأ المحدود إلى عاصفة،

والزلة الصغيرة إلى قضية كبرى، والخصومة الشخصية إلى معركة بين الحق والباطل.

وقد تكون القضية في أصلها حقيقية، والخطأ واقعا، والتحذير منه مشروعا، لكن موجة الجمهور قد تنقلها من مقام البيان إلى مقام التشفي، ومن مقصد الإصلاح إلى لذة الاصطفاف، ومن ضبط الخطأ إلى تمزيق الإنسان. وهنا لا يعود الخطر في كلام المتصدر وحده، بل في الجمهور الذي يحوله إلى نار واسعة.

ومن أخطر صور المتلقي المغشوش أنه لا يبحث عن الحق بقدر ما يبحث عن الشعور. يريد منشورا يجعله غاضبا، أو متفوقا، أو مطمئنا إلى جماعته، أو منتصرا على خصومه. لا يقرأ ليسأل: هل هذا عدل؟ بل يقرأ ليسأل: هل هذا يخدم موقفي؟ لا يطلب البيان، بل يطلب من يؤكد غضبه. فإذا وجد كلاما منصفا هادئا تركه، وإذا وجد كلاما حادا مشتعلا نشره؛ لأن النفس أحيانا لا تحب الدواء، بل تحب ما يهيج مرضها.

ومن علاماته أنه يفرح بالإسقاط أكثر من فرحه بالهداية. إذا نشر أحدهم فضيحة، تابعها بشغف. وإذا نشر أحدهم اعتذارا، مر عليه ببرود. وإذا رجع المخطئ، لم يفرح برجوعه؛ لأنه كان قد استثمر نفسيا في سقوطه. وربما ضاق بأي محاولة للإنصاف؛ لأن الإنصاف يفسد عليه لذة الخصومة.

ومن علاماته أيضا أنه يطلب من المتصدر أن يكون حادا دائما، فإذا هدأ اتهمه بالضعف، وإذا أنصف اتهمه بالتراجع، وإذا اعتذر اتهمه بالسقوط، وإذا سكت اتهمه بالمداهنة. وهكذا يدفع الجمهور المتصدرين دفعا إلى مزيد من القسوة أو التمييع. فالخطيب لا يفسد وحده أحيانا؛ بل يفسده جمهور يصفق لمرضه.

وقد يصنع الجمهور من المتصدر سجينا لصورة معينة. فإذا اشتهر بالشدة، طالبه الناس بمزيد من الشدة، وخاف أن يفقد مكانته إذا رحم أو تأنى أو أنصف.

وإذا اشتهر باللطف، طالبه الناس بمزيد من اللطف، وخاف أن يفقد صورته إذا حزم أو أنكر أو بيّن. وهكذا يصبح المتصدر أسيرا لما يطلبه جمهوره، لا لما يطلبه الحق.

ومن صور المتلقي المغشوش أنه لا يتحقق. يرى مقطعا مبتورا فيغضب، وعبارة منزوعة من سياقها فيحكم، وصورة مرفقة بتعليق مضلل فينشر، ثم يقول: أنا ناقل فقط. وليس في الدين ناقل بلا مسؤولية. من نقل ظلما شارك فيه، ومن نشر كذبا أعان عليه، ومن وسع دائرة فتنة بغير تثبت لم يعذره أنه لم يكن صاحبها الأول.

وقد يكون المتلقي مميعا كما يكون متعصبا. فهناك من لا يريد من الخطاب الديني إلا ما يريحه. إذا سمع نصا واضحا قال: لا تنفروا الناس. وإذا سمع حكما شرعيا ثقيلا قال: الدين يسر. وإذا وجد من يفرغ المعاني من تكاليفها صفق له، لأنه يمنحه تدينا بلا مواجهة مع الهوى. وهذا المتلقي يصنع نجوما من نوع آخر:

نجوم اللطف الزائف، والتمييع الأنيق، والدين الذي لا يطلب من صاحبه شيئا. فالجمهور ليس كتلة واحدة. هناك جمهور يريد الصراخ، وجمهور يريد التخدير. جمهور يعبد الشدة، وجمهور يعبد اللين. جمهور لا يرضى إلا بسحق المخالف، وجمهور لا يرضى إلا بإلغاء كل حد. وكلاهما يمارس ضغطا على المتصدرين، حتى يصبح الخطاب الديني أحيانا استجابة لرغبات السوق لا لأمانة الدين.

والخوارزميات تزيد هذا الخلل رسوخا؛ لأنها لا تميز بين غيرة صادقة وغضب مريض، ولا بين بيان نافع وتشهير جارح، ولا بين نصيحة عادلة وفتنة مشتعلة. هي تكافئ ما يثير الناس، وما يبقيهم أطول وقت، وما يدفعهم إلى التفاعل. فإذا لم يزك المتلقي نفسه، صار جزءا من هذه الآلة: يرى، وينفعل، وينشر، ثم يظن أنه نصر الحق، وهو ربما نصر الخوارزمية وشهوة الجمهور.

ومن هنا يحتاج المتلقي إلى تزكية كما يحتاج المتصدر. يحتاج أن يسأل نفسه: لماذا أتابع هذا الحساب؟ هل لأنه يعلمني ويزكيني، أم لأنه يغذي غضبي؟ لماذا أنشر هذا المقطع؟ هل لأنه يبين حقا، أم لأنه يفضح خصما؟ لماذا أفرح بهذا الرد؟ هل لأنه نافع، أم لأنه مؤلم لمن أكره؟ لماذا أرفض هذا الكلام الهادئ؟ هل لأنه باطل، أم لأنه لا يشبع انفعالي؟

ومن أدب التلقي ألا يجعل الإنسان قلبه مكبا لنفايات المعارك. ليس كل ما ينشر يستحق أن يدخل قلبك. وليس كل جدل يستحق وقتك. وليس كل تحذير يستحق خوفك. وليس كل قضية تستحق أن تنقلها إلى بيتك ومزاجك وصلاتك ونومك. فالقلب وعاء، وما يدخله يترك أثرا، ومن أكثر من متابعة الغضب صار غضبه عادة، ومن أكثر من متابعة الشبهات ضعف يقينه، ومن أكثر من متابعة الفضائح قسا قلبه.

ومن أدب التلقي أن تفرق بين العالم والمشهور، وبين قوة الحجة وقوة الأداء، وبين انتشار المقطع وصحة المعنى، وبين كثرة المتابعين وصدق الطريق. فكثير من الناس يظن أن من كثر حضوره كثر علمه، ومن علا صوته علت حجته، ومن انتشر كلامه ثبتت مكانته. وهذه مقاييس المنصة لا مقاييس الحق.

ومن أدب التلقي أيضا أن لا تكون وقودا في موجة لم تتحقق من بدايتها. فالموجات الرقمية كثيرا ما تبدأ بغضب ناقص المعلومات، ثم تتضخم بالتكرار، ثم يصعب إيقافها بعد أن تظهر الحقيقة؛ لأن الجمهور لا يحب الاعتراف بأنه شارك في ظلم. لذلك كان التثبت قبل المشاركة عبادة، وكان التوقف عند الاشتباه ورعا، وكان حذف المنشور بعد ظهور الخطأ واجبا أخلاقيا لا نقصا في المكانة.

ومن أخطر ما يصنعه الجمهور المغشوش أنه يسرق من الناس حق الرجوع. فإذا اعتذر المخطئ سخروا منه، وإذا صحح المتكلم اتهموه بالجبن، وإذا أنصف الناقد قالوا: تراجع تحت الضغط. وهكذا يربون المتصدرين على الإصرار، لا على التوبة. والبيئة التي لا ترحم المعتذر تصنع منافقين وخائفين ومكابرين.

والجمهور الصالح على العكس من ذلك. يفرح بالحق، لا بانتصار فريقه. يفرح برجوع المخطئ، لا باستمرار سقوطه. يعين المتصدر على العدل، لا يدفعه إلى القسوة. يطلب البيان، لا الفضيحة. يطلب الحجة، لا الصراخ. يفرح بمن يقول: أخطأت، كما يفرح بمن يقول: أصبت. لأنه يعرف أن الرجوع إلى الحق من علامات الحياة، لا من علامات السقوط.

والضابط العملي للمتلقي أن يتوقف قبل الإعجاب والنشر كما يتوقف المتصدر قبل الكلام. يسأل: هل تحققت؟ هل في النشر مصلحة؟ هل فيه ظلم لأحد؟ هل أعين على إصلاح أم على فتنة؟ هل هذا الكلام يقربني إلى الله أم إلى جماعة غضب؟ هل لو سئلت عنه بين يدي الله أجد جوابا؟

ومن الضوابط العملية كذلك أن يسأل: هل أتابع هذا المحتوى لأنه يبني قلبي وعقلي، أم لأنه يطعم انفعالي؟ هل صرت بعد متابعته أرحم وأعدل وأصدق، أم

صرت أكثر توترا وقسوة وسوء ظن؟ هل زادني هذا الحساب علما وعبادة، أم زادني خصومات وتصنيفات؟ هل أخرج من المنصة بقلب أقرب إلى الله، أم بقلب ممتلئ بالاشتعال؟

إن مسؤولية المتلقي ليست صغيرة. فرب كلمة ظالمة ماتت لو لم ينشرها الناس، ورب فتنة بردت لو لم ينفخ فيها الجمهور، ورب متصدر قاس لان لو لم يجد من يصفق لقسوته، ورب مميع توقف لو لم يجد من يكافئ تمييعه.

والتدين على الواقع الرقمي الراشد لا يحتاج إلى متصدرين صالحين فقط، بل يحتاج إلى جمهور صالح: جمهور لا يصفق للباطل لأنه يوافق هواه، ولا ينشر الظلم لأنه ضد خصمه، ولا يطلب من الدعاة أن يبيعوا له ما يحب، بل يعينهم على العدل، ويذكرهم إذا جاروا، ويفرح بالحق ولو خالف مزاجه.

فكما يسأل المتكلم: ماذا أقول؟ يجب أن يسأل المتلقي: ماذا أسمع؟ وماذا أنشر؟ وماذا أصنع بخطاب غيري في قلبي وقلوب الناس؟

ومن لم يكتب كلمة الظلم، لكنه نشرها، فقد شارك فيها. ومن لم يشعل النار، لكنه حمل إليها الحطب، فليس بعيدا عن دخانها. ومن أراد السلامة لدينه، فليتق الله في عينيه وأذنيه وأصابعه، فإنها اليوم تشهد كما يشهد اللسان.

أثر التدين المغشوش على الناس والدين

لا يفسد التدين المغشوش صاحبه وحده، بل يفسد علاقة الناس بالدين نفسه. ذلك أن العامة لا يملكون دائما القدرة على التفريق بين الدين في نقائه، وبين صورة الدين حين يحملها إنسان لم تزك نفسه، أو لم يتهذب لسانه، أو لم يتحرر من حظوظه النفسية. فإذا رأوا قسوة وظلما وتشهيرا وشماتة وتكبرا باسم الدين، ظن بعضهم أن هذه هي طبيعة الدين. وإذا رأوا مداهنة وتمييعا وخجلا من النصوص باسم الرحمة والانفتاح، ظن آخرون أن الدين لا يملك حقيقة واضحة، ولا حدودا مستقرة، ولا قدرة على هداية الإنسان إلا بقدر ما يرضى عنه الناس.

ومن هنا يكون أثر التدين المغشوش مضاعفا؛ لأنه يضرب الدين من جهتين. جهة التشدد التي تجعل الدين في أعين الناس سوطا، وجهة التمييع التي تجعله في أعينهم كلاما سائلا بلا قوة ولا تكليف. فالأول ينفر الناس من الدين بقسوته، والثاني يفرغ الدين من مضمونه بمداهنته. الأول يجعل المتدين مرهوبا لا محبوبا، والثاني يجعل التدين مقبولا لأنه بلا كلفة. وكلاهما يضعف صورة الدين في النفوس؛ لأن الدين الحق ليس قسوة بلا رحمة، ولا رحمة بلا حق.

ومن أخطر آثار التدين المغشوش أنه يربي جيلا مشوشا في فهم معنى الالتزام. فبعض الشباب يظن أن التدين قوة صوت، وكثرة خصومات، وتتبع زلات، وتصنيف للناس، وجرأة على العلماء والدعاة والمخالفين. وبعضهم الآخر يظن أن التدين لا بد أن يكون ناعما إلى حد الذوبان، لا يذكر حلالا ولا حراما، ولا يعرف معروفا ولا منكرا، ولا يثبت أمام ضغط الجمهور. وهكذا يتوزع الناس بين صورتين مشوهتين: تدين متوتر يرى الحق في الخصومة، وتدين مائع يرى النجاة في إرضاء الناس.

كما أن التدين المغشوش يضعف الثقة في أهل العلم والدعوة والإصلاح. فحين تتحول الساحة الرقمية إلى مجال للاتهام المتبادل، والتشهير، والقص واللصق، ولي عنق النصوص، أو إلى مجال للمجاملات الفكرية والتأويلات المتكلفة طلبا للقبول، يفقد الناس الثقة في الخطاب الديني كله. لا يعودون يعرفون من يتبعون، ولا من يصدقون، ولا أين ينتهي العلم ويبدأ الهوى، ولا أين تنتهي الرحمة وتبدأ المداهنة، ولا أين ينتهي الحزم وتبدأ القسوة.

ومن آثاره كذلك أنه يجرئ غير المؤهلين على الكلام في الدين. فمن جهة، يرى المتابع الصغير من يصنف الناس ويحاكم النيات ويتكلم في العلماء، فيظن أن باب الجرح والتحذير مفتوح لكل أحد. ومن جهة أخرى، يرى من يعيد تأويل النصوص بلا أدوات، ويذيب الأحكام باسم المقاصد والإنسانية، فيظن أن النصوص قابلة للتشكيل حسب المزاج العام. وهكذا يجتمع في الساحة نوعان من الجرأة: جرأة المتشدد على الخلق، وجرأة المميع على النص.

والأخطر من ذلك أن التدين المغشوش يفسد علاقة الإنسان بنفسه. فصاحبه قد يظن أنه يزداد قربا من الله بينما هو يزداد قربا من صورته أمام الناس. قد يظن أنه يحمي الدين، وهو يحمي مكانته. قد يظن أنه يرحم الناس، وهو يخاف من اعتراضهم. قد يظن أنه يغار للحق، وهو يغار لذاته. قد يظن أنه يجدد الخطاب، وهو يهرب من سلطان النص. وقد يظن أنه يقاوم التمييع، وهو يستعمل مقاومة التمييع ذريعة للقسوة والظلم.

ولذلك فإن خطر هذه الظاهرة ليس في أخطائها الجزئية فقط، بل في أنها تغير معنى التدين في الوعي العام. تجعل الدين عند بعض الناس معركة دائمة، وعند

آخرين تجربة شعورية بلا تكليف. تجعله عند قوم هوية صراعية لا عبودية، وعند قوم هوية ذائبة لا خصوصية لها. تجعله عند قوم أداة للهيمنة، وعند قوم أداة للقبول الاجتماعي. وبين هؤلاء وهؤلاء يضيع المعنى الأعظم: أن الدين جاء ليزكي النفس، ويهدي العقل، ويهذب السلوك، ويقيم العدل، ويرحم الخلق، ويحرر الإنسان من عبودية نفسه والناس إلى عبودية الله وحده.

علامات الخطر في الخطاب الديني الرقمي

من أراد أن يختبر خطابه الديني على السوشيال ميديا، فلا يكفي أن يسأل: هل ما أقوله عليه دليل؟ بل ينبغي أن يسأل أيضا: بأي نفس أقول الدليل؟ ولماذا أنشره؟ وماذا أصنع به؟ وهل أستعمله للهداية أم للغلبة؟ وهل أخضع له أم أخضعه لما أريد؟

فالخطاب الديني الرقمي قد ينحرف في اتجاهين متقابلين: اتجاه القسوة والتعصب، واتجاه التمييع والمداهنة. وعلامات الخطر لا تظهر فقط في الشتائم والتشهير، بل تظهر أيضا في الخجل من الحق، وإخفاء النص، وإعادة تأويل الدين حتى يصبح مقبولا بلا كلفة.

ومن أسئلة المحاسبة التي يحتاجها المتصدر والمتابع على السواء:

- هل أفرح بانتشار الحق أكثر من فرحي بانتشار اسمي؟
- هل أحزن على المخطئ أم أستلذ بسقوطه؟
- هل أفرح بتوبة المخالف أم أضيق برجوعه لأن رجوعه يفسد علي معركتي؟
- هل أذكر حسنات من أنتقده، أم أريد أن يراه الناس شرا محضا؟
- هل أقبل أن يراجعني أحد بالطريقة نفسها التي أراجع بها الناس؟
- هل أبحث عن الدليل أم عن الانتصار؟
- هل أبحث عن الحق أم عن القبول؟
- هل أترك النشر أحيانا خوفا من الظلم، أم أنشر كل ما يخدم موقفي؟

- هل أغير العبارة رحمة بالناس، أم أغير المعنى خوفا منهم؟
- هل زادني هذا الطريق خشوعا وورعا، أم زادني قسوة وحدة؟
- هل جعلني أكثر صدقا، أم أكثر براعة في تبرير نفسي؟
- هل أستطيع الاعتذار علنا إذا أخطأت علنا؟
- هل أتثبت من النقل قبل المشاركة؟
- هل أفرق بين البيان والفضيحة؟
- هل أفرق بين المداراة والمداهنة؟
- هل أستعمل المقاصد لفهم النصوص، أم للهروب منها؟
- هل أستعمل الرحمة لهداية المخطئ، أم لإلغاء معنى الخطأ؟
- هل أسأل أهل العلم قبل الكلام في المسائل الكبيرة؟
- هل أخاف من ظلم المخالف كما أخاف من انحرافه؟
- هل أخاف من تحريف النص كما أخاف من سوء عرضه؟
- هل أستعمل النصوص لأهدي الناس أم لأقهرهم؟
- هل أخفي النصوص حتى لا أخسر صورة اجتماعية صنعتها لنفسي؟
- هل أصبحت المنصة تزيدني قربا من الله، أم تزيدني تعلقا بالجمهور؟

هذه الأسئلة تكشف للإنسان ما لا تكشفه أرقام التفاعل. فقد يصفق الناس لك وأنت تخسر قلبك، وقد يمدحون لطفك وأنت تفرغ الحق من مضمونه، وقد يهاجمونك وأنت أقرب إلى العدل، وقد يعجبون بشدتك وهي في حقيقتها قسوة. فالميزان الحقيقي ليس المنصة، ولا الجمهور، ولا الجماعة، ولا صورة الإنسان عن نفسه، بل الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومن أخطر علامات الخطر أن يفقد الإنسان قدرته على التوبة من أسلوبه؛ لأن القضية التي يدافع عنها شريفة. أو يفقد قدرته على الصدق في بيان الحق؛ لأن الجمهور الذي يخاطبه حساس. ففي الحالتين صارت النفس حاكمة على الدين: مرة باسم الغيرة، ومرة باسم الحكمة. والنجاة أن يبقى الدين حاكما على النفس في الغيرة والحكمة معا.

أدب الرجوع والاعتذار

من أعظم علامات صدق التدين أن يملك الإنسان شجاعة الرجوع إذا بان له الخطأ، وأن يرى الاعتذار عبادة لا هزيمة، ونجاة لا سقوطا، وقوة لا ضعفا. فالنفس المغشوشة لا تخاف من الخطأ بقدر ما تخاف من انكشافه، ولا تحزن لأنها خالفت الحق بقدر ما تحزن لأنها قد تفقد صورتها أمام الناس.

ولهذا كان الرجوع إلى الحق اختبارا عميقا. فكثيرون يستطيعون الكلام عن التواضع، لكنهم يعجزون عن قول: أخطأت. وكثيرون يطالبون الناس باتباع الدليل، فإذا جاء الدليل على خلاف قولهم ضاقوا به. وكثيرون يحذرون من الكبر، لكنهم لا يحتملون أن يراجعهم أحد. وكثيرون يتكلمون عن الإخلاص، لكنهم إذا وقفوا أمام الجمهور صار الرجوع أثقل عليهم من الاستمرار في الخطأ.

في السوشيال ميديا يصبح الاعتذار أشد صعوبة؛ لأن الخطأ لا يقع في مجلس صغير، بل أمام جمهور، وربما أمام خصوم ينتظرون، وأتباع يراقبون، ومخالفين يفرحون، ومحبين يخافون. وهنا تتحول المنصة إلى قيد نفسي. يقول الإنسان في داخله: ماذا سيقول الناس؟ كيف أرجع وقد قلت؟ كيف أعتذر وقد دافعت؟ كيف أعترف وقد جعلني الناس رمزا؟ كيف أصحح وقد بنى أتباعي مواقفهم على كلامي؟

وهكذا يصبح الإنسان أسيرا لصورة صنعها أو صنعها الناس له. لم يعد يبحث عن رضا الله وحده، بل عن طريقة لا يخسر بها هيبته. وقد يختار ألف طريق للهروب: يغير الموضوع، أو يهاجم من نصحه، أو يتهم الناقد بسوء النية، أو يقول إن كلامه

فهم خطأ، أو يصحح نصف تصحيح، أو يعتذر بعبارة ملتبسة لا تعترف بشيء، أو يدفن الاعتذار في كلمات كثيرة حتى لا يظهر.

والتدين الصادق لا يعرف هذا الالتواء. إذا بان الحق رجع إليه بحسب قدر البيان، لا يطلب لنفسه مخرجا كاذبا، ولا يحمل الناس مسؤولية خطئه، ولا يجعل التوضيح ستارا للكبر. يقول بأدب: أخطأت، أو قصرت، أو لم أحسن التعبير، أو تسرعت، أو نقلت بغير تثبت، أو ظلمت فلانا، أو كان الأولى أن أسكت، أو تبين لي أن الأمر بخلاف ما قلت.

وليس كل رجوع يلزم أن يكون فضيحة للنفس، ولا كل خطأ يحتاج إلى إعلان واسع؛ فالأمر يقدر بقدره. ما كان خاصا صحح في خاص، وما كان عاما صحح في عام، وما ترتب عليه ضرر واسع احتاج إلى بيان واسع. لكن الأصل أن يكون التصحيح في مستوى أثر الخطأ. فمن نشر خطأ على الناس لا يكفي أن يصححه في نفسه فقط، ومن ظلم شخصا علنا لا يكفي أن يعتذر له سرا إذا بقي أثر الظلم علنا.

ومن أدب الرجوع ألا يتحول الاعتذار إلى دفاع جديد عن النفس. بعض الناس يعتذر بطريقة تجعلك تشعر أنه لم يعتذر. يبدأ بكلمة: أعتذر، ثم يقضي بقية الكلام في تبرير موقفه، وشرح حسن نيته، واتهام من فهمه، وتذكير الناس بفضله، وتصوير نفسه ضحية. وهذا ليس اعتذارا صافيا، بل محاولة لإنقاذ الصورة بأقل خسارة.

الاعتذار الصادق مختصر في جوهره، واضح في مسؤوليته، رحيم بمن تضرر، غير متعال على الناصحين. لا يشترط أن يذل الإنسان نفسه، ولا أن يسمح للناس أن

ينهشوه، لكنه يعترف بالقدر الذي أخطأ فيه دون مراوغة. فالتواضع ليس إهانة للنفس، بل تحرير لها من عبودية الصورة.

ومن أدب الرجوع أيضا أن لا يتعامل الناس مع اعتذار المخطئ كأنه فرصة لذبحه. فكما أن الخطأ يحتاج إلى تصحيح، فالرجوع يحتاج إلى احتضان. إذا اعتذر الإنسان بصدق، فلا ينبغي أن نغلق عليه الباب، أو نعايره باعتذاره، أو نحوله إلى دليل دائم على سقوطه. فمن فعل ذلك فقد أعان الناس على الإصرار، ولو زعم أنه ينصر الحق.

كثير من الناس لا يرجعون لأنهم يرون كيف يفتك الجمهور بمن رجع. فإذا أخطأ أصر، لا لأنه لا يعرف الحق، بل لأنه يخاف أن يبتلعه الناس إذا اعترف. وهذا لا يعذره عند الله، لكنه يكشف مرض البيئة. فالبيئة الصالحة تجعل الرجوع ممكنا، وتحفظ للمعتذر كرامته، وتفرق بين من يرجع بصدق ومن يناور، وبين الزلة العارضة والمنهج الفاسد.

ومن آفات المتعصب أنه يرى الاعتذار ضعفا، ومن آفات المميع أنه يحول الاعتذار إلى كلام عاطفي بلا تصحيح حقيقي. المتعصب يستكبر أن يقول: أخطأت، لأنه بنى صورته على الصلابة التي لا تلين. والمميع يقول: أعتذر إن كان أحد قد فهم، دون أن يبين الحق أو يصلح الضرر. والتدين الراشد بينهما: شجاعة في الاعتراف، ووضوح في التصحيح، وأمانة في تحمل التبعة.

وقد يحتاج الرجوع إلى أكثر من كلمة. فمن أفسد معنى احتاج أن يبين الصواب. ومن ظلم إنسانا احتاج أن يرد اعتباره. ومن نشر تهمة احتاج أن يرفعها. ومن

حرض على قسوة احتاج أن يطفئ ما أشعل. ومن علم الناس خطأ احتاج أن يعلمهم الصواب. فالاعتذار ليس عبارة تجميلية، بل مسؤولية إصلاحية.

ومن علامات صدق الاعتذار أن يتغير السلوك بعده. أما من يعتذر ثم يعود إلى الأسلوب نفسه، ويكرر الظلم نفسه، ويقع في التسرع نفسه، فقد يكون اعتذاره استراحة مؤقتة لا توبة صادقة. الرجوع الحق يترك أثرا: مزيدا من التثبت، ومزيدا من التواضع، ومزيدا من الخوف من الكلمة، ومزيدا من الرحمة بمن يخطئ.

والضابط العملي أن يسأل الإنسان نفسه إذا بان له الخطأ: هل أبحث عن الحق أم عن مخرج يحفظ صورتي؟ هل أخاف من الله أم من تعليقات الناس؟ هل لو كان الخطأ على خصمي لقبلت منه هذا الاعتذار؟ هل صححت الأثر كما صححت العبارة؟ هل رددت اعتبار من ظلمته؟ هل شكرت من نصحني ولو كان قاسيا في أسلوبه؟

وليس الرجوع إلى الحق نقصا في المقام، بل رفعة. فالذي يرجع يعلم الناس أن الحق أكبر من الأشخاص، وأن الصدق أحب إليه من صورته، وأن الدين الذي يدعو إليه قد رباه فعلا. أما الذي يصر على الخطأ حفاظا على هيبته، فقد خسر من هيبته عند الله ما هو أعظم من كل هيبة عند الناس.

إن أجمل ما في الاعتذار الصادق أنه يكسر صنم النفس. يقول الإنسان لنفسه: لست أكبر من الحق، ولست فوق النصيحة، ولست معصوما، ولست مطالبا بأن أبدو كاملا. أنا عبد أخطئ وأصيب، وأحتاج إلى رحمة الله ونصح الناس.
ومن تعلم أدب الرجوع، سلم من كثير من التدين المغشوش؛ لأن النفس التي تستطيع أن تقول: أخطأت، يصعب عليها أن تعبد صورتها طويلا.

نحو تدين رقمي راشد

لسنا بحاجة إلى ترك السوشيال ميديا، ولا إلى إسكات الصوت الديني فيها، ولا إلى تحويل الدين إلى شأن خاص لا أثر له في المجال العام. فالمنصات يمكن أن تكون باب خير واسع: تعليم، وتذكير، ونصرة مظلوم، وكشف شبهة، ونشر علم، وربط الناس بالقرآن والسنة، وتيسير الوصول إلى العلماء، وتحريك القلوب إلى الله. لكنها تحتاج إلى أخلاق تضبطها؛ لأن الوسيلة التي تضخم الخير قد تضخم الشر، والتي تنشر العلم قد تنشر الهوى، والتي تقرب الناس من الحق قد تقربهم من صور مشوهة عنه.

والتدين على الواقع الرقمي الراشد يبدأ من أصل عظيم: أن يكون الإنسان عبدا لله قبل أن يكون صانعا للمحتوى، أو صاحب حساب، أو عضوا في جماعة، أو وجها مقبولا عند الجمهور. فإذا حضر هذا الأصل، انضبطت الغيرة، وانضبطت الرحمة، وانضبط الحزم، وانضبط اللين.

1. ومن أصول هذا التدين الراشد أن يكون الأصل في الخطاب طلب الهداية لا طلب الغلبة. فليس المقصود أن أكسر خصمي، بل أن أبين الحق. وليس المقصود أن أزيد متابعيني، بل أن أزيد صدقي. وليس المقصود أن أظهر أنني أشجع من غيري، بل أن أكون أعدل أمام الله.

2. ومن أصوله أن يكون البيان بقدر الحاجة لا بقدر شهوة الانتشار. فليست كل زلة تصلح أن تتحول إلى قضية، وليست كل قضية تصلح أن تتحول إلى معركة، وليست كل معركة تصلح أن تتحول إلى وسم، وليست كل كلمة تحتمل الخطأ يجوز أن تصنع منها إدانة كاملة لصاحبها.

3. ومن أصوله أن يكون النقد للخطأ لا لتدمير الإنسان. فالخطأ يرد، والباطل يبين، والشبهة تكشف، لكن لا يجوز أن يتحول ذلك إلى تلذذ بالإهانة، أو إغلاق لباب الرجوع، أو إهدار لكل فضل، أو صناعة جمهور يتغذى على سقوط الناس.

4. ومن أصوله كذلك أن يكون التحذير عند الحاجة منضبطا بالعلم والعدل، لا منقادا للغضب والجمهور. فالتحذير ليس هواية، ولا بطاقة عضوية في جماعة، ولا طريقا مختصرا للمكانة. هو باب خطير لا يدخله الإنسان إلا بقدر علمه، وبقدر الحاجة، وبقدر ما يغلب على ظنه أن المصلحة فيه راجحة.

5. ومن أصول التدين على الواقع الرقمي الراشد أن يكون الرفق طريقا إلى الحق لا بديلا عنه. فاللين مطلوب، وحسن العرض مطلوب، ومراعاة أحوال الناس مطلوبة، لكن لا يجوز أن تتحول هذه المعاني إلى مداهنة. فليس من الرحمة أن نخفي ما يحتاج الناس إلى معرفته، وليس من الحكمة أن نغير معنى النص حتى لا يغضب الجمهور، وليس من التجديد أن نفرغ الدين من تكاليفه ليبدو مناسبا لكل الأذواق.

6. ومن أصوله أن نفرق بين القطعي والاجتهادي، وبين النص وفهم النص، وبين الحكم العام وتنزيله على الأعيان، وبين الرحمة والمداهنة، وبين الحزم والقسوة، وبين المداراة والتنازل، وبين المقاصد المنضبطة وتديين الهوى باسم المقاصد.

7. ومن أصوله أن يكون التثبت سابقا على المشاركة، خاصة في أعراض الناس وفي النصوص الشرعية. فلا ينشر الإنسان مقطعا حتى يعرف سياقه، ولا ينقل فتوى حتى يفهم محلها، ولا يقتطع كلام عالم ليخدم موقفا مسبقا، ولا يسقط حكما عاما على شخص معين دون معرفة الشروط والموانع، ولا يجعل النصوص مطية لمعركة نفسية أو اجتماعية.

8. ومن أصوله أن يكون للإنسان ورد من محاسبة نفسه بقدر ما له من حضور في نقد غيره. فمن أكثر الكلام في الناس وقل كلامه مع نفسه، اختل ميزانه. ومن أكثر من الردود وقل نصيبه من العبادة الخفية، قسا قلبه. ومن أكثر من مراعاة الجمهور وقل خوفه من الله، ذاب صدقه. ومن أكثر من الحديث عن الرحمة ولم يلتزم بالحق، صارت رحمته صورة لا هداية.

9. ومن الرشد أيضا أن يعرف الإنسان قدر نفسه. ليس كل متابع مؤهلا للفتوى، ولا كل غيور مؤهلا للتحذير، ولا كل قارئ مؤهلا للتصنيف، ولا كل من حفظ مقطعا صار حارسا على الأمة، ولا كل من تعلم شيئا من لغة المقاصد صار مؤهلا لإعادة تأويل الدين. من رحمة الله بالعبد أن يعرف حدوده، وأن يترك ما لا يحسن، وأن يحيل إلى أهل العلم، وأن يتأدب قبل أن يتصدر.

والتدين على الواقع الرقمي الراشد لا يعني الصمت الدائم، ولا الكلام الدائم. لا يعني اللين المطلق، ولا الشدة المطلقة. لا يعني موافقة الجمهور، ولا استفزازه. بل يعني أن يكون الإنسان حرا من سلطان نفسه والناس قدر استطاعته؛ يتكلم

حين يكون الكلام عبادة، ويسكت حين يكون السكوت أزكى، ويحزم حين يكون الحزم رحمة، ويلين حين يكون اللين أهدى، ويثبت حين يكون التنازل خيانة، ويراجع نفسه حين يخاف أن تكون غيرته أو رحمته قد اختلطت بحظ من حظوظ النفس.

ميثاق المسلم على السوشيال ميديا

من الكف عن الأذى إلى صناعة النفع

لسنوات طويلة كنت أفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" على أنه دعوة إلى كف الأذى، وأن المسلم الصادق هو من لا يخرج من لسانه قول يجرح، ولا من يده فعل يظلم. وهذا فهم صحيح جليل، بل هو أصل عظيم من أصول الأخلاق؛ إذ لا يليق بمن ينتسب إلى الإسلام أن يكون مصدر خوف أو قلق أو أذى لمن حوله.

وفي زمن السوشيال ميديا صار هذا المعنى أشد إلحاحا؛ لأن اللسان لم يعد صوتا يخرج في مجلس محدود، بل صار منشورا وتعليقا ومشاركة ورسالة وصورة ومقطعا ينتقل في لحظات إلى مئات أو آلاف الناس. وصارت اليد لا تؤذي بالبطش وحده، بل قد تؤذي بزر مشاركة، أو تعليق ساخر، أو نشر فضيحة، أو إعادة تداول اتهام، أو تحريك موجة غضب لا يعرف صاحبها أين تنتهي.

فمن تمام الإسلام اليوم أن يسلم الناس من لسانك الرقمي ويدك الرقمية: من تغريدتك، وتعليقك، ومشاركتك، وحكمك المتعجل، وفرحك بسقوط غيرك، واستسهالك لعرض أخيك، ونقلك لما لم تتحقق منه.

لكن في الحديث أفقا أوسع من مجرد منع الضرر. فالمسلم لا يقف عند مرتبة أن يسلم الناس من شر لسانه ويده، بل يرتقي إلى أن يسلموا بسبب لسانه ويده. أي أن يكون كلامه سببا في الهداية والإصلاح والطمأنينة، وأن يكون فعله سببا في

النصرة والعون ودفع الضرر. وبهذا لا نلغي المعنى الأصلي، بل نرتقي منه: من كف الأذى إلى صناعة السلام.

فاللسان لا يكتمل فقط حين يصمت عن الغيبة والبهتان والسخرية، بل حين ينطق بالحق، ويصلح بين الناس، ويواسي مكسورا، ويعلم جاهلا، ويذكر غافلا، ويدفع فتنة، ويطفئ نارا كادت تشتعل. واليد لا تكتمل فقط حين تكف عن الظلم، بل حين تمتد بالعون، وتكتب خيرا، وتنشر علما، وتبني معروفا، وتسد حاجة، وتحمي ضعيفا، وتدفع أذى عن طريق الناس.

وعلى المنصات، لا يكفي أن تقول: أنا لا أشتم، ولا أفضح، ولا أسيء. هذا أصل لازم، لكنه ليس نهاية التدين على الواقع الرقمي الراشد. السؤال الأعلى: هل أبني؟ هل أنفع؟ هل أفتح باب خير؟ هل أداوي جرحا؟ هل أعلم مسألة؟ هل أهدئ فتنة؟ هل أرد الناس إلى العدل؟ هل أجعل حضوري الرقمي سببا في زيادة الرحمة والعلم والطمأنينة؟

فرق كبير بين إنسان لا يؤذي، وإنسان يصبح وجوده أمانا. الأول كف شره، والثاني فاض خيره. الأول ترك الناس يسلمون منه، والثاني جعل الناس يسلمون به. وهذه هي المسافة بين الحد الأدنى من الأخلاق والحد الأعلى من الرسالة. فالمعنى الأول هو الأصل اللازم: كف الأذى. والمعنى الثاني هو المقصد الأكمل: بذل النفع.

إن التدين المغشوش قد يكتفي أحيانا بصورة الامتناع: لا أظلم، لا أشتم، لا أخوض. أما التدين الراشد فيسأل عن الأثر: ماذا صنعت؟ من علمت؟ من رحمت؟ من نصرت؟ أي نار أطفأت؟ أي حق حفظت؟ أي قلب جبرت؟ أي معنى صالح غرسته؟

فالمسلم الحق لا يعيش في الحياة كجدار صامت لا يضر أحدا فحسب، بل كنبع يترك حوله شيئا من الطمأنينة. إذا تكلم كان كلامه سببا في سلامة عقل أو قلب أو علاقة. وإذا عمل كان عمله سببا في حفظ حق أو رفع ظلم أو جبر خاطر أو إصلاح حال. وإذا حضر على المنصات لم يزد الضجيج ضجيجا، بل حاول أن يكون موضع بيان ورحمة وسكينة.

والإسلام لا يريد منا أن نكون كائنات محايدة لا تؤذي فقط، بل يريد منا أن نكون مفاتيح خير، مغاليق شر؛ تمر بنا القلوب فتطمئن، وتقترب منا النفوس فلا تخاف، وتقرأ كلماتنا فتزداد بصيرة لا اشتعالا، وتخرج من حضورنا وفيها شيء من نور لا شيء من غبار الخصومة.

وهذا الفهم يجعل المسلم يسأل نفسه كل يوم: هل سلم الناس مني فقط، أم سلموا بي أيضا؟ هل كان لساني صامتا عن الشر فحسب، أم ناطقا بما يحفظ ويصلح؟ هل كانت يدي بعيدة عن الأذى فقط، أم قريبة من المعروف؟ هل مررت في حياة الناس بلا ضرر، أم تركت وراءك أثرا من رحمة وسلام؟

وفي العالم الرقمي يمكن ترجمة هذا السؤال إلى صورة أوضح: هل صفحتي مجرد مساحة لا تخلو من المخالفات، أم صارت بابا من أبواب النفع؟ هل تعليقاتي لا تجرح فقط، أم تفتح فهما؟ هل مشاركاتي لا تنشر كذبا فقط، أم تنشر علما ووعيا؟ هل وجودي بين الناس يخفف التوتر، أم يضيف إلى التوتر صمتا باردا؟ هل أنا فقط لا أحمل الحطب إلى النار، أم أسعى إلى إطفائها؟

كف الأذى بداية الطريق، لكنه ليس نهايته. فالنفوس الكبيرة لا تكتفي بألا تكون سببا في الجرح، بل تطمح أن تكون سببا في الشفاء. ولا تكتفي بألا تهدم، بل تحرص أن تبني. ولا تكتفي بألا تخيف، بل تسعى أن تمنح الأمان. ولا تكتفي بألا تنشر باطلا، بل تجتهد أن تنشر حقا ورحمة وعلما وعدلا.

وهكذا يمكن أن نفهم الحديث في مرتبتين متكاملتين: مرتبة السلامة من الشر، ومرتبة السلامة بالخير. الأولى أن يسلم الناس من أذاك، والثانية أن يسلموا بسبب نفعك. وبين المرتبتين تتفاوت منازل الناس في الإسلام والأخلاق والإحسان.

ومن أراد تدينا رقميا راشدا، فليجعل هذا الحديث ميزانا لحضوره كله: هل يسلم الناس من لساني ويدي؟ ثم: هل يسلمون بلساني ويدي؟ فإن تحقق الأول فقد دخل باب الأدب، وإن طلب الثاني فقد دخل باب الإحسان.

فليس التدين على الواقع الرقمي الراشد أن يصمت الإنسان دائما خوفا من الخطأ، ولا أن ينسحب من المنصات كأنها شر محض، ولا أن يكتفي بأن لا يظلم ولا يشهر ولا يشمت. فالكف عن الأذى أصل عظيم، لكنه ليس نهاية الطريق. وإنما التدين الراشد أن يتحول حضور المسلم الرقمي إلى باب من أبواب النفع، والتعليم، والتزكية، والإصلاح، وبناء الوعي، وتخفيف الشر، وزيادة الخير.

فالمنصات ليست محرابا للذات، ولا ساحة للخصومات، ولا سوقا للغضب، ولا مسرحا لصناعة الصورة فقط. يمكن أن تكون، إذا صدقت النية وانضبطت الوسيلة، بابا من أبواب الدعوة، وجبرا للخواطر، ونشرا للعلم، وتعليما للناس، وتذكيرا بالله، وتعاونا على الخير، وإحياء لمعاني الرحمة والعدل والأمانة.

ومن هنا يحتاج المسلم إلى ميثاق أخلاقي يحكم وجوده في هذا الفضاء، لا يكتفي بسؤال: ماذا أتجنب؟ بل يسأل أيضا: ماذا أبني؟ ماذا أضيف؟ ماذا أداوي؟ ماذا أعلم؟ ماذا أصلح؟ ماذا أترك خلفي من أثر طيب؟

اجعل النية قبل النشر لا بعده

أول ميثاق المسلم الرقمي أن يسأل نفسه قبل كل مشاركة: لماذا أكتب؟ هل أريد وجه الله، أم أريد أن أظهر؟ هل أريد بيان الحق، أم أريد الانتصار لنفسي؟ هل أريد نفع الناس، أم أريد أن يعرفوا أنني حاضر؟ هل أكتب لأن الكلام واجب، أم لأن الصمت يشعرني بأنني غائب؟

فالنية في المنصة لا تقل خطرا عن النية في المنبر والمجلس. ورب منشور صغير عظم عند الله لصدق صاحبه، ورب منشور واسع الانتشار خف وزنه لأنه لم يخرج من قلب صادق. وليس المطلوب أن يفتش الإنسان في نفسه حتى يعجز عن العمل، بل أن يتعاهد قلبه، ويجدد قصده، ويذكر نفسه أن القبول الحقيقي ليس في عدد الإعجابات، بل في رضا الله.

انشر ما يبني لا ما يثير فقط

من آفات المنصات أنها تكافئ المثير أكثر مما تكافئ النافع. لذلك كان من ميثاق المسلم ألا يجعل معيار النشر هو قابلية الكلام للانتشار، بل قابليته للنفع. ليس كل ما يثير الناس يبنيهم، وليس كل ما يحصد التفاعل يصلح قلوبهم، وليس كل ما يجعل الحساب حاضرا يجعل صاحبه أقرب إلى الله.

انشر علما نافعا، فكرة هادئة، تذكرة صادقة، تجربة مفيدة، تصحيحا أمينا، تلخيصا لكتاب، معنى من القرآن، خلقا نبويا، مبادرة خير، بابا للتعلم، دعوة إلى صلح، أو كلمة تخفف عن إنسان. فالمسلم لا يكون رقما إضافيا في سوق الضجيج، بل يكون موضع سكينة ونفع حيث استطاع.

قدّم البديل ولا تكتف بالنقد

النقد وحده لا يبني. قد يكون واجبا أحيانا، لكنه إذا صار هو اللغة الوحيدة أفسد النفس والجمهور. لذلك من تمام الرشد أن لا تكتفي بقول: هذا خطأ، بل حاول أن تقول: وهذا هو الطريق الأصوب. لا تكتف بهدم التصور الفاسد، بل ابذل جهدا في بناء التصور الصحيح. لا تكتف بكشف الخلل، بل دل الناس على ما يفعلون بعده.

فإذا انتقدت خطابا قاسيا، فقدم نموذجا للبيان الرحيم. وإذا انتقدت تمييعا، فقدم نموذجا للحزم العادل. وإذا حذرت من شبهة، فاشرح أصل المسألة بلغة مفهومة. وإذا بينت خطأ شائعا، فاجعل القارئ يخرج من منشورك بعلم أو ضابط أو سؤال محاسبة، لا بمجرد غضب جديد.

اجعل صفحتك شاهدة على ما تحب لا فقط على ما ترفض

بعض الحسابات لا يعرف الناس منها إلا خصومها. تعرف من تهاجم، ولا تعرف ماذا تبني. تعرف ما ترفض، ولا تعرف ما تحب. وهذا يجعل التدين هوية صراعية لا عبودية حية.

من ميثاق المسلم أن يكون في حضوره الرقمي نصيب من الجمال والبناء: حديث عن الإيمان، وعن الرحمة، وعن العمل، وعن العلم، وعن الأسرة، وعن الأخلاق، وعن بر الوالدين، وعن ضبط اللسان، وعن الإحسان في العمل، وعن خدمة الناس، وعن التوبة، وعن الأمل. فالدين ليس قائمة أعداء، بل طريق حياة.

لا تجعل المنصة تأكل خلواتك

من أخطر ما يصيب المتدين الرقمي أن يزداد حضوره أمام الناس ويضعف حضوره بين يدي الله. يكتب كثيرا عن الإخلاص، ويقل نصيبه من الخلوة. يتكلم عن القرآن، ويقل ورده. يرد على المخالفين، ويضعف دعاؤه لهم. يشتعل في المعارك، وتنطفئ سكينته.

لذلك من ميثاق المسلم أن يحفظ عبادة لا تتحول إلى محتوى، وعملا صالحا لا يراه الناس، ووقتا مع القرآن لا يصير مادة للنشر، وصدقة لا تدخل في الصورة، ودعاء لا يسمعه إلا الله. فمن لم يكن له رصيد خفي، خاف على علانيته أن تصير ثقلا عليه.

راقب أثر متابعتك كما تراقب أثر نشرك

ليس الخطر في ما تنشر فقط، بل في ما تستهلك. بعض الناس لا يكتب شرا، لكنه يملأ قلبه كل يوم بالغضب والشك والشماتة والخصومات. يتابع الحسابات التي تهيجه، ثم يتعجب من قسوة قلبه. يستهلك الفضائح، ثم يتعجب من ضعف ستره للناس.

فاسأل نفسك: هل الحسابات التي أتابعها تزيدني علما ورحمة وعدلا؟ أم تزيدني توترا وسوء ظن؟ هل أخرج منها أقرب إلى الله، أم أقرب إلى الخصومة؟ هل صرت بسببها أهدأ وأبصر، أم أسرع في الحكم وأضيق بالناس؟

ومن الرشد أن ينظف الإنسان بيئته الرقمية كما ينظف مجلسه وبيته. فليس كل من يرفع شعار الدين يصلح أن يكون غذاء يوميا لقلبك.

تأن قبل المشاركة فإن أصابعك تشهد

الضغط على زر المشاركة ليس فعلا بسيطا كما يتوهم الناس. قد تنشر ظلما، أو توسع فتنة، أو تشارك في كسر إنسان، أو تحمل كذبة إلى مئات الناس. ومن قال: أنا ناقل فقط، نسي أن النقل فعل ومسؤولية.

من ميثاق المسلم ألا يشارك خبرا حتى يتثبت، ولا مقطعا حتى يعرف سياقه، ولا اتهاما حتى يتبين، ولا فضيحة حتى يسأل: هل في نشرها مصلحة شرعية راجحة؟ وليس الورع أن تكون أول من نشر، بل ربما كان الورع أن تكون أول من توقف.

اجعل الستر أصلا والبيان استثناء بقدره

الأصل في عورات الناس الستر، والأصل في النصيحة أن تكون أرحم الطرق إلى التصحيح. لكن الستر لا يعني حماية الظلم، والبيان لا يعني استباحة الإنسان. لذلك من ميثاق المسلم أن يوازن بين الستر والبيان: يستر ما أمكن، وينصح ما

أمكن، ويبين عند الحاجة بقدر الحاجة، ولا يزيد على المقصود، ولا يفرح بانكشاف العورات.

فإذا اضطررت إلى التحذير، فاجعل مقصدك حماية الناس لا تحطيم المخطئ. وإذا اضطررت إلى ذكر الخطأ، فلا تضف إليه ما ليس منه. وإذا تحقق المقصود، فلا تستمر في الطرق على الجرح. وإذا رجع المخطئ، فافرح برجوعه ولا تحزن لفقدان مادة الهجوم.

كن عادلا مع من لا تحب

العدل على المنصات من أصعب العبادات؛ لأن الجماهير تكافئ الانحياز، لا الإنصاف. لكن المسلم لا يعبد مزاج الجمهور. من ميثاقه أن يقول الحق ولو صدر من مخالف، وأن يرد الخطأ ولو صدر من محبوب، وأن يحفظ للناس أقدارهم، وأن لا يختصر الإنسان في زلة.

إذا أخطأ من تحب، فقل: أخطأ وله ما له وعليه ما عليه. وإذا أصاب من تخالف، فقل: أصاب في هذا. هذا ليس ضعفا في الولاء، بل قوة في العبودية. فالحق أعز من الأشخاص، والعدل أوسع من الجماعات.

لا تجعل جمهورك يربيك على القسوة أو التمييع

قد يفسد الجمهور المتصدر من حيث لا يشعر. فإذا اعتاد الناس منك الشدة، طلبوا منك مزيدا من الشدة. وإذا اعتادوا منك اللطف المطلق، طلبوا منك مزيدا من التنازل. وهنا يصبح الإنسان أسيرا للصورة التي صنعها.

من ميثاق المسلم أن لا يسمح لجمهوره أن يكون ربه الصغير. لا يشتد لأنهم يريدون الشدة، ولا يلين لأنهم يريدون اللين، بل ينظر في الحق والمصلحة والعدل. فإن احتاج المقام إلى حزم حزم، وإن احتاج إلى رفق رفق، وإن احتاج إلى صمت صمت، وإن احتاج إلى اعتذار اعتذر.

اجعل التعليق بابا للخير لا منفذا للنفس

كثير من شر المنصات في التعليقات لا في المنشورات. تعليق ساخر، كلمة جارحة، تلميح بنية، استفزاز، شماتة، أو مشاركة في موجة غضب. لذلك يحتاج المسلم أن يراقب تعليقه كما يراقب مقاله.

إذا علقت، فليكن تعليقك إضافة لا إيذاء. سؤالا يفتح فهما، أو تصحيحا بأدب، أو دعاء بخير، أو تنبيها هادئا، أو كلمة تصلح ولا تفسد. وإذا شعرت أن التعليق سيخرج من حظ نفسك، فالصمت أزكى.

تعلّم قبل أن تتصدر

المنصة تغري الإنسان أن يتكلم في كل شيء، وأن يعلق على كل حادث، وأن يصير خبيرا في كل باب. لكن التدين الراشد يعرف حدوده. من ميثاق المسلم أن يقول: لا أعلم، وأن يحيل إلى أهل العلم، وأن يفرق بين الانطباع والمعرفة، وبين الغيرة والفتوى، وبين الرأي الشخصي والحكم الشرعي.

ليس كل من أحسن العبارة أحسن العلم، وليس كل من كثرت متابعته صار أهلا للبيان. ومن تكلم بغير علم فقد يفسد وهو يظن أنه ينصر.

اجعل المنصة جسرا إلى عمل واقعي

من علامات الرشد أن لا يبقى التدين حبيس الشاشة. منشور عن الرحمة ينبغي أن يظهر في البيت والعمل. وكلام عن نصرة المظلوم ينبغي أن يقود إلى موقف عادل قريب. وحديث عن التربية ينبغي أن يظهر في صبرك على ولدك. وكلام عن الأخلاق ينبغي أن يظهر في تعاملك مع الموظف والجار والخصم.

اسأل نفسك: ما العمل الواقعي الذي يثمره هذا النشر؟ هل دفعني إلى صلة رحم؟ إلى صدقة؟ إلى إصلاح علاقة؟ إلى تعلم علم؟ إلى ترك ذنب؟ إلى خدمة إنسان؟ فإن لم يتجاوز التدين الشاشة، فليخف صاحبه أن يكون قد تحول إلى صورة لا عبودية.

لا تجعل المنصة بديلا عن الجماعة الصالحة

المنصات تعطي وهما بالصحبة، لكنها لا تغني عن صحبة حقيقية تراك وتعرفك وتنصحك. قد يكون لك آلاف المتابعين، ولا يكون لك أخ واحد يراجعك إذا ظلمت، أو ينصحك إذا قسوت، أو يذكرك إذا طلبت الصورة.

من ميثاق المسلم أن يحرص على صحبة صالحة خارج الشاشة: من يذكره بالله، ويجرؤ على نصحه، ولا يصفق لكل ما يقول، ولا يتركه وحيدا مع جمهوره. فالإنسان يحتاج إلى مرآة صادقة لا إلى جمهور دائم.

اجعل الرجوع فضيلة معلنة

إذا أخطأت فارجع. إذا نقلت خبرا غير صحيح فصححه. إذا ظلمت شخصا فاعتذر له. إذا نشرت شيئا ثم ظهر لك خلله فاحذفه أو بين خطأه. لا تجعل الخوف من الناس يمنعك من الصدق مع الله.
ومن الرشد أن يربي المسلم جمهوره على احترام الرجوع. يقول لهم بفعله قبل قوله: لست معصوما، والحق أكبر مني، والاعتذار لا يسقط الإنسان، بل يرفعه إذا كان صادقا.

اصنع محتوى يداوي لا محتوى يجرح

هناك محتوى يترك القارئ غاضبا فقط، وهناك محتوى يتركه أهدأ وأعلم وأرحم وأقرب إلى العمل. فليكن لك نصيب من المحتوى الذي يداوي: شرح معنى إيماني، تقريب حكم شرعي بلطف، تلخيص كتاب نافع، جمع فوائد، فتح باب تعلم، جواب على شبهة بأدب، تعليم مهارة، دعوة إلى مبادرة، إصلاح بين الناس، أو تذكير بخلق مهجور.

ليس كل الإصلاح في الردود. أحيانا يكون أعظم الإصلاح أن تبني شيئا نافعا حتى لا يبقى الناس أسرى المحتوى الغاضب.

احفظ كرامة الإنسان ولو رددت خطأه

من ميثاق المسلم أن يفرق بين إبطال الفكرة وإهانة صاحبها. قد ترد كلاما باطلا، وتحذر من خطأ مؤثر، وتبين انحرافا، لكنك لا تحتاج إلى سحق كرامة الإنسان حتى تثبت صحة موقفك.

الحق لا يحتاج إلى ظلم ليظهر. والدين لا ينتصر بإهدار كرامة الخلق. ومن لم يستطع أن يرد إلا بالإهانة، فليفتش عن حظ نفسه في الرد.

اجعل الصمت عبادة والكلام عبادة

ليس الصمت دائما حكمة، وليس الكلام دائما شجاعة. أحيانا يكون الصمت جبنا، وأحيانا يكون الكلام تهورا. المعيار ليس أن تتكلم أو تسكت، بل أن يكون كلامك لله وصمتك لله.

فإذا كان الكلام يحقق مصلحة راجحة، فتكلم بعلم وعدل. وإذا كان الكلام يزيد النار، فاسكت تورعا. وإذا لم تعلم، فاسكت تعلما. وإذا علمت أن غيرك أقدر على البيان، فاترك له المجال. ومن عرف متى يتكلم ومتى يسكت، فقد أخذ نصيبا من الحكمة.

قاوم سرعة المنصة ببطء التثبت

المنصات تريدك سريعا: اغضب الآن، علق الآن، شارك الآن، احكم الآن. أما الدين فيطلب منك التثبت والعدل والخوف من الله. لذلك من ميثاق المسلم

أن يبطئ حين تسرعه المنصة، وأن يفكر حين تثيره الموجة، وأن ينتظر حين يضغط عليه الجمهور. كثير من الندم الرقمي كان يمكن منعه بدقيقة توقف، وسؤال واحد: هل يرضى الله عن هذا؟

اجعل حسابك بابا من أبواب الصدقة الجارية

قد لا يملك الإنسان منبرا ولا مؤسسة ولا مالا كثيرا، لكنه يملك كلمة نافعة. فليجعل حسابه بابا لصدقة جارية: علم ينتفع به، خلق يذكر به، كتاب يدل عليه، محتاج يعرف الناس بحاجته، مبادرة خير يدعمها، معنى إيماني يحييه، أو خطأ شائع يصححه برحمة.

فالمسلم الراشد لا ينظر إلى المنصة كموضع تهديد فقط، بل كأرض يمكن أن تزرع فيها بذور الخير. وكما أن الشر ينتشر، فالخير أيضا ينتشر إذا وجد من يحمله بصدق وحكمة وصبر.

- قبل أن تنشر، اسأل: هل هذا لله؟
- قبل أن تعلق، اسأل: هل هذا عدل؟
- قبل أن تشارك، اسأل: هل تحققت؟
- قبل أن تحذر، اسأل: هل أريد الحماية أم التشهير؟
- قبل أن تسكت، اسأل: هل صمتي حكمة أم هروب؟
- قبل أن تغضب، اسأل: هل غضبي لله أم لنفسي؟
- قبل أن تبني جمهورك، اسأل: هل أربيهم على الحق أم على صورتي؟
- قبل أن تفرح بالتفاعل، اسأل: هل انتفع الناس أم اشتعلوا فقط؟
- قبل أن تنام، اسأل: ماذا تركت اليوم في قلوب الناس؟

إن التدين على الواقع الرقمي الراشد ليس مجرد كف عن الشر، بل صناعة للخير. ليس مجرد ترك للغيبة والشماتة والتشهير، بل بناء للعلم، ونشر للرحمة، وتثبيت للعدل، وتعليم للناس، وفتح لأبواب التوبة، وترميم لما كسرته الخصومات.

ومن أحسن استعمال المنصة جعلها مزرعة حسنات، ومن أساء استعمالها جعلها شاهدة عليه. والفرق بينهما ليس في نوع الهاتف ولا قوة الحساب، بل في القلب الذي يكتب، والنية التي تقود، والميزان الذي يحكم، والخوف من الله حين لا يراك إلا الله.

يمكن رد الآفات التي استعرضناها إلى خمسة جذور كبرى

1. **آفات الصورة**

مثل التدين الاستعراضي، النرجسية الدينية، طلب المكانة، عبادة الأشخاص، وعبودية القبول. أصلها النفسي هو أن يصبح الإنسان منشغلا بما يبدو عليه أكثر مما هو عليه عند الله.

2. **آفات الغضب**

مثل القسوة، الشماتة، التشهير، السادية الأخلاقية، التدين الانتقامي، وموجات الغضب. أصلها النفسي هو أن تختلط الغيرة بحظ النفس، فيتحول الحق إلى أداة إيلام.

3. **آفات الهروب**

مثل المداهنة، الخوف من الصدام، الهروب إلى القضايا الآمنة، التنافر المعرفي، وتديين الهوى. أصلها النفسي هو الفرار من كلفة الحق أو كلفة مواجهة النفس.

4. **آفات الانتماء**

مثل عقلية القطيع، تقديس الجماعة، التعلق بالهوية، الارتياب، وعبادة الرموز. أصلها النفسي هو أن يصبح الانتماء أسبق من العدل، والجماعة أسبق من الدليل.

5. **آفات الفهم**

مثل فقدان الأولويات، لي عنق النصوص، فقه النصوص بلا فقه نفوس، التلاعب بالمصطلحات، والنسبية الأخلاقية المطلقة. أصلها النفسي هو أن يدخل الهوى أو الخوف أو ضغط الجمهور في طريقة الفهم والاستدلال.

الخاتمة
يزكي الدين النفس أو تستعمله النفس

الدين في أصله نور ورحمة وعدل وهداية. جاء ليخرج الإنسان من عبودية الهوى إلى عبودية الله، ومن ظلمة الكبر إلى نور التواضع، ومن قسوة الجاهلية إلى رحمة الإيمان، ومن فوضى النفس إلى سكينة التقوى. لكنه حين يقع في يد نفس لم تتزك، قد تستعمله النفس في غير ما أنزل له. تستعمله لتتكبر، أو لتنتقم، أو لتشمت، أو لتسيطر، أو لتشتهر، أو لتبرر قسوتها. وقد تستعمله كذلك لتنال القبول، أو لتتجنب الكلفة، أو لتخفي خجلها، أو لتذوب في الثقافة الغالبة، أو لتجعل الرحمة غطاء للتفلت من التكليف.

وهنا يكون الخطر عظيما؛ لأن المعصية إذا ظهرت في صورة معصية ربما تاب صاحبها منها، أما المرض إذا ظهر في صورة تدين فقد يراه صاحبه قربة. يظلم وهو يظن أنه ينصر الحق، ويقسو وهو يظن أنه يغار، ويتكبر وهو يظن أنه يعتز بالدين، ويشمت وهو يظن أنه يفرح بظهور السنة. وفي الجهة الأخرى، يميع وهو يظن أنه يرحم، ويداهن وهو يظن أنه يحسن الخطاب، ويخفي الحكم وهو يظن أنه يراعي الواقع، ويذيب الهوية وهو يظن أنه يخدم الإنسانية.

ومن هنا تظهر الحاجة الكبرى إلى تزكية النفس قبل تصدر المنصات، وإلى محاسبة القلب قبل صناعة المحتوى، وإلى خوف الله قبل خوف الجمهور، وإلى العلم قبل الجرأة، وإلى الرحمة قبل الإنكار، وإلى الصدق قبل البحث عن القبول. ليس التدين الصادق أن تكون غليظا باسم الحق، ولا أن تكون مائعا باسم الرحمة. ليس أن تكسب كل معركة رقمية، ولا أن ترضي كل جمهور اجتماعي.

ليس أن تكون أكثر الناس صخبا، ولا أكثرهم لطفا في الصورة. بل أن تكون أقرب إلى الله في قلبك ولسانك وموقفك. أن تقول الحق بلا كبر، وأن ترحم الخلق بلا مداهنة، وأن تثبت بلا قسوة، وأن تلين بلا ذوبان، وأن تخاف من ظلم الناس كما تخاف من مخالفة النص، وأن تخاف من تحريف النص كما تخاف من تنفير الناس.

فالدين إما أن يزكي النفس، وإما أن تستعمله النفس. إذا زكاها جعلها أصدق، وأعدل، وأرحم، وأورع، وأشجع على الحق، وأقدر على الاعتذار، وأبعد عن الشماتة، وأعف عن أعراض الناس، وأثبت أمام ضغط القبول الاجتماعي. وإذا استعملته النفس جعلته سلاحا في يد الكبر، أو غطاء في يد الخوف، أو سلما إلى المكانة، أو بطاقة للانتماء، أو لغة للتفوق، أو مادة للتذويب والقبول.

ولذلك يحتاج المتدين، وخاصة المتصدر في الفضاء الرقمي، إلى خوف دائم من نفسه. يحتاج أن يسأل الله الإخلاص كما يسأله العلم. وأن يطلب الرحمة كما يطلب الحجة. وأن يتعلم الورع في الأعراض كما يتعلم الرد على الشبهات. وأن يتعلم فقه النصوص كما يتعلم فقه النفوس. وأن يعرف أن حفظ اللسان عبادة، وأن العدل مع المخالف عبادة، وأن ستر المسلم عند القدرة عبادة، وأن الرجوع عن الخطأ عبادة، وأن ترك النشر أحيانا عبادة، وأن قول الحق برحمة عبادة، وأن رفض المداهنة بأدب عبادة.

وليست البطولة أن لا تخطئ، بل أن لا تجعل الدين غطاء لخطئك. وليست الغيرة أن تكون شديدا دائما، بل أن تكون صادقا عادلا في موضع الشدة واللين. وليست الرحمة أن تلغي الحق، بل أن تبلغه بقلب يريد الهداية لا الغلبة. وليس

الانفتاح أن تذوب، بل أن تحسن الخطاب وأنت ثابت الجذر. وليس الحزم أن تقسو، بل أن تحفظ الحق بلا ظلم.

فمن جعل الدين مرآة يرى بها عيوب نفسه قبل عيوب الناس، فقد بدأ طريق التزكية. ومن جعله منظارا لا يرى به إلا عيوب الخلق، أو قناعا يخفي به خوفه من الخلق، فليخف أن يكون قد حمل نورا عظيما بيد نفس لم تتطهر بعد.

وهذه الكلمات، مهما بلغت في التحذير والتنبيه، لا تزعم العصمة لصاحبها، ولا تقدم كاتبها في مقام الناجي من هذه الآفات. فإن النفس أضعف من أن تؤمن عليها الفتنة، وأشد مراوغة من أن يطمئن إليها صاحبها، وأحوج ما تكون إلى من يبصرها بعيوبها قبل أن تستحكم، وبزلاتها قبل أن تتسع، وبنقصها قبل أن تلبس النقص ثوب الكمال.

فمن وجد في هذه الورقات تقصيرا فليدلني عليه، ومن وجد زللا فليصوبه، ومن رأى نقصا فليكمله، ومن رأى معنى نافعا فليزده تهذيبا وبيانا؛ فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه، والقلوب تتواصى كما تتواصى العقول، والنصيحة الصادقة رحمة وإن جاءت في صورة تنبيه أو تصحيح.

ورحم الله امرأ أهدى إلي عيبي، ودلني على خير، ونهاني عن شر، وصوب زللا، وأكمل نقصا، وأخذ بيدي إلى الصراط المستقيم. فليس المقصود أن ينتصر الكاتب لعبارته، ولا أن يدافع عن صياغته، ولا أن يجعل من النص حاجزا بينه وبين النصيحة، بل المقصود أن يكون الكلام كله بابا إلى إصلاح النفس، ومرآة يرجع إليها صاحبها قبل قارئها، وسببا في أن نتعلم كيف ننظر إلى الداخل قبل أن

نشتغل بالخارج، وكيف نطلب النجاة لا الغلبة، والهداية لا التصدر، والصدق لا حسن الصورة.

ونسأل الله أن لا يجعلنا ممن يقولون ما لا يفعلون، أو ينصحون بما لا يتخلقون به، أو يحذرون من آفات يقعون في مثلها وهم لا يشعرون. ونسأله سبحانه أن يصلح نياتنا، وأن يطهر مقاصدنا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يرزقنا علما نافعا، وقلبا خاشعا، ولسانا صادقا، وعملا متقبلا.

ونسأله أن يصلح لنا سرائرنا وعلانيتنا، وبدايات أعمالنا وخواتيمها، وأن يتقبل منا ما كان صوابا، وأن يعفو عما كان فيه خطأ أو تقصير، وأن يجعل هذا الجهد حجة لنا لا علينا، وسببا في تزكية النفس لا في تزكية الصورة، وأن يهدينا سواء السبيل.

معجم الآفات النفسية في هذا الكتاب

هذا الملحق لا يقصد به تشخيص الأشخاص، ولا الحكم على النيات، ولا تحويل الخطاب الديني إلى عيادة نفسية مفتوحة. فالقلوب إلى الله، والنيات لا يعلمها إلا هو. وإنما المقصود أن نقدم للقارئ خريطة نفسية موجزة للآفات المذكورة في الكتاب، مع تقريبها إلى بعض المصطلحات النفسية المعروفة باللغة الإنجليزية، حتى يتضح الفرق بين الآفات المتقاربة، ولا يشعر القارئ أن الفصول تكرر المعنى نفسه بأسماء مختلفة.

هذا الملحق ليس تشخيصا سريريا، بل خريطة مفاهيمية تساعد القارئ على التمييز بين الآفات المتقاربة. والمصطلحات الإنجليزية المذكورة ليست دائما مقابلا طبيا أو تشخيصيا دقيقا، وإنما هي أقرب المفاهيم النفسية التي تساعد على الفهم. فالكتاب لا يتعامل مع هذه الظواهر بوصفها اضطرابات سريرية، بل بوصفها أنماطا نفسية وأخلاقية وسلوكية قد تظهر في الخطاب الديني الرقمي.

وقد سبق التنويه في صدر الكتاب إلى طبيعة الاستعانة المحدودة بالأدوات الرقمية لترجمة المصطلحات النفسية، مع بقاء المسؤولية العلمية والأدبية كاملة على المؤلف.

أولا: آفات الصورة والذات

1. التدين المغشوش

المصطلح النفسي الأقرب Instrumental Religiosity / Extrinsic Religiosity : هو أن يتحول الدين من عبودية تزكي النفس إلى وسيلة تستعملها النفس لتثبيت صورتها، أو حماية هواها، أو كسب مكانة، أو إرضاء جمهور. مركز هذه الآفة أن التدين لا يعود طريقا إلى الله بقدر ما يصبح أداة نفسية واجتماعية.

2. التدين الاستعراضي

المصطلح النفسي الأقرب Religious Self-Presentation / Impression Management / Virtue Signaling : هو استعمال الخطاب الديني لصناعة صورة أمام الناس: صورة الغيور، أو الحارس، أو الشجاع، أو الرحيم، أو المنفتح. مركز هذه الآفة هو حب الظهور؛ فصاحبها لا يكتفي بأن يظهر الحق، بل يريد أن يظهر هو مع الحق.

3. عقدة التفوق الديني والأخلاقي

المصطلح النفسي الأقرب-Self Moral Superiority Bias / Righteousness / Moral Grandiosity : هي شعور داخلي بأن صاحبه أعلى من غيره دينا ووعيا ونجاة، وأنه في موقع الحكم على الناس لا التناصح معهم. مركز هذه الآفة هو الاستعلاء الأخلاقي؛ حيث يرى الإنسان عيوب غيره أكثر مما يرى عيوب نفسه.

4. النرجسية الدينية

المصطلح النفسي الأقرب Spiritual / Religious Narcissism Narcissism : هي أن يجعل الإنسان نفسه أو فهمه أو جماعته مركزا للحقيقة، فيخلط بين الانتصار للدين والانتصار لصورته. مركز هذه الآفة هو تضخم الذات داخل الخطاب الديني، حتى يصبح نقد الشخص كأنه نقد للحق نفسه.

5. استغلال الدين للمكانة الاجتماعية المصطنعة

المصطلح النفسي الأقرب / Status Seeking / Social Signaling : Prestige Motivation هو توظيف مظاهر التدين أو لغته أو حضوره الرقمي للحصول على وجاهة اجتماعية ومكانة رمزية. مركز هذه الآفة هو طلب المنزلة لا طلب التزكية.

6. عبادة الأشخاص والرموز الدينية

المصطلح النفسي الأقرب Authority Bias / Guru Effect / Parasocial : Attachment هي التعلق المرضي بالرمز حتى يصبح معيارا للحق، لا مجرد طريق إليه. مركز هذه الآفة هو تحويل المحبة والتوقير إلى عصمة نفسية، فيقبل الإنسان من محبوبه ما يرده من غيره.

7. عقدة المنقذ الديني

المصطلح النفسي الأقربSavior Complex / Messiah Complex : هي شعور الإنسان بأنه مكلف بإنقاذ الجميع، وأن غيابه خطر، وصمته خيانة، وأن الدين أو الناس يحتاجون إليه في كل معركة. مركز هذه الآفة هو تضخم الدور الذاتي تحت غطاء الرسالة.

ثانيا: آفات الغضب والقسوة

8. التعصب الديني

المصطلح النفسي الأقرب Dogmatism / Cognitive Rigidity / Need : for Cognitive Closure هو التعلق الحاد برأي أو جماعة أو تصنيف، مع ضعف القدرة على احتمال التعقيد والخلاف والتفصيل. مركز هذه الآفة هو الحاجة إلى اليقين السهل، حيث تهرب النفس من مشقة الفهم إلى راحة الأبيض والأسود.

9. القسوة حين تتنكر في هيئة الغيرة

المصطلح النفسي الأقرب Moralized Aggression / Righteous Anger : Bias هي استعمال الشدة والجرح والإهانة باسم حماية الدين. مركز هذه الآفة هو اختلاط الغضب للنفس بالغضب للحق؛ فالغيرة الصادقة تحزن على الخطأ، أما القسوة فتفرح بالخصومة والهزيمة.

10. الشماتة الدينية

المصطلح النفسي الأقربSchadenfreude / Moral Schadenfreude : هي الفرح بسقوط المخالف، مع تسمية ذلك فرحا بظهور الحق. مركز هذه الآفة هو لذة الإدانة؛ فالفرح بالحق يحب رجوع المخطئ، أما الشماتة فتتغذى من سقوطه.

11. السادية الأخلاقية

المصطلح النفسي الأقربMoral Sadism / Punitive Sadism : هي التلذذ بعقاب المخطئ وإهانته باسم العدل أو التربية أو الغيرة. مركز هذه الآفة هو الاستمتاع بألم الآخر، لا مجرد إقامة الحق أو حماية الناس.

12. حين يتحول التحذير إلى تشهير

المصطلح النفسي الأقرب Public Shaming / Online Shaming / Reputational Aggression هو انتقال التحذير من مقصد حماية الناس وبيان الحق إلى مقصد إسقاط الشخص وكسر صورته. مركز هذه الآفة هو فساد القصد والقدر؛ فالتشهير يتوسع فيما لا تدعو إليه الحاجة، ويغلق باب الرجوع، ويفرح بانتشار الفضيحة.

13. التدين الانتقامي

المصطلح النفسي الأقرب Displaced Aggression / Vengeance Motivation / Retaliatory Moralism : هو استعمال الخطاب الديني لتصفية حساب نفسي قديم مع شخص أو تيار أو بيئة أو نمط من الناس. مركز

هذه الآفة هو الثأر المغلف بالغيرة؛ فقد يكون الكلام في ظاهره دفاعا عن الحق، لكنه في باطنه تفريغ لجرح لم يشف.

14. التدين المجهول خلف اسم مستعار

المصطلح النفسي الأقرب Online Disinhibition Effect / Anonymous Aggression : هو استعمال المجهولية الرقمية لإطلاق القسوة والاتهام والجرح دون تحمل تبعة أخلاقية واضحة. مركز هذه الآفة هو الجرأة بلا مسؤولية؛ إذ يكتب الإنسان خلف القناع ما قد يستحي أن يقوله باسمه ووجهه.

15. العدوى النفسية للغضب الديني

المصطلح النفسي الأقرب Affective / Emotional Contagion : هي انتقال الغضب من شخص إلى آخر عبر المنشورات والتعليقات Contagion والمقاطع حتى يصبح مزاجا عاما. مركز هذه الآفة هو الانفعال بالتقليد؛ فالإنسان لا يغضب دائما لأنه فهم، بل لأنه رأى جماعته غاضبة.

16. اقتصاد الغضب الديني

المصطلح النفسي الأقرب Moral Outrage / Outrage Economy : هو تحول الغضب إلى سلعة رقمية تجذب التفاعل وتزيد Amplification الانتشار. مركز هذه الآفة أن المنصة تكافئ الانفعال أكثر مما تكافئ العدل، فيتعلم الخطاب الديني كيف يثير الناس لا كيف يربيهم.

17.صناعة موجات الغضب

المصطلح النفسي الأقرب Moral Contagion / Collective Outrage : هي تضخيم الجمهور لقضية ما عبر التفاعل والانفعال Group Polarization حتى تتجاوز قدرها العادل. مركز هذه الآفة هو العدوى الجماعية؛ فقد تبدأ بحق، لكنها تتضخم حتى تختلط بالظلم والتشفي والتسرع.

ثالثا: آفات الهروب والتبرير

18.الإسقاط النفسي

المصطلح النفسي الأقربPsychological Projection : هو أن يتهم الإنسان الآخرين بما يسكن في داخله ولا يريد الاعتراف به. مركز هذه الآفة هو الهروب من مواجهة النفس؛ فقد يهاجم حب الظهور وهو يطلبه، أو يهاجم التعصب وهو يمارسه.

19.التنافر المعرفي الديني

المصطلح النفسي الأقربCognitive Dissonance : هو الصراع الداخلي بين ما يعرفه الإنسان من الحق وما يفعله أو يميل إليه، فيلجأ إلى التأويل والتبرير حتى لا يواجه نفسه. مركز هذه الآفة هو حماية الصورة الذاتية من الانكسار.

20. الرخصة الأخلاقية باسم الدين

المصطلح النفسي الأقربMoral Licensing : هي أن يشعر الإنسان أن أعماله الدينية أو مواقفه في نصرة الحق تمنحه حقا خفيا في تجاوز أخلاقيات أخرى. كاستعمال الحسنة لتبرير السيئة، ليظن أن غيرته تعفيه من العدل.

21. الهروب الروحي من الجراح الشخصية

المصطلح النفسي الأقربSpiritual Bypassing : هو استعمال الدين للهروب من ألم نفسي غير معالج، بدلا من تزكية هذا الألم وشفائه. مركز هذه الآفة هو تحويل الجرح إلى خطاب؛ فيتكلم الإنسان باسم الدين، بينما تقود كلامه جراح قديمة.

22. الهروب من واجبات الحاضر إلى القضايا الآمنة

المصطلح النفسي الأقرب / Displacement / Avoidance Coping : Moral Compensation هو الانشغال بقضايا بعيدة أو عامة أو تاريخية هروبا

من واجب قريب ومحدد. مركز هذه الآفة هو استبدال المسؤولية المباشرة بشعور أخلاقي مريح؛ فيتكلم الإنسان عن الأمة وهو يظلم من حوله.

23. تديين الهوى باسم المقاصد

المصطلح النفسي الأقرب Motivated Reasoning / Desire-Based Reasoning: هو استعمال لغة المقاصد لتبرير رغبات النفس أو ضغوط الواقع دون انضباط بالنص والعلم. مركز هذه الآفة هو جعل المقصد سلاحا على النص، لا فهما أعمق له.

24. لي عنق النصوص والقص واللصق

المصطلح النفسي الأقرب / Confirmation Bias Cherry Picking / Proof-Texting: هو اجتزاء النصوص أو الأقوال أو الوقائع لتمرير فهم سابق في النفس. مركز هذه الآفة هو استخدام الدليل لتأكيد الهوى، لا لتصحيحه.

25.التلاعب بالمصطلحات

المصطلح النفسي الأقرب / Euphemistic Labeling Framing Effect / Semantic Manipulation: هو تغيير اسم المرض ليصبح مقبولا: تسمية القسوة غيرة، والخوف حكمة، والمداهنة رحمة، والكبر عزة، والهوى مقاصد. مركز هذه الآفة هو الهروب من حقيقة الفعل عبر تجميل اسمه.

رابعا: آفات الانتماء والجماعة

26. عقلية القطيع الديني

المصطلح النفسي الأقرب Echo / Conformity / Groupthink Chamber Effect: هي ذوبان الفرد في رأي جماعته الرقمية حتى يظن أنه يفكر مستقلا، بينما هو يردد ما تسمح به الدائرة التي ينتمي إليها. مركز هذه الآفة هو ضغط الانتماء.

27. التعلق بالهوية الدينية لا بحقيقة العبادة

المصطلح النفسي الأقرب-Identity / Social Identity Fusion : Protective Cognition هو أن يصبح الدين هوية صراعية يعرف الإنسان نفسه بها ضد الآخرين، أكثر من كونه عبودية تصلحه بين يدي الله. مركز هذه الآفة هو سؤال: من نحن ومن هم؟ بدلا من سؤال: ماذا يريد الله مني؟

28. تقديس الجماعة أو التيار

المصطلح النفسي الأقرب / Group Narcissism / In-Group Bias : Tribalism هو جعل الجماعة أو المدرسة أو التيار حجابا عن الدليل والعدل. مركز هذه الآفة هو العصبية الجماعية؛ فلا يسأل: أين الحق؟ بل يسأل: ماذا يقول فريقنا؟

29. التدين الدفاعي والخوف من الاتهام

المصطلح النفسي الأقرب-Identity / Defensive Religiosity : Protective Reasoning / Defensive Processing هو اختيار الموقف الأشد أو الأعلى صوتا لا لأنه الأعدل، بل لأنه الأكثر أمانا أمام جمهور المتدينين. مركز هذه الآفة هو الخوف من الاتهام بالتساهل أو التمييع.

30.الارتياب الديني وعقلية المؤامرة

المصطلح النفسي الأقرب Conspiratorial / Conspiracy Mentality : Thinking هو تفسير الوقائع والأشخاص دائما بمنطق الخفاء والتآمر والنية السيئة دون بينة كافية. مركز هذه الآفة هو انعدام الأمان الداخلي، حيث يظن الإنسان أنه أكثر وعيا، بينما قد يكون أقل إنصافا.

31. الحسد المقنع بالغيرة الدينية

المصطلح النفسي الأقربMalicious Envy / Social Comparison : هو ألم داخلي من فضل الله على شخص آخر، يخرج في صورة تحذير أو نقد أو غيرة.

مركز هذه الآفة هو المنافسة النفسية على المكانة؛ فصاحبها لا يريد فقط تصحيح خطأ الآخر، بل يريد زوال أثره من القلوب.

خامسا: آفات الرحمة المائعة والقبول الاجتماعي

32. المداهنة الدينية

المصطلح النفسي الأقرب / Appeasement / Conflict Avoidance People-Pleasing هي إخفاء الحق أو تليينه في غير موضع اللين طلبا للسلامة أو القبول. مركز هذه الآفة هو الخوف من خسارة الناس؛ وهي تختلف عن الحكمة، لأن الحكمة تحفظ الحق وتختار طريقة بيانه، أما المداهنة فتضيع الحق لتجنب كلفته.

33. عقدة القبول الاجتماعي

المصطلح النفسي الأقربNeed for Approval / Approval Seeking : هي احتياج مبالغ فيه إلى رضا الجمهور، حتى يصبح حكم الناس أثقل في القلب من حكم الحق. مركز هذه الآفة هو عبودية القبول.

34. الخجل من الانتماء الديني

المصطلح النفسي الأقرب Religious Identity Shame / Internalized Stigma هو شعور داخلي بالحرج من إظهار الانتماء إلى الدين أو الدفاع عن معانيه الواضحة خوفا من الصورة الاجتماعية. مركز هذه الآفة هو ضعف الاعتزاز بالحق أمام ضغط الذوق العام.

35.الانهزام النفسي أمام الآخر

المصطلح النفسي الأقرب Colonial Mentality / Internalized Inferiority هو أن ينظر الإنسان إلى قيم الآخرين ومعاييرهم باعتبارها الأصل

الذي ينبغي للدين أن يعتذر أمامه أو يتشكل وفقه. مركز هذه الآفة هو فقدان الثقة بالوحي وبالذات الحضارية.

36. النسبية الأخلاقية المطلقة

المصطلح النفسي الأقربMoral Relativism / Normative Relativism :
هي تحويل كل قيمة إلى وجهة نظر، وكل حد إلى ذوق، وكل حق إلى احتمال، حتى تضيع القدرة على الحكم الأخلاقي. مركز هذه الآفة هو الهروب من الالتزام تحت ستار الانفتاح.

37. .37 اللطف الزائف

المصطلح النفسي الأقربToxic Positivity / False Agreeableness :
هو لطف ظاهري لا يحمله صدق مع الحق، بل رغبة في عدم إزعاج أحد. مركز هذه الآفة هو تجنب الكلفة الأخلاقية للبيان؛ فالرفق يقول الحق بأحسن طريق، أما اللطف الزائف فقد يخفي الحق كله.

38.الخوف المرضي من الصدام

المصطلح النفسي الأقرب Conflict Avoidance / Fear of Confrontation : هو تضخم الخوف من المواجهة حتى يصبح الإنسان عاجزا عن إنكار باطل أو بيان حق أو تحمل تبعة موقف. مركز هذه الآفة هو القلق من التوتر، لا الحكمة في اختيار الأسلوب.

39. تمييع الحدود باسم الرحمة

المصطلح النفسي الأقربBoundary Erosion / Permissiveness : هو
إلغاء الفواصل الشرعية والأخلاقية بحجة الرحمة بالناس. مركز هذه الآفة هو الخلط بين الرحمة وإزالة التكليف؛ فالرحمة الشرعية تعين الإنسان على الحق، لا تمحو الحق حتى لا يشعر بالحرج.

40. تحويل الدين إلى تجربة شعورية فقط

المصطلح النفسي الأقرب Affective Reductionism / Experiential Reductionism: هو اختزال الدين في إحساس داخلي بالطمأنينة أو الجمال أو السلام، دون التزام بالوحي والتكليف والحدود. مركز هذه الآفة هو جعل الشعور حاكما على الدين، بدلا من أن يكون الدين هاديا للشعور.

41. الانتقائية الحداثية

المصطلح النفسي الأقرب Selective Appropriation / Confirmation Bias: هي قبول ما يوافق الذوق الحديث من الدين، ورد ما يصادمه أو تأويله قهرا. مركز هذه الآفة هو جعل العصر معيارا حاكما على الوحي.

42. كراهية الحزم لذاته

المصطلح النفسي الأقرب Conflict / Assertiveness Aversion: Aversion هي رفض الحزم لأنه حزم، لا لأنه وقع في غير موضعه. مركز هذه الآفة هو الخلط بين القوة والقسوة؛ فيرى صاحبها كل وضوح تنفيرا، وكل حد غلظة، وكل إنكار اعتداء.

43. تذويب الهوية باسم الإنسانية

المصطلح النفسي الأقرب Universalistic Identity Dilution / Bypassing: هو إلغاء الخصوصية الدينية والأخلاقية بحجة الانتماء الإنساني العام. مركز هذه الآفة هو تحويل معنى إنساني شريف إلى أداة لمحو الفروق التي جعلها الدين جزءا من التكليف والهوية.

سادسا: آفات الفهم والاستدلال

44. فقه الدليل دون فقه التراث

المصطلح النفسي الأقرب: Epistemic Overconfidence / Dunning-Kruger Effect هو التعامل المباشر مع النصوص دون اعتبار كاف لفهم العلماء وتراكم الفقه وأدوات الاستنباط. مركز هذه الآفة هو الثقة الزائدة بالفهم الفردي.

45. فقه النصوص حين يغيب عنه فقه النفوس

المصطلح النفسي الأقرب: Empathy Gap / Context Blindness هو معرفة الحكم أو الدليل مع ضعف فهم أحوال الناس ومداخلهم وطاقاتهم وآثار الخطاب عليهم. مركز هذه الآفة هو نقص الحكمة التطبيقية؛ فقد يقال الحق بطريقة تهدم أثره.

46. فقدان فقه الأولويات

المصطلح النفسي الأقرب: Salience Bias / Availability Heuristic / Priority Distortion هو اضطراب ترتيب القضايا والواجبات، فيكبر الصغير ويصغر الكبير بحسب الضجيج لا بحسب الميزان الشرعي والأخلاقي. مركز هذه الآفة هو الخضوع لإيقاع المنصة لا لمراتب الحق.

47. غياب فقه الستر حين صارت العثرات محتوى

المصطلح النفسي الأقرب: Digital Shaming / Privacy Boundary Collapse هو التعامل مع عثرات الناس كأنها مادة مباحة للنشر والتداول. مركز هذه الآفة هو ضعف الحياء من كشف العورات، ونسيان أن البيان المشروع شيء، واستهلاك السقوط شيء آخر.

سابعا: آفات المتلقي والمنصة

48. المتلقي المغشوش

المصطلح النفسي الأقرب Participatory Amplification / Passive Complicity : هو الجمهور الذي يستهلك الخطاب المغشوش ويكافئه وينشره، وإن لم يصنعه ابتداء. مركز هذه الآفة هو المشاركة غير المباشرة في الفتنة؛ فالإعجاب والنشر والتعليق قد تصنع موجة ظلم كاملة.

49.الاحتراق الروحي والدعوي

المصطلح النفسي الأقرب Religious Burnout / Activist Burnout / Compassion Fatigue : هو إنهاك القلب بسبب كثرة المعارك والردود والانفعالات حتى يفقد الإنسان سكينته وخشوعه ورحمته. مركز هذه الآفة هو استهلاك النفس باسم النصرة.

50. التدين على الواقع الرقمي غير المنضبط

المصطلح النفسي الأقرب Digital Disinhibition / Attention-Driven Behavior : هو أن تتشكل طريقة التدين بحسب إيقاع المنصة: السرعة، التفاعل، الاختصار، الغضب، والبحث عن الظهور. مركز هذه الآفة هو أن يصبح الجمهور والخوارزمية أحيانا أقوى أثرا من المراقبة والخلوة.

ثامنا: مفاهيم علاجية مقابلة

51. أدب الرجوع والاعتذار

المصطلح النفسي الأقرب Accountability / Self-Correction / Repair : ليس آفة، بل علاج لآفات الصورة والكبر والقطيع. وهو قدرة الإنسان على الاعتراف بالخطأ وتصحيح الأثر دون مراوغة أو خوف من سقوط المكانة. مركزه النفسي هو تحرير النفس من عبودية الصورة أمام الجمهور.

52. .التدين على الواقع الرقمي الراشد

المصطلح النفسي الأقرب Self-Regulation / Reflective Functioning : Moral Self-Awareness / هو استعمال المنصات بوصفها وسيلة للبيان والنفع، لا مسرحا للصورة أو الغلبة أو القبول. مركزه النفسي هو مراقبة الله قبل مراقبة الجمهور، وضبط النية قبل النشر، وتقديم التزكية على الانتصار.

وبهذا لا تكون فصول الكتاب تكرارا، بل زوايا مختلفة لمرض واحد كبير: أن تدخل النفس إلى الدين قبل أن تتأدب به، فتستعمله قبل أن يسوسها، وتتكلم باسمه قبل أن تتزكى بنوره.

قراءات نافعة في تزكية النفس وآفات التدين وأدب الخلاف

لا يقصد من هذه القائمة الاستقصاء، وإنما الإشارة إلى جملة من المراجع التي انتفع بها المؤلف أو توافق موضوع الكتاب، ويستحسن الرجوع إلى الطبعات المحققة المعتمدة

1. القرآن الكريم
2. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.
3. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، بداية الهداية، دار المنهاج، جدة، الطبعة الثانية، 1442هـ / 2021م.
4. أبو طالب محمد بن علي المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1426هـ / 2005م.
5. الحارث بن أسد المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 2010م.
6. الحارث بن أسد المحاسبي، رسالة المسترشدين، دار السلام، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، 2020م.
7. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2001م.
8. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1425هـ / 2004م.
9. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ذم الهوى، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012م.
10. أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 2010م.
11. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة المجددة، 1426هـ / 2005م.

12. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، أمراض القلوب وشفاؤها، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1399هـ.
13. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1416هـ / 1996م.
14. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، طبع دار عالم الفوائد، جدة، الطبعة الأولى، 1429هـ / 2008م.
15. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1432هـ.
16. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار ابن حزم، بيروت، ودار عطاءات العلم، الطبعة الرابعة، 2019م.
17. عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، الفرق بين النصيحة والتعيير، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثالثة، 2015م.
18. عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، محاسبة النفس والإزراء عليها، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ / 1986م.
19. عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، الصمت وآداب اللسان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ / 1990م.
20. عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، الإخلاص والنية، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، 1413هـ.
21. علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، 1434هـ.
22. علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986م.
23. يحيى بن شرف النووي، التبيان في آداب حملة القرآن، دار المنهاج، الطبعة الثانية، 1432هـ / 2011م.
24. سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، 2008م.

25. محمد الغزالي، خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1407هـ / 1987م.
26. محمد الغزالي، ليس من الإسلام، دار الشروق، القاهرة / بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.
27. محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، القاهرة / بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ / 1989م.
28. محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار الشروق، القاهرة / بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.
29. محمد الغزالي، علل وأدوية: دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء، دار الشروق، القاهرة / بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.
30. محمد الغزالي، هموم داعية، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثالثة، 1421هـ / 2000م.
31. محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 2019م.

عن الكتاب

في زمن أصبحت فيه منصات التواصل مسرحاً مفتوحاً للخطاب الديني، وتحول التدين لدي كثيرين إلى صورة تُعرض، وهوية تُسوق، ومادة للاستقطاب والجدل، يأتي هذا الكتاب ليضع مرآة صادقة أمامنا جميعاً.

ليس هذا الكتاب هجماً على التدين، بل دعوة إلى التدين الراشد؛ تدين يستقيم في القلب قبل أن يظهر في المنشور، ويتجذر في السلوك قبل أن بطلب الإعجاب، ويبحث عن رضا الله قبل أن يبحث عن الشهرة.

من خلال قراءة نفسية وقلبية لآفات التدين الزائف على السوشيال ميديا، يكشف الكتاب عن الدوافع الخفية، والاحتياجات النفسية، والآليات الرقمية التي تغذي هذا النمط من التدين، ويقدمُ إطاراً عملياً يساعد القارئ على مراجعة نفسه، وتصويب نيته، واستعادة صدق العلاقة مع الله في عالم مليء بالضجيج.

علاء الدين محمد رجب

مهندس ورائد أعمال ومهتم بالتكنولوجيا والتحول الرقمي، باحث في تقاطعات النفس والسلطة والمجتمع. يسعى من خلال كتاباته إلى قراءة الظواهر من جذورها الداخلية، لا من مظاهرها السطحية.

ماذا ستجد في هذا الكتاب؟

- تحليلاً نفسياً لظاهرة التدين المغشوش وأسبابها.
- أمثلة واقعية من السوشيال مبديا وتأثيرها على الأفراد والمجتمع.
- مفاهيم عملية لبناء تدين متوازن وواعي في العصر الرقمي.
- إضاءات من القرآن والسنة وتراث العلماء والحكماء.
- أدوات للمراجعة الذاتية وحماية القلب من آفات الرياء وحب الظهور.
- دعوة صادقة إلى أن نكون كما نبدو.... بل أفضل مما نبدو.

هذا الكتاب لكل من يريد أن يتأمل، لا أن يتهم...
وأن يراجع نفسه، لا أن يحاكم الأخرين...
فالتدين الحق رحلة إلى الله،
وليس سباقاً على أعين الناس.

9 786030 696536